مكتبة الجيلاني

٤

آداب السلوك

تأليف

الشيخ عبد القادر الجيلاني

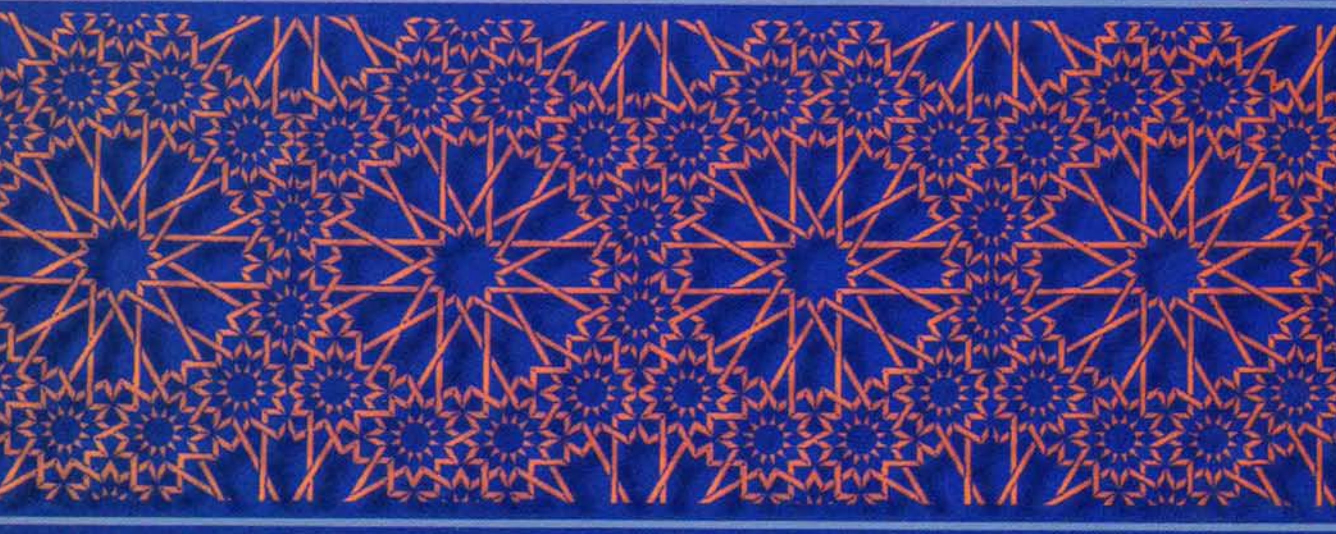
قدس الله سره العالي

تحقيق

محمد غسان نصوح عزقول

قدم له الأستاذ

محمد زكريا الزعيم



دار السنابل

بسم الله الرحمن الرّحیم

آداب السّلوک

بارسی

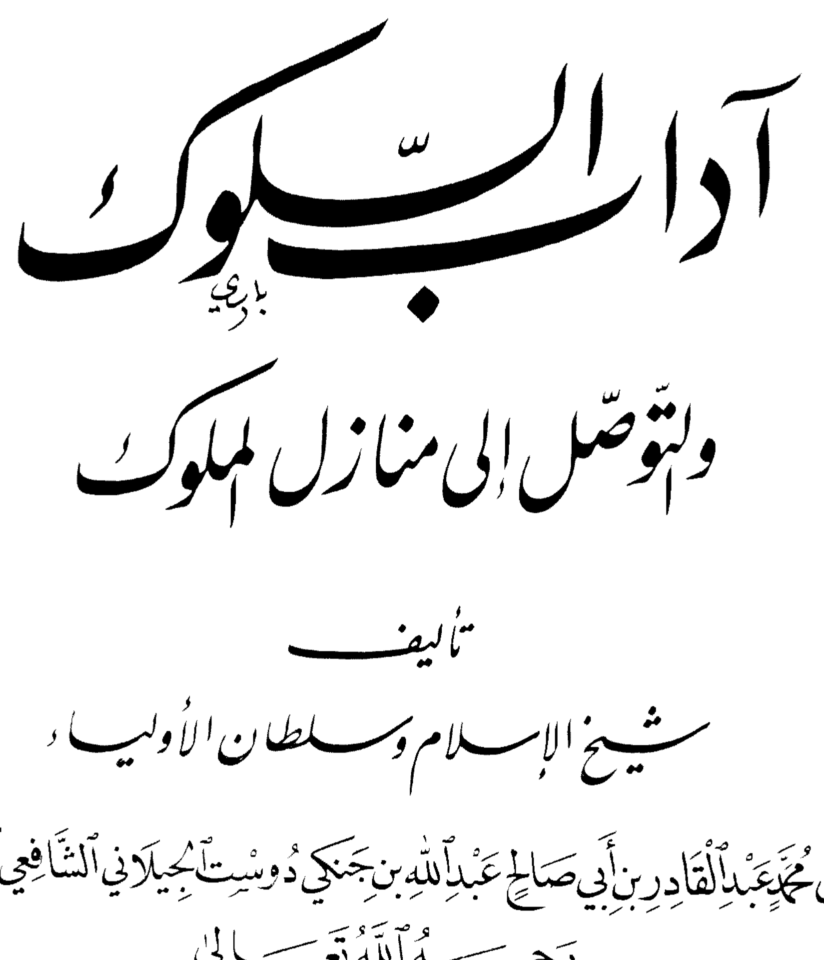
والتوصّل الی منازل الملوک

آداب السُّلوك والتَّوصُّل إِلى منازل الملوك / تأليف أَبي محمَّد عبد القادر بن أَبي صالح
عبد اللّه بن جنكي دوست الجيلانيّ الشّافعي الحنبلي ؛ تحقيق محمَّد غسّان نصوح عزقول . ـ
دمشق : **دار السَّنابل** ، ١٩٩٥ . ـ ٢٠٠ ص ؛ ٢٥سم .

١ ـ ٢١٨،٩٦ ع ب د آ ٢ ـ العنوان ٣ ـ عبد القادر الجيلانيّ ٤ ـ عزقول
٥ ـ السِّلسلة .

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني
ع ـ ١٩٩٥/٩/١٣٣٧

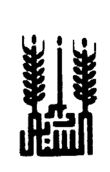


(٤٧٠ - ٥٦١ هـ)

تحقيق
محمد غسان نصوح عزقول

قدم له الأستاذ
محمد زكريا الزعيم

دار السنابل



الكتاب الحادي عشر
الطبعة الأولى ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م

دار السنابل للطباعة والتوزيع والنشر : سورية ـ دمشق ـ ص . ب (٣٠٦٠٨) ـ س . ت . (٦٤٢٩٢) ـ هاتف (٢٢٣١٣٩٢)

الإهداء

إلى الرَّجل الصَّالح والعالم المتبتّل الورع.
الذي كفلني لطيماً وأنا ابن أشهر.
أدَّبني فنشأت غرس يديه، وغصن دوحته
وشعاع مصباحه.
إلى الَّذي أمضى حياته وأفنى شبابه في خدمة
كتاب الله تعالى وسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم
إنَّه الرَّجل الصَّالح الَّذي قصر عمره على خدمة
أبناء الضَّاد، والقيام بشأن الثقافة العربيَّة
والاسلاميَّة في ربوع دار الفكر، الَّتي تُعدُّ غرَّة
دور النَّشر في هاذه البلدة.

إلى عمّي المرحوم الشَّيخ

عبد الوهَّاب عزقول

أُقدّم هاذا العمل، سائلاً المولى القدير أنْ يجعل هاذا
الكتاب صدقةً جاريةً في صحيفة عمله، وأن يحشره
مع النبيّين والصّدّيقين.

ابنكم

تقـــــديم

بقلم الأستاذ
محمد زكريا الزعيم

سُئِل سِكِّيرٌ نشوان يوماً وقد لعبت بعطْفيه الشَّمُولُ ما الخمر ؟ فأجابَ : ويحكم وهل في الخمر غير النَّشوة ؟!

لذا كلَّما هتفتُ بالقلم أنْ يحومَ حول حمىٰ التَّصوّف صاحَ بي : أَقصِرْ ، وكلَّما حاول الفِكرُ النَّظر في معانيه ، والتَّأمُّل في أَسراره ، تأبىٰ البيان وقال له : أَمسِك .

وقد حَقَّ لليراع أَنْ يقف أَمام جلال هذا الموضوع حائراً وجلاً لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ، فالتَّصوُّف ليس فكرةً فلسفيَّةً كَسْلىٰ كسائر الفكر المنطقيَّة المجرَّدة تُحدُّ وتُضبَطُ وتُعرَّف ، ثمَّ تغفو باسترخاء على سُرُرِ السُّطور وأَرائك المكتبات !

بل هو فكرةٌ نشطة ثائرة ، هبطت من عليائها إِلىٰ ميدان الحياة لتثقَّف السُّلوك وتهذِّب الخُلق . فإِذا أَذعن لها القلب سكبت فيه نشوةً ولذاذةً أُترعت كؤوسها من كوثر العرش ، وأَنهار الجنان !

فقد جلَّ التَّصوُّف أَنْ يكون فكرةً تحفظها الواعية ، ويلوكُها اللِّسان ، وسما أَنْ يكون عِلماً تحتويه الأَسفار ، أَو مذهباً تعتنقه الأَلباب !

فهو ليس في حقيقته إلاّ رياضةً ومجاهدة ، أَمّا ثمرتُهُ اليانعة المُشتهاة فقد تأبَت أنْ تُجنىٰ إِلاّ بعد هذه الرّياضة وتيك المجاهدة .

وليس للتَّصوُّف في شرِعتنا السَّمحة إلاَّ مفهوماً واحداً ثابتاً راسخاً مُستمدّاً من أُصول العقيدة ومشكاة النُّبوَّة ، أَلا وهو : (إِخراج الدُّنيا من القلب لا مِنْ أَصابع الكف) .

علىٰ ذلك ٱجتمعت كلمة السَّلف ، وٱتَّحدت مشاربهم ، وتسايرت أَهواؤهم ، ولكن مع توالي الأَيّام وٱتِّساع الفتوح وٱمتزاج العرب بالأُمم والشُّعوب سرت في التَّصوُّف فلسفة العُجمة ، وولغت في ينبوعه العذب الفرات أَباطيل التَّطرُّف ، وأَوهام الفلسفات ، وشطحات المذاهب .

فأَصبح زُهداً نصرانيّاً ، وتبتُّلاً بوذيّاً ، قِوامه تعذيب الجسد ، وفِطام النَّفس ، فانقطعت الوشائج ، وحُلَّت الرَّوابط ، ووهت الصِّلات بين ما كان عليه وما آل إِليه !

وغدا مفهوماً عقيماً ساذجاً لا يتواءم مع إِيقاع الحياة ، ولا يمتُّ إِلىٰ أُصول العقيدة بسبب !

ومتىٰ أَمرنا الشّارعُ أنْ نُعرِضَ عن الدُّنيا ، ونُدير لها الظَّهر ، ومتىٰ وجَّهنا إِلىٰ أَنْ نزهد في رحابها ، ونقعد عن أَمرها ، وهو الَّذي لا يفتأ يأمرنا بعمارتها والقيام بشأنها ، أَليس الله قد ٱستخلفنا فيها لنحمل الرِّسالة ونؤدّي الأَمانة ؟

ومنذا الَّذي لا تتردَّد بين جوانحه أَصداءُ النِّداء السَّماوي الخالد ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلوا فَسَيَرى الله عَمَلَكُمْ وَرَسولُهُ والمُؤْمنون ﴾ [سورة التَّوبة ٩/١٠٥] .

والتَّصُّوف ليس كما يزعم بعض المؤرّخين مذهباً فكريّاً نشأ وليدَ رَدَّة فعل لحالة اللَّهو والعبث والمجون ، الَّتي تفشَّت في المجتمع الإِسلامي

منذ صدر الإسلام حين عمَّ الرَّخاء ، وظلَّلت المجتمع سحب الرَّفاه والازدهار .

كلا ! فليس الأَمر كما زعموا !

فقد كان الصَّحابة منذ عهد النُبوَّة متصوّفين حقيقيين بفطرتهم السَّليمة ، وسرائرهم الطّاهرة ، وقلوبهم المؤمنة ، دون أَنْ يخلعوا علىٰ مسلكهم هذا ثوباً فضفاضاً من ضلال المذاهب وأَوهام الفلسفات !

ولكن حين عمَّ الرَّخاء وساد الرَّفاه ٱتَّضحت الصّورة وتمايزت الأَلوان ، فقد ٱستبدَّ التَّرف ببعض السُّفهاء فانصرفوا إلىٰ اللَّهو والمجون ، مخدوعين بسراب الحياة وبريق الحضارة .

بينما ظلَّت طائفة من المؤمنين مخلصة للعهد ، سائرةً علىٰ الصِّراط المستقيم : كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ .

فأُطلقَ علىٰ هذه الطّائفة أَلقابٌ مختلفة تصوِّر حالهم ، فتارة الزُّهاد وطوراً النُّسّاك ، ثمَّ نسجوا لهم لقباً جديداً لحمتُه وسداه من خيوط الفلسفة ، فصاروا يُعرفون بالمتصوفة وأَرباب الأَحوال !

وليتَ الأَمر وقف عند هذا الحدِّ ! فقد أَصبح مصطلح التَّصوُّف مرتعاً للآراء الفلاسفة وأَقوال المتكلّمين ، وذهب الخُلْفُ بَينهم كلَّ مذهب ، فتفرَّقت بينهم الدُّروب ، فأَصبحت لا تجمعهم جامعة ولا يربط بينهم سبب ، فضربوا كحاطب ليل في فيافي الضَّلال ومفاوز الظَّلام ، ولمّا لم يقعوا علىٰ طائل ، ٱختلفوا في الاشتقاق اللُّغوي للفظة التَّصوُّف ، ناسين أَنَّ التَّصوُّف حالة شعوريَّة لا فكرة فلسفيَّة .

ومهما يكن الأَمر لا يخرج عن كونه رياضة ومجاهدة للتّطهُّر من أَهواء النَّفس ، وٱجتثاث الدُّنيا من ثرىٰ القلب ، وإِيداعها بين أَصابع الكفّ ، ثمّ

المضي بثقة في رحلة الحياة لأَداء الأَمانة الَّتي أَشفقت من حملها الجبال !

وليس هذا فحسب فقد أَطلَّت علينا طائفةٌ أُخرىٰ من (متصاوفي ومتفلسفي) العصر العبّاسي المتأَخِّر ، الَّذي كادت أَن تسكن فيه رياح الإِبداع ، وتخبو في سمائه شعلة المعرفة ، فرفعت عقيرتها داعيةً إِلى مفاهيم جديدة ، ربأ متصوّفوا الرَّعيل الأَوَّل بأنفسهم عنها ، ونزَّهوا عقيدتهم من أَضلالها وأَوهامها .

من ذلك (الفناء ، والحلول ، والاتحاد ، ووحدة الوجود)[١] .

وقد ٱحتجَّ بعضهم زوراً وبهتاناً بأَنَّها وردت في أَقوال القدماء وكتبهم ، وقد فاتهم أَنَّ مصطلح الفناء الَّذين يَدْعون إِليه لم يكن مفهومه عند القدماء كما يشتهون ، بل كان يعني فناء المؤمن عن الخَلْق ، وحظوظ النَّفس ، وإِيثار أَوامر الله علىٰ أَهواء القلب ورغائب النَّفس ، والذُّهول عن

---

(١) **أفكار فاسدة من وحي التَّصوُّف الفلسفي**

وحدة الوجود : وجود المخلوقات هو عَيْن وجود الخالق ، فوجود الكائنات جزء من وجوده !!

الحلول : حلول الله في المخلوقات كما يذوب السُّكر في الشّراب !!

الفناء : أَنْ يذوب المخلوق في الخالق ، ثمَّ يمتزج به ويختلط ! كما تمتزج قطرة الماء في الموجة ، ثمَّ تتلاشىٰ فيها !!

الاتحاد : هو الامتزاج بالخالق والاختلاط به كامتزاج القطرة باللُّجَّة !!

ردّ وإيضاح

- الصّانع لا يمتزج بالمصنوع ولا يتّحد به .
- وجود الله أَزلي قديم ، ووجود المكوّنات محدَث وطريف .
- الصّانع غير المصنوع ، يخالفه في الصِّفات والجوهر ، فكيف يتّحدان ؟!
- من المحال أَنْ يمتزج المخلوق بالمخلوق ، ويختلط الشَّيء بشبيهه ، فكيف يمتزج المخلوق بالخالق ولا وجه شبه يجمعهما ؟!
- الله أَكبر من السَّموات والأَرض ، وهو المحيط بالأَكوان ، فكيف يحلُّ ويذوب ـ جلَّ شأنه ـ في صغائر الأَشياء ؟!!

الخلق والأخلاّء في حضرةِ المحبوب الأكبر ربِّ الأكوان .

أنـتَ فـوقَ الصَّحـبِ عنـدي فـإذا غبْـتَ عـن عينـيَّ لـم أَلْـقَ أَحـدْ

أَمَّا مفهوم وحدة الوجود الَّذي نُسب للشيخ الأكبر محيي الدّين بن عربي فهو لا يعني ـ كما ذكر المحقِّقون ـ إلاّ معنىً واحداً يُعدُّ من صلب العقيدة الإسلاميّة السَّمحة ، فلا وجود إلاّ للخالق ، أَمّا وجود سواه من المخلوقات فهو ظلال وأَشباح وتبع له ، كما يقترن الظِّلُّ بالشَّيء ، أَو كما تُحرِّك الدُّمية يدُ الفنان في مسرح العرائس !

أَمّا المفاهيم الأُخرىٰ الَّتي نعقَ بها النّاعقون من المتأخِّرين كالحلول والاتحاد فما تحرَّك بها لسانُ ورِعٍ ، وما خطرت علىٰ قلب مؤمن من أَولئك المتصوِّفة الأَبرار !

ذاكم هو التَّصوُّف الَّذي حدَّثْتُكم عنه ، اجتذبه الجانب الرّوحي في الإسلام ، فطاف حوله ، وحوَّم فوقه ، وقصرَ نفسَهُ عليه .

إنَّه دوحة باسقة لا عيب فيها ، إلاّ أَنَّها حُفَّت بأَعشاب البدع وأَوشال الضَّلال .

فما أَجدرنا أَنْ نقتلع تلك الأَفكار الطفيليّة الَّتي تعشَّقت ساقه ، فأعاقت نماءه ، ورنَّقت صفاءه ، وأَخرجته عن سَنَنِ الإسلام ونهج القرآن !

ولنطرح عنه ما عَلِقَ به من شعائر الوثنيّة . ومظاهر التَّثنّي والرَّقص والغناء .

ذاكَ هو التَّصوُّف يا أُخَيَّ الَّذي شنَّفتُ آذانَكَ بسماع خبره ، وأَطلعتُك علىٰ حقيقةِ أَمره ، فهلُمَّ هلُمَّ يا صاحِ إلىٰ حانة الهوىٰ ، وفسطاط الإيمان ، نسهر معاً مع السُّمّار تحت جنح اللَّيل في اللَّيالي والأَسحار .

فثمَّة نورٌ لمّاح يخطف الأَبصار ، ويملأ الحانَ من مشكاة الرَّحمن ، ونفحاتٌ سماويَّة تهبُّ عليه رخيَّة نديَّةً ، معطَّرةَ الأَردان بأَنفاسِ الحور وأَريج الجِنان ، مخضلَّةَ الأَذيال بَبْردِ الكوثر وأَنهار السَّماء .

فطوبىٰ لم كان هذا مَقامُه ، وفي تلك الأَيكة مَغْرسُه وأَحلامُه !

فهلاّ بدأتَ الرِّحلةَ يا صاحِ من هذا الكتاب الَّذي شَرِفْتُ بمراجعته والتَّقديم له . فقد وجدتُ في أَثناء وريقاته آدابَ سلوكٍ ومنهج حياة ، تجعلُ السّائرَ في درب الحياة راسخَ القدم ، ثابتَ الفؤاد مطمئنَ النَّفس ، يخطو علىٰ صراطٍ مستقيم ، فلا تنبَهِمُ أَمامَه المسالِكُ ، ولا تتشعَّبُ في مسراه الدُّروب .

ولسوف تجدُ ـ كما وجدتُ ـ في كلِّ فصلٍ من فصوله مَغْرِساً ، وفي كلِّ خاطرةٍ مستراحاً ومقيلاً .

فتخالُ نفسَكَ تطوف علىٰ مقامات الإيمان ومنازلِ الفضيلة ، كما تطوف الشَّمسُ علىٰ منازل الكمال ودراريِّ السَّماء . وينتقل الطَّير علىٰ أَفنان الأَشجار في رحاب الرّياض .

اِرحلْ اِرحلْ من الخَلقِ إلىٰ الخالق ، ومن الكون إلىٰ المكوِّن ، فما أَعظمها من رحلة ، وما أَقدسَها من سياحة .

وطوبىٰ لم كان في تلك الأَيكةِ مقامُهُ وأَحلامه .

محمد زكريا الزعيم

بسم الله الرحمان الرحيم

مقدّمة التحقيق

إِنَّ الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أَنفسنا ومن سيّئات أَعمالنا ، من يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضلِل فلا هاديَ له .

وأَشهد أَنْ لا إِلٰهَ إِلاّ اللهُ وحده لا شريك له ، وأَنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه .

اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم علىٰ سيّدنا وسندِنا وشفيعنا وذُخرنا ونبيّنا محمَّدٍ صاحب جوامِع الكَلِم ، وسيّد سادات المخلوقات ، وعلىٰ آله الطَّيّبين الطّاهرين ، وأَصحابه الأَخيار المخلصين ، الَّذين أَحسنوا اتّباعه في الحركات والسَّكنات ، وعلىٰ التّابعين لهم بإِحسان ما دامت الأَرض والسَّماوات ، آمين .

وبعد

فهاذا الكتاب هو الكتاب الرّابع من مكتبة الإمام الجيلانيّ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ الَّذي سيصدر في دمشق بلد العلم والمعرفة ، محقَّقاً تحقيقاً علميّاً جيداً كسابِقِيهِ : (سر الأَسرار ومظهر الأَنوار فيما يحتاج إِليه الأَبرار) ، و(الطَّريق إِلىٰ الله) و(جلاء الخاطر في الباطن والظّاهر) .

وكتابنا هاذا ـ آداب السُّلوك والتَّوصل إِلىٰ منازل الملوك ـ يعدُّ من

أَعظم مؤلَّفات الإمام الجيلانيّ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في أُصول التَّصوُّف والسُّلوك الأَمثل المستمدِّ من كتاب الله العظيم ، وسُنَّة رسوله الكريم صلّىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم ، ومن آثار الصَّحابة والتّابعين .

فهو كتاب جَليل النَّفع عظيم الفائدة ، جمع الإمام ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بين دفتيه الأُسس المُثلىٰ لمن أَراد الوصول إلىٰ الحقِّ وطريقه عزَّ وجلَّ .

فهو يستهله فيما يجب علىٰ كلِّ مؤمنٍ ومُسْلِمٍ ، ثمَّ ينتقل للكلام عن الابتلاء ويحذّر من الدُّنيا ويحض علىٰ الإعراض عنها ، والفناء عن الخلق ، والتقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ ، ثمَّ يبيّن حقيقة النَّفس الإنسانيَّة وأَحوالها ، وثمرات المجاهدة وخصال أَهلها ، ثمَّ يشعِّب الحديث عن الأَحوال والمقامات كالتَّوكُّل والصَّبر وحُسن الخُلق والشُّكر والصِّدق والرِّضا والتَّسليم ، والزُّهد والفقر وترك الحظوظ ، والمحبَّة وما يجب في حقِّها وما إلىٰ ذالك ، ثمَّ يبسط القول في الولاية ومفهومها ، وفي التَّصوُّف وأَصله من العقيدة والعلم والعمل ، وختاماً ـ وفي الختام مسك ـ ينهي كتابه ببعض الوصايا الفريدة ودرر الحكمة الثَّمنية .

والنّاظر في هاذا الكتاب وعباراته يجد أَنَّ الإمام ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يلحّ دائماً علىٰ قاعدة أَساسيَّة وهي أَنَّه لا سبيل لبلوغ الغاية إلاّ من طريق الشَّرع .

فأَحكام الشَّريعة وعقيدة السَّلف فيما يرىٰ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ هي لبُّ التَّصوُّف وآفاقه .

والمتأمل في كلامه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يدرك أَنَّه لا يحبُّ الخوض في دقائق المعرفة ورقائق الولاية ، ما دام كلامه للمريدين وأَهل الابتداء ، ولا ريب أَنَّ في إحجامه هاذا خشية علىٰ العامَّة والمبتدئين من الافتتان بما

هو فوق طوقهم وإدراكهم ، وتطبيقاً حرفيّاً لدستور أَهل التَّصوُّف النَّقيّ الَّذي نادىٰ به أَبو عمرو الدِّمشقي حين قال : كما فرض الله علىٰ الأَنبياء إظهار الآيات والمعجزات ليؤمنَ النّاسُ بها ، كذالك فرض الله علىٰ الأَولياء كتمان الكرامات حتّىٰ لا يُفتتن بها الخلق .

وحسبي قبل أَنْ أَختم الكلام عن هاذا الكتاب أَنْ أَذكِّر القارىء الكريم أَنَّ شيخ الإسلام ٱبن تيمية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قد تناول هاذا الكتاب فشرح بعضه ، وقد جمع الأُستاذ الدُّكتور محمَّد رشاد سالم ذاك الشَّرح في كتابه (مجموع الفتاوىٰ) .

ولم يكتف ٱبن تيمية ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بهاذا الشَّرح فحسب ، بل أَطنب في مدح الإمام الجيلانيّ حيث قال في بعض ما ذكره : والشَّيخ عبد القادر من أَعظم مشايخ زمانهم أَمراً بالتزام الشَّرع والأَمر والنَّهي ، وتقديمه علىٰ الذَّوق والقدر ، ومن أَكثر المشايخ أَمراً بترك الهوىٰ وكبح جماح النَّفس .

فلينظر القارىء الكريم لهاذا الكتاب نظرة متأمل متفتِّح الذِّهن ، وليصغ إِلىٰ كلام الإمام ـ رحمه الله تعالىٰ ـ ويعتبر به فيكون من الفائزين .

وليعلم المرء أَنَّ أَهل الحقِّ والوصول لا يعرفون إِلاّ بشيئين : أَحدهما ظاهر والآخر باطن .

فالظاهر : يتجلّىٰ في التَّمسُّك بالشَّريعة الصَّحيحة أَمراً ونهياً .

والباطن : أَنْ يكون سلوكه علىٰ مشاهدة البصيرة ، فيرىٰ من يقتدي به ؛ وهو النَّبيُّ صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ويكون واسطة بين الرَّبِّ تعالىٰ وبين روحانيَّة النَّبيّ وجسمانيته في محلّه ، فإِنَّ الشَّيطان لا يتمثَّل به ، فيكون منه إِشارة إِليه ، وإِلىٰ مريديه السّالكين ، فلا يكون سلوكهم علىٰ

العمىٰ ، وهاهنا دقائق العلامات في التَّمييز لا يدركها إلاّ القليل .

فمن أَراد السَّعادة الأَبديَّة ، فالواجب عليه أَنْ يمتثل أَمر الله ويجتنب نهيه ، وأَنْ يقوم علىٰ شكره .

نسأل الله أَنْ يرزقنا دوام التَّوفيق ، وأَنْ يوفِّقنا لِما يقرِّبُنا إليه في كلِّ الأَوقات ، وأَلاّ يجعلنا من المفتونين إِنَّه الفتّاح العليم ، المنّان الكريم ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليّ العظيم .

تنويه :

لا بدّ لي في هاذا المقام أَنْ أَلفت النَّظر إِلى أَمرين :

أَمّا الأَوَّل فيتعلَّق بطبعات الكتاب ، فقد طبع هاذا الكتاب سابقاً وبدون تحقيق علمي ، باسم (فتوح الغيب) ، وهاذا خطأ واضح جلي ، خصوصاً عندما نقرأ كلام الإمام ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في مقدِّمة هاذا الكتاب : (فمن جمله ما أَمكن من تعبيرها اللِّسان ، وأَظهرها الكلام . . . كلمات برزت وظهرت لي من **فتوح الغيب** ، فحلَّت في الجنان ، فأَشغلت المكان) .

فيظهر لنا أَنَّ ٱسم الكتاب قد أُخِذَ من مقدّمته ، وأَنَّ ٱسمه الحقيقي ما قد ذكرته ، وإِليه أَشار المصنِّفون الَّذين صنَّفوا في الكتب وأَسماء مؤلِّفيها .

أَمّا الأَمر الثّاني فقد ٱعتمدت في نسخ هاذا الكتاب طريقةً إملائيَّةً ، لا أَدعي لنفسي السَّبق فيها ، فقد سبقني إِليها كثيرٌ من الأَساتذة والكتّاب ، الَّذين عرفوا بسعة الاطلاع والعلم ، أَذكر منهم علىٰ سبيل المثال لا الحصر : الأُستاذ الكاتب والمحقِّق حمد الجاسر ، وأَستاذنا الدُّكتور

محمَّد عليّ سلطاني الَّذي له باع طويل في هاذا المجال[1] .

فمن هاذه الطَّريقة :

١ ـ عدم ٱحتذاء الرَّسم القرآني ، لأَنَّه قد روعي فيه طرائق الأَداء في القراءات القرآنيَّة لا القواعد الأَساسيَّة .

٢ ـ محاكاة الرَّسم للصَّوت في الإثبات لا في الإسقاط ، لأَنَّ هناك كلمات خطؤها واضح لا يختلف فيه ٱثنان ، ويبقىٰ الخطأ قائماً بلا سبب سوىٰ التقليد !! وهو غير كاف . وسأَضربُ أَمثلة علىٰ ذالك .

٣ ـ ٱلتزام القواعد وٱطِّرادها ، ونبذ كلِّ ٱستثناء يفلُّ القاعدة .

إذن يجب علينا أَن نفصل بين الرَّسم القرآني وبين الرَّسم الإملائي المطابق للنطق ، لأَنَّ القاعدة القياسيَّة فوق المألوف ، والخطأ لا يغدو بشيوعه صواباً ، حيث إنّ الكتابة العربيَّة في أَيّامنا هاذه شهدت تعدُّداً غريباً ومشتتاً في طرائق الرَّسم والكتابة ، وكلَّ طريقة يدَّعي أَصحابها الاعتماد علىٰ قواعد العلم الصَّحيحة !! ممّا دفع ببعض المربّين أَنْ يتَّخذ أُسلوباً غريباً لحلِّ هاذه المعضلة ، إذ عمد إلىٰ تحكيم طلبة المدارس الإعداديَّة والثّانويَّة لاختيار ما يريدونه من هاذه الطَّرائق الإملائيَّة المتعدِّدة ، ثمَّ بناء القاعدة علىٰ أَكثرها شيوعاً بينهم ، فازدادت الحال سوءاً ؛ لأَنَّ مواقف

---

(١) وقد قام الدُّكتور سلطاني بوضع كتاب أَسماه (قواعد مقترحة لتوحيد الكتابة العربيَّة) وهي محاضرة كان قد أَلقاها بندرة (مناهج اللُّغة العربيَّة للتعليم ما قبل الجامعي) ، وقد نالت هاذه النَّدوة الموافقة عليها بالإجماع مع التَّوصية باعتمادها أَساساً لتوحيد قواعد الكتابة والإملاء من الوفود العربيَّة المشاركة في هاذه النَّدوة ، الَّتي أُقيمت في رحاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة بالرّياض .
وقد تشرَّفت دار الفكر بدمشق بنشره ، الَّتي عُرِفَتْ بنشر الموضوعات الهادفة والرَّصينة . فجزاهما الله خيراً .

التَّلاميذ تقوم علىٰ الرَّغبات لا العلم ، وعلىٰ المصادفة لا المنهجيَّة والاطِّراد ، وتكليفهم بمثل هاذا العمل الجليل وضعٌ للأُمور في غير نصابها .

وإِنَّ النَّظر في طرائق الرَّسم القائمة ليكشِفُ عن وقوعها في كثير من التَّناقض والاضطراب وحالات الاستثناء ، ممّا يجعل الحاجّة مُلِحَّةً لايجاد ضوابطَ منطقيَّة ميسَّرة ، تربط حلقات التُّراث العربي في طريق صاعدة ، تأخذ بالمعقول المطَّرد وتدع الشّاذَّ المضطرب .

فاللُّغة ملكٌ للأَجيال ، وكلُّ فرد إِلىٰ زوال ، والحقيقة العلميَّة فوق كلِّ ٱعتبار .

تجدر الإِشارة هنا إِلىٰ أَنَّ الرَّسم العثمانيّ للقرآن العظيم ليس توقيفي ، إِنَّما وُضِعَ للقرّاء دون غيرهم ليتّسع الرَّسم لأَكثر من قراءة ، مثال ذالك :

﴿ أُولئك ﴾ [سورة البقرة ٢/ ٥] ، رسمت بلا أَلف بعد اللاّم ليتَّسع هاذا الرَّسم لقراءةٍ أُخرىٰ بتغليظ الَّلام ، وهي قراءة الأَزرق وورش .

﴿ هؤلاء ﴾ [سورة البقرة ٢/ ٣١] ، رسمت بلا أَلف بعد الهاء ليتَّسع هاذا الرَّسم لقراءةٍ بالقصر ، وهي قراءة حمزة الكوفي .

ولا بأس أَنْ أُذكّر في هاذا الموضع إِلىٰ أَنّي قد جعلتُ الأَخطاء الإِملائيَّة ، وصوابها المعتمد في كشافٍ صغيرِ في صفحة منفردة في غرَّة هاذا الكتاب .

وأَخيراً : وبعد أَنْ فرغت من تحقيق هاذا الكتاب ، دفعته إِلىٰ أُستاذي وأَخي وصديقي : الأُستاذ محمَّد زكريّا الزَّعيم ، لينظر فيه ويقوِّم خطأَه ، فقام بذالك علىٰ أَتمِّ وجهٍ ، وتفضَّل عليَّ بصياغة عناوينه الدَّاخليَّة بأَسلوب

بلاغي ممتع ، وقدَّم للكتاب بكلمة جامعة ، أَحاطت بالموضوع ولمَّت شتاته ، ولخَّصت قواعده وسبرت أَغواره .

فله شكري ومحبّتي وعظيم ٱمتناني ، ٱنطلاقاً من قوله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النّاسَ لَمْ يَشْكُرِ الله » .

كما أَتوجَّه بالشُّكر الكبير للأَخ الفاضل زياد السُّروجي (صاحب مؤسسة البصائر للصَّف التَّصويري) علىٰ جهده الاستثنائي والمتميّز من أَجل إِخراج هاذا العمل ضمن الوقت الضَّيق .

والشُّكر أَيضاً لأُستاذي ومعلمي فن الخطِّ والكتابة ، الَّذي ٱزدان الكتاب بريشته ، الأُستاذ المِفَنّ أَحمد الباري خطّاط بلاد الشّام .

والشُّكر الأَوفىٰ لصديقي وأَخي في الله المهندس محمَّد مازن الفوّال علىٰ جهده ونُصحه لي في أَطوار تحقيق الكتاب وطبعه .

والشُّكر الأَوَّل والأَخير دائماً لوالدي الشَّيخ المُقرئ نصوح محمَّد أَمين عزقول ، الَّذي لم يألُ جهداً في تربيتي وتوجيهي ودعمي بكلِّ ما أُوتي من إِمكانات متاحة .

وأَتوجَّه لكلِّ من ساهم في إِنجاز هاذا العمل بجزيل الشُّكر والمحبَّة والامتنان ، داعياً لهم المولىٰ عزَّ وجلَّ أَنْ يسدِّد خطاهم وأَنْ يوفِّقهم لِمَا يحبُّ ربُّنا ويرضىٰ .

نسخ الكتاب

أ ـ المخطوطة :

النّسخة الأُولىٰ (وهي الأَصل) : نسخة دار الكتب الظّاهريّة بعنوان : (فتوح الغيب) ، تقع في ثمان وستين ورقة ، سطورها سبعة عشر سطراً ، وهي نسخة جيدة الخطّ ، ذات خطٍّ نسخي جميل ، وورقها جيد وتجليدها فاخر ، ذات الرَّقم (٥٩٠٨) ، عليها تملُّك باسم محمَّد المُبارك الحَسني . **وقد ٱعتمدت هاذه النُّسخة أَصلاً** .

النُّسخة الثّانية : هي نسخة دار الكتب الظّاهريّة بعنوان : (آداب السُّلوك والتَّوصل إِلىٰ منازل الملوك) ، عدد أَوراقها سبع وثمانون ورقة ، ومتوسِّط عدد أَسطرها ثلاثة عشر سطراً ، خطُّها نسخي معتاد ، ذات الرَّقم (٦٢٢١) ، ٱستكتبها لنفسه إِسماعيل المواهبيّ القادريّ ، المدرِّس بحلب .

النُّسخة الثّالثة : نسخة دار الكتب الظّاهريّة بعنوان : (الكشف وفتوح الغيب) تقع في خمس وستين ورقة ، عدد أَسطرها خمسة عشر سطراً ، يرجع تاريخ نسخها إِلىٰ سبع وتسعمئة للهجرة ، خطُّها نسخي متقدِّم ، بها خرم في منتصفها ، قام بنسخها أَحمد بن عمر الحنفي الشَّهيد بابن عبد السَّلام ، تحمل الرَّقم (٨٣٣٧) .

النُّسخة الرّابعة : نسخة دار الكتب الظّاهريّة بعنوان : (فتوح الغيب) ، عدد أَوراقها تسع وخمسون ورقة ، وهي ضمن مجموع ، يبدأ الكتاب من الورقة تسعين وينتهي بالورقة تسع وأَربعين ومئة ، عدد

أَسطرها تسعة عشر سطراً ، خطُّها نسخي معتاد ، بعض الأَوراق بها خرم ، رقّمت وكتب مكان التَّرميم بخطٍّ مغاير ، قام بنسخها سُليمان بن محمَّد الحوّاط ، رقمها (٨٦٥٥) .

النُّسخة الخامسة : نسخة المكتبة الأَحمديَّة بحلب بعنوان : (فتوح الغيب) ، تقع في اثنتين وخمسين ورقة ، عدد سطورها واحد وعشرون سطراً ، خطُّها نسخي معتاد ، ليس عليها ما يشير إِلىٰ ٱسم ناسخها ولا تاريخ نسخها ، وقد تركت فراغات بها لتُكتب رؤوس الفقر بمداد ذي لون مُغاير ، رقمها (١٤١٠٣) .

وهناك نسخ أُخرىٰ لم أَعتمدها لأَنَّها متأَخِّرة النَّسخ .

ب ـ المطبوعة :

الأُولىٰ : طبعت في ٱستنبول سنة ١٢٨١هـ ، وهي محفوظة في دار الكتب الظّاهريَّة برقم (٢٥٣٠) . وهي نسخة جيدة أَمام مثيلاتها ، لا تخلو من التَّصحيف والسَّهو ، خصوصاً أَن ناشرها قد ٱعتمد علىٰ نسخة خطّيَّة واحدة[١] .

الثّانية : طُبعتْ في المطبعة الميمنيَّة سنة ١٣١٧هـ ، وهي نسخة مليئة بالأَخطاء والتَّصحيف .

الثّالثة : طُبعتْ في مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي سنة ١٣٢٩هـ ، بهامش كتاب (بهجة الأَسرار ومعدن الأَنوار) للشطنوفي .

الرّابعة : طُبعتْ في مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي سنة ١٣٣٨هـ ، بهامش كتاب (قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر) للتادفي .

وكلتا الطَّبعتين (الثّالثة والرّابعة) مليئةٌ جدّاً بالأَخطاء .

---

(١) Brockelman: Gieschischte der Arabischen Literature IIp. 778

الخامسة : طُبعتْ في مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي سنة ١٣٩٢هـ .

وقد قام النّاشر المحترم بإلحاق جملة قصائد بهاذه الطَّبعة ، نَسَبَها للإمام الجيلاني ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وهي ليست للإمام الجيلاني ، إنَّما هي للإمام عبد الكريم الجيلي ، ومنها (قصيدة النّادرات العينيّة) ، ويبدو لي أَنَّ النّاشر كان علىٰ علم بأَنَّ هاذه القصيدة وغيرها ليست للإمام الجيلاني ، لأَنَّه قد قام بحذف الأَبيات الَّتي ترجم فيها الإمام عبد الكريم الجيلي لنفسه ذاكراً تاريخ مولده ، فحذفها وكتب مكانها : (بياض في الأَصل) ؟!!

وهاذه الطَّبعة مليئةٌ بالأَخطاء والنَّقص والخرم .

السّادسة : طُبعت في مكتبة دار الأَلباب بدمشق سنة ١٤٠٦هـ ، كُتبَ عليها : ضبطها ووثَّقها محمَّد سالم بوّاب ، وقد أَشار إلىٰ أَنَّه قد اْعتمد في عمله هاذا علىٰ الطَّبعة الثَّانية والخامسة ، وكلتا الطَّبعتين مليئتان بالأَخطاء والتَّصحيف والنَّقص والخرم ـ كما أَسلفت ـ .

وقد ذكر ضابط الكتاب أَنَّه قد قابلَ الطَّبعتين وأَثبتَ ما هو مناسبٌ للنصِّ ـ كما فهمَهُ هوَ ـ وعند الرُّجوع إلىٰ الطَّبعة ومقابلتها ظهر لي أَنَّ ما أُثبتَ في الهامش أَصحُّ ممّا أُثبت في نصِّ الكتاب !!

فجاءت هاذه الطَّبعة أَيضاً مليئة بالأَخطاء والتَّحريف ـ خصوصاً أَنَّه اْعتمد علىٰ طبعتين سقيمتين كما أَشرت ـ كما أَنَّه قد أَلحق بها القصائد الشِّعريَّة المُلحقة في الطَّبعة الخامسة ، والَّتي ذكرت أَنَّها ليست للجيلانيّ .

وعذرنا لضابط الكتاب وموثِّقه أَنَّه لم يتمكَّن من الوقوف علىٰ نسخ خطيَّة ونسخ مطبوعة عديدة لمقابلتها .

ويحسن بي أَنْ أُشير في هاذا المقام إلىٰ أَنَّ بعض تلامذة الجيلانيَّ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ ومحبّيه قد نسب إليه عدَّة قصائد شعريَّة ، علماً بأنَّ الإمام الجيلاني لم ينظم الشِّعر ما خلا أَبيات متفرِّقة ، ويبدو لي أَنَّ مريدي الشَّيخ ما نسبوا إليه هاذا الشِّعر إلاّ لإعلاء مكانته ورفع منزلته بين أَعلام التَّصوُّف .

وهناك نسخة جديدة لم أَعتمدها ، صدرت عن دار القادري بدمشق وبيروت بعنوان : (شرح فتوح الغيب) لشيخ الإسلام ٱبن تيمية ؟! ٱعتنىٰ بها الأُستاذ حسن السَّماحي سويدان .

وقد ٱعتمد في إخراج هاذه الطَّبعة علىٰ مطبوعتي : (ٱستنبول ، ومصطفىٰ البابي الحلبي ـ الَّتي لم يُشر إلىٰ تاريخ طبعها ـ) ، فجاءت هاذه الطَّبعة مماثلة لِما سبقها ، غير أَنَّها مثقلة بأَخطاءٍ جديدة .

والجدير بالذِّكر هنا أَنَّ شيخ الإسلام ٱبن تيمية لم يشرح هاذا الكتاب بأَكمله ، بل ٱقتصر علىٰ شرح خمس مقالات من أَصل ثمان وسبعين مقالة !! أَسماها (شرحِ كلمات من فتوحِ الغيب) .

لاكنَّ معدَّ الكتاب قد حذف كلمة (من) التَّبعيضيَّة ليوهِمَ القارئ أَنَّ ٱبن تيمية قد قام بشرحه كاملاً ! وما إخالُ ذالك إلاّ لأَغراض تجاريَّة بحتة .

عملي في الكتاب

١ ـ بعد نسخ النُسخة المعتمدة أَصلاً ، قابلتها علىٰ النُسخ الأُخرىٰ ، فما كان بين النُسخ أَدنىٰ خلاف أَثبت ما في الأَصل ، إِلاّ أَنْ يكون خطأً ظاهراً أَو زيادات ليست في الأَصل فأَثبت ما في النُسخ الأُخرىٰ ، وميَّزته بـ : { } .

٢ ـ أَضفت ما كان مناسباً من العبارة ليستقيم المعنىٰ ، وميَّزته بـ : [ ] .

٣ ـ ضبطت نصَّ الكتاب ضبطاً أَرجو العليَّ القدير أَنْ يكون صحيحاً كما أَراده مؤلِّف الكتاب ـ رحمه الله تعالىٰ ـ.

٤ ـ خرَّجت الآيات الشَّريفة بذكر ٱسم السُّورة وترتيبها في القرآن العظيم ورقم الآية .

٥ ـ خرَّجت الأَحاديث النَّبويَّة الشَّريفة ، مع ذكر الحكم عليها ، عدا بضعة أَحاديث لم أَعثر عليها فيما لديَّ من المصادر .

٦ ـ وضَّحت ما كان غامضاً ومبهماً بالشَّرح والتِّبيان .

٧ ـ تمَّ عنونة مقالات الكتاب بعنوانات مناسبة .

وإِليك عزيزي القارىء أُقدِّم هاذا الكتاب ، الَّذي ركبت فيه كلَّ صعبٍ ، وبذلتُ فيه طوقي وٱستنفدتُ طاقتي . فإِنْ أَصبتُ فبها ونعمت ، وإِنْ قصَّرت عن بلوغ الهدف ، فحسبي بذل الجهد وحُسن النِّيَّة فيما ٱرتضيت .

أَسأل الله العليَّ القدير أَنْ ينفعني وجميع المسلمين بهاذا السِّفر ، وأَن يجعله عوناً علىٰ طاعته ، وأَنْ يوفِّقنا لِما يقرِّبنا إِليه ، وأَلاّ يجعلنا من المفتونين ، ولا يجعل حظّنا ـ من هاذا ـ جمعَه وحِفْظَه دون المجاهدة فيه ، بفضله وسَعَة رحمته ، إِنَّه وليُّ ذالك .

وآخر دعوانا أَنْ الحمد لله ربِّ العالمين .

دمشق : ١٤/ ربيع الثّاني/ ١٤١٦هـ
٩/ أَيلول/ ١٩٩٥م

محمد غسّان نصوح عزقول

ترجمة الشّيخ عبد القادر الجيلاني (١)

قدّس الله سرّه العالي

أسمه ونسبه :

الشّيخُ الإمام الزّاهد العارف القُدوة ، شيخ الإسلام ، سلطان الأَولياء ، إمام الأَصفياء ، مُحيي الدّين والسُّنَّة ومميت البدعة ، أَبو محمَّد عبد القادر بن أَبي صالح عبد الله(٢) بن جنكي دوست(٣) بن يحيىٰ بن محمَّد بن داود بن موسىٰ بن عبد الله بن الحسن بن الحسن(٤) بن عليّ بن أَبي طالب(٥) .

الجيليّ ، الشّافعيّ ، الحنبليّ ، شيخ بغداد .

وهو سبط أَبي عبد الله الصّومعي ، ينسب إلىٰ جِيلان(٦) . والصّومعي

---

(١) تمَت كتابة هاذه التّرجمة بالتّعاون مع الأَخ الأُستاذ خالد الزّرعي ، ونشرت ضمن كتابنا (سر الأَسرار ومظهر الأَنوار فيما يحتاج إليه الأَبرار) ، للجيلانيّ رحمه الله تعالىٰ .

(٢) قال ابن رجب في « الطبقات » هو : عبد القادر بن أَبي صالح بن عبد الله ـ أَي : بزيادة لفظ (ابن) ـ وقال ابن الوردي في « تتمّة المختصر في أَخبار البشر » ، ج٢/ ١٠٧ هو : عبد القادر بن أَبي صالح موسىٰ جنكي دوست . وقال الزّركلي في « الأَعلام » ، ج٤/ ٤٧ هو : عبد القادر بن عبد الله .

(٣) قال الحلبي في « قلائد الجواهر » ، ص٣ : هاذا لفظ أَعجمي ومعناه : يحبُّ القتال . والله أَعلم .

(٤) قال ابن شاكر الكتبي في « فوات الوفيات » ، ج٢/ ٣٧٣ : ينتهي نسبه إلىٰ الحسين بن عليّ بن أَبي طالب .

(٥) « الطبقات » : لابن رجب . جامع كرامات الأَولياء : للنبهاني ، ج٢/ ٢٠٤ .

(٦) قال البغداديّ في « المراصد » ، ج١/ ٣٦٨ : جِيلان : أسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد=

من كبار مشايخ جِيلان ، مشهور بالكرامات والأَحوال[١] .

أَمّه أُمّ الخير أَمَةُ الجبّار ، فاطمة بنت أَبي عبد الله الصّومعي ، وهي أَيضاً ذات كرامات وأَحوال[٢] .

مولده وموطنه وأَوصافه :

ولد الشَّيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بمنتصف شهر رمضان في سنة إِحدىٰ وسبعين وأَربع مئة بجيلان[٣] ، وبها أَمضىٰ فترة شبابه الأَوّل إِلىٰ أَنْ بلغ الثّامنة عشرة سنة ، فارتحل إِلىٰ بغداد ، ودخلها سنة ثمان وثمانين وأَربع مئة[٤] ، وٱستمر فيها إِلىٰ نهاية حياته .

كان الشَّيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ نحيف البدن ، مربوع القامة ، عريض الصَّدر ، عريض اللّحية ، طويلها ، أَسمر اللَّون ، مقرون الحاجبين ، ذات صوت جَهْوَرِيّ ، وسمت بهيّ[٥] ، وقدر عليّ ، وعلم وفيّ[٦] .

نشأته وطلبه العلم :

رأَت عيون الشَّيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ النّور في بيئة معروفة بالعلم ، ومُؤيَّدة بالكرامات ؛ فأَبوه من كبار علماء جِيلان ، وأُمُّهُ مَنْ عُرِفَت بالكرامات ، وهي ٱبنة أَبي عبد الله الصّومعي العارف العابد الزّاهد ،

= طبرستان ، وهي قرىٰ كلّها في مروج بين جبال وعلىٰ ساحل بحر طبرستان .

(١) تتمّة المختصر في أَخبار البشر : لابن الوردي ، ج٢/١٠٨ .

(٢) قالت أُمُّه : لمّا وضعت ابني عبد القادر كان لا يرضع ثدييه في نهار رمضان [قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر : للتادفي ، ص٣] .

(٣) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج٢٠/ ٤٣٩ .

(٤) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج٢٠/ ٤٤٣ نقلاً عن ابن النَّجّار في « تاريخه » .

(٥) قال ابن منظور في « اللّسان » ، ج٢/ ٤٦ : السَّمْتُ : حُسن الحديث ، وحسن الجوار ، وقلة الأذيّة وٱتّباع الحقّ والهدىٰ .

(٦) مختصر طبقات الحنابلة : لابن شطي ، ص٤١ .

فاستنشق الهواء من بيوت العلم والفقه والمعرفة والحقيقة .

عَلِمَ - رحمه الله تعالىٰ - أَنَّ طلب العلم فريضة علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة ، فشمَّر عن ساعد الجدِّ والتَّحصيل ، وسارع في طلبه ، قاصداً أَعلام الهدىٰ من علماء هاذه الأُمَّة ، فابتدأ حياته بقراءة القرآن العظيم حتّىٰ أَتقنه . درسَهُ علىٰ أَبي الوفا عليّ بن عقيل الحنبليّ ، وأَبي الخطّاب محفوظ الكَلْواذَانِي الحنبليّ ، وغيرهم كثير .

وسمع الحديث النَّبوِّي الشَّريف علىٰ كثيرٍ من مشاهير عصره من الحفّاظ ، كأَبي غالب محمَّد بن الحسن البلاقلاني ، وغيره .

وتفقَّه علىٰ أَيدي مشاهير عصره من العلماء والفقهاء ، كأَبي سعد المُخرِّمي ، الَّذي أَخذَ عنه الخِرقة الشَّريفة .

وتعلَّم الأَدب واللُّغة علىٰ أَبي زكريا يحيىٰ بن عليّ التَّبريزيّ . وصاحبَ حمّاد الدَّبّاس وأَخذ عنه علم الطَّريقة .

فأَلَّم بعلوم الشَّريعة والطَّريقة واللُّغة والأَدب ، حتّىٰ بلغ شأواً بعيداً ، فكان إِمام الحنابلة ، وشيخهم في عصره ، وأَظهر الله تعالىٰ الحكمة من قبله علىٰ لسانه في مجالس الوعظ .

جلس للوعظ في شوال سنة إِحدىٰ وعشرين وخمسمئة ، في مدرسة أَبي سعد المُخرِّمي ، بباب الأَزَجِ في بغداد ، وذاع له صِيتٌ كبير في الزُّهد ، فضاقت المدرسة بالنّاس ، ممّا اضطره إِلىٰ توسعتها ، حتّىٰ نقل مجلسه إِلىٰ خارج بغداد عند المصلّىٰ ، فقد أَصبح يحضر مجلسه عدد كبير من النّاس قُدِّر بسبعين أَلفاً .

وتتلمذ علىٰ يديه عدد كبير من الفقهاء والعلماء والمحدِّثين وأَرباب الأَحوال والمقامات[1] .

صنَّف مصنَّفات عديدة في الأُصول والفروع ، وفي أَهل الأَحوال والحقائق[2] ، نذكر منها :

١ ـ إغاثة العارفين وغاية منىٰ الواصلين[3] .

٢ ـ أَوراد الجيلانيّ وأَدعيته[4] .

٣ ـ آداب السّلوك والتّوصل إِلىٰ منازل الملوك[5] وهو هاذا الكتاب .

٤ ـ تحفة المتّقين وسبيل العارفين[6] .

٥ ـ جلاء الخاطر في الباطن والظّاهر[7] .

٦ ـ الرِّسالة الغوثيّة[8] .

٧ ـ رسالة في الأَسماء العظيمة للطّريق إِلىٰ الله[9] .

٨ ـ الغُنية لطالبي طريق الحقّ[10] .

---

(١) مختصر طبقات الحنابلة : لابن شطي ، ص٤١ .

(٢) سير أَعلام النّبلاء : للذهبيّ ، ج٢٠/ ٤٤٤ .

(٣) المستدرك علىٰ معجم المؤلّفين : عمر كحّالة ، ص٤٠١ .

(٤) المستدرك علىٰ معجم المؤلّفين : عمر كحّالة ، ص٤٠١ . وسوف يصدر قريباً بتحقيقي إِنْ شاء الله تعالىٰ .

(٥) معجم المؤلّفين : عمر كحّالة ، ج٥/ ٣٠٧ .

(٦) إيضاح المكنون : مير سليم ، ج١/ ٢٥٧ .

(٧) وقد قام بتحقيقه ونشره الأُستاذين خالد الزّرعي وعبد النّاصر سرّي جزاهما الله خيراً .

(٨) كشف الظُّنون : حاجي خليفة ، ج١/ ٨٧٩ .

(٩) وقد قمت بتحقيقه ونشره ، وله أَسم آخر وهو (الطَّريق إِلىٰ الله) .

(١٠) كشف الظُّنون : حاجي خليفة ، ج٢/ ١٢١١ . وهو مطبوع قديماً . وبدأت العمل بتحقيقه ، أَرجو الله أَنْ يعينني علىٰ إِتمامه .

٩ ـ الفتح الرَّبّاني والفيض الرَّحمانيّ[١] .

١٠ ـ معراج لطيف المعاني[٢] .

١١ ـ يواقيت الحكم[٣] .

لعلَّ هاذه المصنَّفات هي الأَشهر بين مصنَّفاته العديدة .

كان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يتكلَّم في ثلاثة عشر علماً . وكان يُقْرَأُ عليه بمدرسته في طرفي النَّهار دروسٌ في التَّفسير ، وعلوم الحديث ، والمذهب ، والخلاف ، والأُصول ، والنَّحو . وكان يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظُّهر .

أَفتىٰ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ علىٰ مذهب الإمام الشّافعيّ ، ثمَّ أَفتىٰ علىٰ مذهب الإمام أَحمد بن حنبل ، وكانت فتاواه تُعرض علىٰ العلماء بالعراق ، فتعجبهم أَشدَّ الإعجاب ، فيقولون : سبحان من أَنعم عليه .

شيوخه :

أَخذ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ نور العلم عن كثير من العلماء الَّذين تعدَّدت مذاهبهم ، وتنوَّعت ٱختصاصاتهم العلميّة ، نذكر من أَبرزهم :

أ ـ في علم الحديث النَّبويِّ الشَّريف :

١ ـ المحدِّث أَبو محمَّد جعفر بن أَحمد بن الحسن بن أَحمد البغداديّ ، السَّرّاج ، القارىء ، الأَديب [٤١٧ ـ ٥٠٠هـ][٤] .

---

(١) معجم المؤلّفين : عمر كحّالة ، ج٥/ ٣٠٧ . وهو مطبوع قديماً .
(٢) كشف الظُّنون : حاجي خليفة ، ج٢/ ١٧٣٨ .
(٣) كشف الظُّنون : حاجي خليفة ، ج٢/ ٢٠٥٣ .
(٤) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج١٩/ ٢٢٨ ، ج٢٠/ ٤٤٠ .

٢ ـ المحدِّث أَبو غالب محمَّد بن الحسن بن أَحمد بن الحسن بن خذاداذا الباقلاني [٤٢٠ ـ ٥٠٠هـ][١] .

٣ ـ الشَّيخ الصَّدوق أَبو سعد محمَّد بن عبد الكريم بن خُشَيش البغداديّ [٤١٣ ـ ٥٠٢هـ][٢] .

٤ ـ الشَّيخ أَبو بكر أَحمد بن المظفَّر بن حسين بن عبد الله بن سُوسن التَّمّار [٤١١ ٥٠٣هـ][٣] .

٥ ـ الشَّيخ المُسند أَبو القاسم عليّ بن أَحمد بن محمَّد بن بيان بن الرَّزّاز البغداديّ [٤١٣ ـ ٥١٠هـ][٤] .

٦ ـ الشَّيخ الثِّقة أَبو طالب عبد القادر بن محمَّد بن عبد القادر بن محمَّد بن يوسُف البغداديّ اليوسفيّ [٤٣٠ ـ ٥١٦هـ][٥] .

٧ ـ الشَّيخ المحدِّث أَبو البركات هِبَةُ الله بن المبارك بن موسىٰ البغداديّ السَّقَطِي [٤٤٥ ـ ٥٠٩هـ][٦] .

٨ ـ الشَّيخ أَبو العزِّ محمَّد بن المختار بن محمَّد بن عبد الواحد بن عبد الله بن المؤيّد بالله الهاشمي العبّاسي [٤٢٨ ـ ٥٠٨هـ][٧] .

ب ـ في علم الفقه :

---

(١) سير أعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج١٩/ ٢٣٥ ، ج٢٠/ ٤٤٠ .
(٢) سير أعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج١٩/ ٢٤٠ ، ج٢٠/ ٤٤٠ .
(٣) لسان الميزان : لابن حجر العسقلاني ، ج١/ ٣١١ .
(٤) سير أعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج١٩/ ٢٥٧ ، ج٢٠/ ٤٤٠ .
(٥) سير أعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج١٩/ ٣٨٦ ، ٣٨٧ .
(٦) لسان الميزان : لابن حجر العسقلاني ، ج٦/ ١٨٩ ـ ١٩٠ .
(٧) المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم : لابن الجوزي ، ج٩/ ١٨٢ .

العلاّمة شيخ الحنابلة أَبو سعد المبارك بن المُخرِّمي البغداديّ [ت ٥١٣هـ][1] .

٢ ـ العلاّمة شيخ الحنابلة أَبو الوفاء عليّ بن عقيل بن محمَّد بن عقيل بن عبد الله البغداديّ الظَّفَري [٤٣١ ـ ٥١٣هـ][2] .

٣ ـ الإمام شيخ الحنابلة أَبو الخطّاب محفوظ بن أَحمد بن حسن بن حسن العِراقي الكَلْواذاني [٤٣٢ ـ ٥١٠هـ][3] .

ج ـ في علم الأَدب واللُّغة :

١ ـ إِمام اللُّغة أَبو زكريا يحيىٰ بن عليّ بن محمَّد بن حسن بن بِسطام الشَّيباني الخطيبُ التّبريزيُ [٤٢١ ـ ٥٠٢هـ][4] .

تلاميذه :

سمع منه كثير من الخلق ، إِذ كان يحضر مجلسه أَكثر من سبعين أَلفاً ، منهم من كان يلازمه ملازمة تامّة ، وهم كثر ، نذكر من أَشهرهم :

١ ـ الزّاهد العابد شيخ العراق أَبو عليّ الحسن بن مسلّم بن أَبي الجود الفارسيّ العراقيّ [٤٠٤ ـ ٥٩٤هـ] . وقد أَخذ عنه الفقه والقرآن[5] .

---

(١) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج١٩/ ٤٢٨ .
(٢) مختصر طبقات الحنابلة : لابن شطي ، ص٤٠ ـ ٤٢ .
(٣) مختصر طبقات الحنابلة : لابن شطي ، ص٣٥ ـ ٣٦ .
(٤) معجم الأُدباء : لياقوت الحموي ، ج٢٠/ ٢٥ ـ ٢٨ .
(٥) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج٢١/ ٣٠١ .

٢ ـ القُدوة العارف أَبو عبد الله محمَّد بن أَبي المعالي بن قايد الأَوانيّ [ت ٥٨٤][1] .

٣ ـ قاضي الدّيار المصريّة الإمام الزّاهد الأَوحد أَبو القاسم عبد المَلك بن عيسىٰ بن دِرباس بن فِيْر بن جَهْم بن عَبْدُوس المارانيّ الكرديّ الشّافعيّ [٥١٦ ـ ٦٠٥هـ][2] .

٤ ـ الإمام الحافظ الأَثريّ أَبو محمَّد عبد الغني بن عبد الواحد بن عليِّ بن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر المقدسيّ الحنبليّ [٥٤١ ـ ٦٠٠هـ] وقد حدَّث عنه[3] .

٥ ـ الشّيخ الإمام القدوة أَبو محمَّد عبد الله بن أَحمد بن محمَّد بن قدامة بن مِقدام بن نصر المقدسيّ الحنبليّ (صاحب المُغني) [٥٤١ ـ ٦٢٠هـ][4] . قال : أَقمنا عنده في مدرسته شهراً وتسعة أَيّام ثمَّ مات[5] .

٦ ـ الشَّيخُ المُسنِد أَبو المعالي أَحمد بن عبد الغني بن محمّد بن حنيفة الباجِسْراني التانىءُ [٤٨٩ ـ ٥٦٣هـ][6] .

٧ ـ القاضي أَبو المحاسن عمر بن عليّ بن الخضر القُرشيّ [٥٢٥ ـ ٥٧٥هـ][7] .

---

(١) الوافي بالوفيات : للصَّفدي ، ج٤/ ٣٥٢ .
(٢) التّكملة لوفيات النّقلة : للمنذريّ ، ج٢/ ١٥٦ .
(٣) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج٢١/ ٤٤٣ ـ ٤٧١ .
(٤) فوات الوفيات : لابن شاكر الكتبي ، ج٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .
(٥) العبر في خبر من غبر : للذهبيّ ، ج/ ٣٦ .
(٦) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : لابن الجوزيّ ، ج١٠/ ٢٢٣ .
(٧) الكامل في التاريخ : لابن الأثير ، ج١١/ ٤٦١ .

٨ ـ الإمام الحافظ الثِّقة أَبو سعد عبد الكريم بن محمَّد بن منصور بن محمَّد بن عبد الجبّار التّميميّ السّمعانيّ [٥٠٦ ـ ٥٦٢هـ][(١)] .

٩ ـ الشَّيخ الثِّقة أَبو طالب عبد اللَّطيف بن محمَّد بن عليّ بن حمزة بن فارس بن القُبيّطيّ الحَرّانيّ [٥٥٤ ـ ٦٤١هـ][(٢)] .

١٠ ـ الشَّيخ العدل أَبو العبّاس أَحمد بن المفرّج بن عليّ بن عبد العزيز بن مَسلمة الدّمشقيّ [٥٥٥ ـ ٦٥٠هـ][(٣)] .

أَشهر علماء عصره :

يتَّسم القرن الخامس في تاريخ الإسلام بسعةٍ في العلم ، وتقدُّم في الآداب ، قد نبغ فيه علماء كبار ومؤلِّفون بارعون . قد كان من رجال آخر هاذا القرن العلاّمة (أَبو إِسحاق الشِّيرازيّ) ، و(حجَّة الإِسلام الغزاليّ) ، و(أَبو الوفاء ٱبن عقيل) ، و(عبد القاهر الجرجاني) ، و(أَبو زكريا التَّبريزيّ) ، و(أَبو القاسم الحريري) ، و(جار الله الزَّمخشري) ، و(القاضي عياض المالِكي) ، الَّذين ظلّوا قروناً مسيطرين علىٰ العقول والاتجاهات ، وكانوا مدارس أَدبيَّة وعلميَّة ، لم يكن لأَحد في هاذا العهد الزّاخر بالحياة العلميّة ونوابغ الفنّ كالقرن الخامس والسّادس ، وفي بلد زاخر بالمدارس وحلقات الدُّروس كبغداد ، أَنْ يؤثِّر في مجتمعه الَّذي قطع شوطاً واسعاً في العلم ، وٱنتشرت الثّقافة في طبقاته ٱنتشاراً كبيراً ، ولم يكن له أَنْ يلفت إِليه الأَنظار ، وينفذ إِلىٰ أَعماق النُّفوس والقلوب ، وتخضع له الطَّبقات

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم : لابن الجوزيّ ، ج١٠/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .
(٢) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج٢٣/ ٨٧ .
(٣) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج٢٣/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

المثقَّفة وحملة لواء العلم في عصره ، إلاّ إذا كان عالي الكعب طويل الباع في العلوم السّائدة ، متضلّعاً من علوم الدّين والدُّنيا ، قد أَقرَّ له معاصروه بالفضل ، وشهد له علماء بلده بغزارة العلم وسعة المعارف[1] .

مناقبه :

للشَّيخ عبد القادر ـ رحمه الله تعالىٰ ـ صفات حميدة ، ومآثر كثيرة ، فقد ٱشتهر بالأَحوال والكرامات حتّىٰ تواترت عنه .

قال الشَّيخ عزُّ الدِّين بن عبد السَّلام : ما نُقلت إلينا كرامات أَحد بالتَّواتر إلاّ الشَّيخ عبد القادر[2] . وكذا قاله شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ رحمه الله تعالىٰ ـ[3] .

دان جميع العلماء والأَولياء في عصره للشيخ ؛ ففي الفقه بزَّ أَقرانه العلماء ، وخضعت له رقاب الأَولياء ، وقد ٱعترف له سائر العلماء وسائر الأَولياء بذالك ، وبايعوه بالسَّلطنة عليهم ، فأَضحىٰ سلطان الأَولياء .

ولمّا ٱشتهر أَمره ٱجتمع عليه مئة فقيه من أَعيان فقهاء بغداد وأذَكيائهم ، علىٰ أَنْ يسأَله كلُّ واحد منهم مسأَلة واحدة في فنٍّ من العلوم غير مسأَلةِ صاحبه ، ليقطعوه بها ، وأَتوا مجلس وعظه . فلمّا ٱستقرَّ بهم الجلوس ، أَطرق الشَّيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ ، فظهرت من صدره بارقة من نور لا يراها إلاّ من شاء الله تعالىٰ ، ومرَّت علىٰ صدور المئة ، ولا تمرّ علىٰ أَحد منهم إلاّ بُهت وٱضطرب ، ثمّ صاحوا صيحة واحدة ، ومزّقوا ثيابهم ، وكشفوا رؤوسهم ، وصعدوا إليه فوق الكرسيّ ، ووضعوا

---

(١) رجال الفكر والدَّعوة : محمَّد أبو الحسن النَّدويّ .
(٢) شذرات الذَّهب في أَخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلي ، ج٤/ ٢٠٠ .
(٣) تتمَّة المختصر في أَخبار البشر : لابن الوردي ج٢/ ١١١ .

رؤوسهم علىٰ رجليه ، وضجّ أَهل المجلس ضجّة واحدة ، خال النّاس منها أنّ بغداد قد زلزلت ، فجعل الشّيخ يضمّ إِلىٰ صدره واحداً بعد الآخر ، حتّىٰ أَتىٰ إِلىٰ آخرهم ، ثمَّ قال لأَحدهم : أَمّا أَنت فمسأَلتك كذا ، وجوابها كذا ، وهاكذا إِلىٰ أَنْ أَتمَّ المئة ، فلمّا ٱنفض المجلس سأَلهم مُفرِج بن نبهان ما شأنكم ؟ قالوا : إِنّا لمّا جلسنا فقدنا جميع ما نعرفه من العلم ، حتّىٰ كأَنَّه لم يمرَّ بنا قطُّ ، فلمّا ضمّنا إِلىٰ صدره رجع إِلىٰ كلٍّ منّا ما نُزع من العلم[1] .

لم ينخدع الشَّيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بالمقامات الَّتي أَصبح يراها . بل عرف أَنَّ علم الحقيقة إِنَّما هو موافقة لرسوم الشَّريعة مع علم المعرفة ، وأَيُّ مخالفة لعلم الشَّريعة يعني ولوج الشَّيطان في السُّلوك ، ولو كان وليّاً .

يقول الشَّيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : خرجت في بعض سياحاتي إِلىٰ البريَّة ، ومكثت أَيّاماً لا أَجد ماء ، فاشتدَّ بي العطش ، فأَظلتني سحابة ونزل عليّ منها شيء يشبه النَّدىٰ ، فرويت ، ثمَّ رأيت نوراً أَضاء به الأُفق ، وبدت لي صورة ، ونوديت يا عبد القادر : أَنا ربُّك ! وقد أَحللت لك المحرَّمات ، أَو قال : ما حرَّمت علىٰ غيرك ، فقلت : أَعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم ، إِخساً يا لعين ، فإِذا ذالك النّور ظلام ، وتلك الصّورة دخان ، ثمَّ خاطبني وقال : يا عبد القادر ، نجوت منّي بعلمك بحكم ربِّك ، وقوّتك في أَحوال منازلاتك ، ولقد أَضللت بهاذه الواقعة سبعين من أَهل الطَّريق ، فقلت : لربّي الفضل والمنَّة . قال : فقيل له :

---

(١) قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر : للتادفي ، ص٣٣ .

كيف علمت أَنَّه شيطان ؟ قال : يقول : أَحللت لك المحرَّمات[١] .

ويقول ـ رحمه الله تعالىٰ ـ حاثّاً علىٰ التَّمسُك بالكتاب والسُّنَّة وٱلتزام نهج أَتباع الرَّسول صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : كلُّ حقيقة لا تشهد لها الشَّريعة فهي زندقة ، طِرْ إِلىٰ الحقِّ عزَّ وجلَّ بجناحي الكتاب والسُّنَّة ، ٱدخل عليه ويدك في يد الرَّسول صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ٱجعله وزيرك ومعلِّمك ، دع يده تزيّنك وتمشِّطك وتعرضك عليه[٢] .

كان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يتكلَّم علىٰ الخواطر في مجلسه رغم أَنَّ مجلسه يضمُّ سبعين أَلفاً ، وقد كثر تواتر الرّوايات حول ذالك ، يقول الشَّيخ أَبو بكر العماد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ : كنت قرأت في أُصول الدّين ، فأَوقع عندي شكّاً ، فقلت : حتّىٰ أَمضيَ إِلىٰ مجلس الشَّيخ عبد القادر ، فقد ذُكر أَنَّه يتكلَّم علىٰ الخواطر ، فمضيت وهو يتكلَّم ، فقال : ٱعتقادنا ٱعتقاد السَّلف الصّالح والصَّحابة . فقلت في نفسي : هاذا قاله ٱتّفاقاً ، فتكلَّم ثمَّ ٱلتفت إِلىٰ ناحيتي ، فقلت : الواعظ قد يلتفت ، فالتفت إِليّ ثالثة ، وقال : يا أَبا بكر ، فأَعاد القول ، ثمَّ قال : قم قد جاء أَبوك . وكان غائباً ، فقمت مبادراً ، وإِذا أَبي قد جاء[٣] .

وفي ذالك يقول السُّهْرَوَرْدِيّ : عزمت علىٰ الاشتغال بأُصول الدّين ، فقلت في نفسي : أَستشير الشَّيخ عبد القادر ، فأَتيته ، فقال قبل أَنْ أَنطق : يا عُمَرُ ، ما هُوَ مِنْ عُدَّةِ القبرِ . يا عُمَرُ ، ما هُوَ مِنْ عُدَّةِ القبرِ[٤] .

كان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في شبابه حينما يشتغل بالعلم ويطرقه

---

(١) شذرات الذَّهب في أَخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلي ، ج٤/ ٢٠٠ .
(٢) الفتح الرَّبّاني والفيض الرَّحمانّي ، المجلس الرّابع والأَربعون .
(٣) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج٢٠/ ٤٤٢ .
(٤) طبقات الحنابلة : لابن رجب الحنبلي ، ج١/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

الحال ، يخرج إلىٰ الصَّحاري ليلاً أَو نهاراً ، هائماً علىٰ وجهه ، حتّىٰ يسمعه العيّارون[1] ، فيفزعوا من شدَّة صيحته ، فيحسبوه ميّتاً . وكان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يهمُّ بعد ذالك بالخروج من بغداد ، فيسمع هاتفاً أَنْ ٱرجع إلىٰ النّاس فإِنَّ فيك منفعة .

وهاذا ما يفسِّر إقبال الخلق الكثير الَّذين يحضرون دروسه ، ويتوبون عليه ، والخلق الكثير من النّصارىٰ واليهود الَّذين أَسلموا علىٰ يديه[2] .

قال أَبو الثَّناء النَّهرملكي : تحدَّثنا أَنَّ الذُّباب ما يقع علىٰ الشَّيخ عبد القادر . فأَتيته ، فالتفت إليّ ، وقال : أَي شيءٍ يعمل عندي الذُّباب ، لا دِبْسُ الدُّنيا ، ولا عسل الآخرة[3] .

عُرف الشَّيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بالإيمان الرّاسخ ، وعقيدة التَّوحيد السَّليمة ، فلم تغرَّه الدُّنيا ، ولم ينظر إلىٰ زخرفها ، ورأىٰ أَنَّ الأَسباب إنَّما هي بيد المُسبِّب عزَّ وجلَّ ، وليست الأَسباب بيد الخَلْق من الأغنياء والأُمراء والمتنفِّذين ، يضرب علىٰ ذالك مثلاً في تحقير هاؤلاء الخَلْق : ٱجعل الخليقة أَجمع كرجُلٍ كَتَفَهُ سلطان عظيمٌ مُلكُهُ ، شديد أَمره ، مهولة صولته وسطوته ، ثمَّ جعل الغلَّ في رقبته مع رجليه ، ثمَّ صلبه علىٰ شجرة الأَرز ، علىٰ شاطئ نهر عظيم موجُه ، فسيح عرضه ، عميق غوره ، شديد جريُه ، ثمَّ جلس السُّلطان علىٰ كرسي عظيم قدره ، عالية سماؤه ، بعيد مرامه ووصوله ، وترك إلىٰ جنبه أَحمالاً من السِّهام والرِّماح والنَّبل وأَنواع السِّلاح والقسيِّ ممّا لا يبلغ قدرها غيره ، فجعل يرمي إلىٰ

---

(١) العيّار : الشُّطَّار .

(٢) شذرات الذَّهب في أَخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلي ، ج٤/ ٢٠٢ ، بتصرُّف .

(٣) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج٢٠/ ٤٤٨ .

المصلوب بما شاء من ذالك السّلاح ، فهل يحسن لمن رأىٰ ذالك أَنْ يترك النَّظر إلىٰ السُّلطان ، ويترك الخوف منه والرَّجاء له ، ويخاف من المصلوب ويرجو منه ؟ أَليس من فعل ذالك يسمّىٰ في قضية العقل عديم العقل مجنوناً ، بهيمة غير إنسان ؟!

كان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ سريعة الدَّمعة ، شديد الخشية ، كثير الورع ، مجاب الدَّعوة ، كريم الأَخلاق ، طيّب الأَعراق ، أَبعد النّاس عن الفحش ، أَقرب النّاس إلىٰ الحقِّ ، شديد البأس إذا ٱنتهكت محارم الله ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لغير الله ، ولا يردُّ سائلاً ولو بأَحد ثوبيه[1] .

لعلّ ما ذكرناه من الكرامات والمناقب تختصُّ في العلم والعلماء وشرفه ورفعته ومنزلته فوقهم جميعاً ، لاكن لو ذهبنا نتلمَّس كراماته الأُخرىٰ لوجدناها كثيرة جدّاً ، ولَما ٱستطعنا حصرها ، كما أَشار إلىٰ ذالك أَغلب العلماء ، فقد أَفردوا الكثير من المصنَّفات النَّفيسة في مناقبه وكراماته ، آثرنا إثباتها لمن يحبُّ الاطلاع[2] .

---

(١) تفريج الخاطر : الأَربلي ، ص١٥ .

(٢) **المخطوطة** : مناقب عبد القادر الجيلانّي : ق٥٢/أ ـ ٥٩/ب ، ظاهريّة عام ٤٦٥٦ . نبذة من مناقب عبد القادر الجيلانّي : ق١٠٥/أ ـ ١١٠/ب ، ظاهريّة عام ١٣٦٧ . مناقب عبد القادر الجيلاني : ظاهريّة تاريخ ٧٤ . تنور الأَولياء ورموز الأَصفياء : ق٣٤/أ ـ ٣٥/أ ظاهريّة عام ١٩٨٢ . المطبوعة : الكواكب الدريّة في مناقب القادريّة : محمّد رشيد الرافعي . قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر : محمَّد التادفي الحلبي ، الباز الأَشهب في حياة السَّيِّد الجيلاني . نزهة الخاطر الفاتر في ترجمة الشَّريف عبد القادر : آرتين أَصادوربيان . تفريج الخاطر في مناقب عبد القادر : الأَربلي .

وفاته :

أَمضىٰ الشَّيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ الفترة الأُولىٰ من حياته في طلب العلوم وجمعها وتحصيلها ، ثمَّ تصدَّر أَربعين سنة مجلس الكلام والوعظ ، في مدرسته بباب الأَزج ، من سنة (٥٢١هـ) إِلىٰ سنة (٥٦١هـ) .

أَمّا مدَّة التَّدريس والفتوىٰ بمدرسته ، فكانت ثلاثاً وثلاثين سنة ، من سنة (٥٢٨هـ) إِلىٰ سنة (٥٦١هـ)[١] .

لم يدَّخر الشَّيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وقتاً إِلاّ وأَنفقه في العلم والجدِّ ، من تحصيل وتدريس ، وفُتيا ، وتوجيه ، ووعظ ، وإِرشاد ، وأَحوال ، ومقامات ، وكشف ، ومشاهدة ، فكان العالم والزّاهد والعابد والعارف .

عاش الشَّيخ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ إِحدىٰ وتسعين سنة ، وٱنتقل إِلىٰ الله تعالىٰ في عاشر ربيع الآخر ، سنة إِحدىٰ وستين وخمسمئة ، وشيَّعه خلق لا يحصون ، ودفن بمدرسته ـ بباب الأَزج ببغداد ـ رحمه الله تعالىٰ[٢] .

ولله درُّ من قال مشيراً لولادته ووفاته ومدَّة حياته :

لَقَدْ كانَ في عِشْقٍ عُمْرٌ بِهِ نَما   وَلُقْيَاهُ لِلْمَولىٰ تَمامُ سِيَادَة

٤٧٠هـ   + ٩١   = (٥٦١هـ)

ولادته   حياته   وفاته

* * *

(١) مختصر طبقات الحنابلة : لابن شطي ، ص٤١ .

(٢) سير أَعلام النُّبلاء : للذهبيّ ، ج٢٠/ ٤٥٠ .

راموز عنوان النُّسخة رقم (٥٩٠٨) .

راموز الورقة الأُولى رقم (٥٩٠٨) .

راموز الورقة الأخيرة رقم (٥٩٠٨) .

راموز عنوان النُّسخة رقم (٦٢٢١) .

راموز الورقة الأُولى رقم (٦٢٢١) .

راموز الورقة الأخيرة رقم (٦٢٢١) .



راموز الورقة الأُولى رقم (١٤١٠٣) .

راموز الورقة الأخيرة رقم (١٤١٠٣) .

راموز عنوان النُسخة رقم (٨٣٣٧) .

راموز الورقة الأُولى رقم (٨٣٣٧) .

راموز الورقة الأخيرة رقم (٨٣٣٧) .

راموز عنوان النُسخة رقم (٨٦٥٥) .

راموز الورقة الأُولى رقم (٨٦٥٥) .

راموز الورقة الأخيرة رقم (٨٦٥٥) .

تذكير لما مضى

مَطابقة الرّسم الإملائي للنُّطق

الإملائي الدارج	صوابه
هٰذا	هَاذا
هٰذه	هاذه
هٰؤلاء	هاؤُلاء
أولئكَ	أولائكَ
ذٰلك	ذالك
كذٰلك	كذالك
هٰهنا	هاهنا
لٰكن «مشدّدة أو مخفّفة»	لاكن
السّمٰوات	السّماوات

يَا نَاظِراً فِيهِ سَلْ بِاللهِ مَرْحَمَةً
عَلَى المُؤَلِّفِ وَاسْتَغْفِرْ لِكَاتِبِهِ
وَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ مِنْ خَيْرٍ تُرِيدُ بِهِ
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ غُفْرَاناً لِنَاشِرِهِ

وَإِنْ تَجِدْ عَيْباً فَسُدَّ الخَلَلَا
جَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَلَا عِلَلَا



تأليف

الشيخ عبد القادر الجيلاني

قدس الله سره العالي



/ بسم الله الرحمان الرحيم ٢/أ

وَبِهِ ثِقَتِي

{ أَخبرني جدّي الإمام العالِم العارف ، التّقيّ الزّاهد ، الورع العابد قدوة المشايخ ، قطب الإسلام ، عَلَمُ الزُّهّاد ، ودليل العبّاد في الدّين ، قامع البدعة ، ناصر السُّنَّة :

أبو محمّد عبد القادر بن[أَبي] صالح الجيليّ

رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه ، وجمعنا وإِيّاه في مستقرِّ رحمته ؛ فيما كتب فيه إِليَّ وأَذِنَ لي في روايته ، في صفر سنة إِحدىٰ وستّين وخمسمئة .

وأَخبرنا عنه والدي الإمام العالِم الأَوحد ، الزّاهد العابد ، الورع التّقيّ ، تاج الدّين :

أبو بكر عبد الرّزّاق بن عبد القادر بن أَبي صالح بن عبد الله الجيليّ

رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه ، قال : قُرئَ علىٰ والدي رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه ، وأَنا أَسمعُ يوم الثُّلاثاء رابع عشر ربيع الأَوّل سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة . قيل له : قلت رضيَ الله تعالىٰ عنك : }

(ح) قال والدي الإمام الأَوحد المؤيَّد ، إِمام الأَئمة ، محيي الدّين ، سيّد الطّوائف ، أَبو محمَّد عبد القادر بن أَبي صالح بن عبد الله الجيليّ ـ قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه ـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالَمين ، أَوَّلاً وآخِراً ، وظاهراً وباطناً ، عدد خَلقه ، ومِداد كلماتِه ، وزِنَةَ عرشِه ، ورضاء نفسه ، وعدد كلِّ شفع ووتر ، ورطبٍ ويابسٍ ، { وجميع } ما خَلَقَ ربُّنا وذرأَ وبرأَ ، دائماً أَبداً سرمداً طيّباً مباركاً ، الَّذي خلق فسوّىٰ ، وقدَّر فهدىٰ ، وأَمات وأَحيىٰ ، وأَضْحَكَ وأَبكىٰ ، وقرَّب وأَدنىٰ ، ورحم وأَخزىٰ ، وأَطعم وأَسقىٰ ، وأَسعد وأَشقىٰ ، ومنع وأَعطىٰ ، الَّذي بكلمته قامت السَّماوات السَّبع الشِّداد ، وبها رست الرَّواسي والأَوتاد ، وٱستقرَّت الأَرض المهاد ، فلا مقنوطاً من رحمته ، ولا مأموناً من مكره { وغِيَرِه } وإِنفاذ أَقضيته وفعله وأَمره ، ولا مستنكفاً من عبادته ، ولا مخلواً من نعمته .

فهو المحمود بما حبىٰ { به } ، المشكور { لِما } زوى[1] .

ثمَّ الصَّلاة والسَّلام علىٰ نبيّه محمَّد المصطفىٰ الَّذي من ٱتَّبَعَ ما جاء به ـ { عن الضَّلالة } ـ ٱهتدىٰ ، ومن صدَّ عنه ضلَّ وٱرتدىٰ .

النَّبيُّ الصّادق المصدَّق ، الزّاهد في الدُّنيا ، الطّالب الرّاغب في الرَّفيق الأَعلىٰ ، المجتبىٰ من خلقه والمنتخب من بريّته ، الَّذي جاء الحقُّ / بمجيئه ، وزَهَقَ الباطل بظهوره ، وأَشرقت الأَرض بنوره . ٢/ب

(١) زوىٰ : جمع .

ثمَّ الصَّلوات الوافيات ، والبركات الزَّكيات الطَّيّبات المباركات عليه ثانياً . وعلىٰ الطَّيّبين من آله وأَصحابه والتّابعين لهم بإحسان ، والأَحسنين { بربِّهم } فعلاً ، والأَقومين له قيلاً ، والأَصوبين إِليه طريقاً وسبيلاً .

ثمَّ تضرُّعنا إِليه ودعائُنا إِليه ورجوعنا إِليه ، ربَّنا ومنشينا وخالِقنا ورازقنا ومطعمنا ومسقينا ونافعنا وحافظنا وكالئنا[1] ، ومحيينا { ومنجينا } ، والذابّ[2] والدّافع عنّا جميع ما يؤذينا ويسوؤنا .

كلُّ ذالك برحمته وتحنُّنه وفضله ومنَّته بالحفظ الدّائم في الأَقوال والأَفعال ، في السِّرِّ والإعلان ، والكتمان والإظهار ، والشِّدَّة والرَّخاء ، والنِّعمة والباساء ، { والسَّرّاء } والضَّرّاء ، إِنَّه فعّال لِما يريد ، والحاكم لِما يشاء ، والعالِم بما يخفىٰ ، المطَّلع علىٰ الشّؤون والأَحوال من الزّلات والطّاعات والقُربات ، السّامع للأَصوات ، المجيب للدّعوات لمن يشاء وأَراد ، من غير { منازعةٍ } ولا تراد .

أَمّا بعد :

فإِنّ نِعمَ الله تعالىٰ علىٰ العباد كثيرةٌ { مترادفةٌ } متواترةٌ في آناء اللَّيل وأَطراف النَّهار ، والسّاعات واللَّحظات والخطرات وجميع الحالات ، كما قال جلَّ وعلا : ﴿ وَإِنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لا تُحْصوها ﴾ [سورة النَّحل ١٦/ ٨١] . وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَما بِكُم مِنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللهِ ﴾ [سورة النَّحل ١٦/ ٥٣] .

٣/ أ   فلا يَدانِ لي { ولا جَنان }[3] ولا لسان في إِحصائها وإِعدادها / ،

---

(١) كالئنا : بمعنىٰ حافظنا .

(٢) ذبَّ عنه : دفع ومنع .

(٣) الجَنان : القلب وروعُهُ وذالك لاستتاره في الصَّدر ولحفظه الأَشياء .

فلا يدركها التَّعداد ، ولا تضبطها العقول والأَذهان ، { ولا يحصِّلها } الجنان ، ولا يعبِّر عنها اللِّسان .

فمن جملة ما أَمكن من تعبيرها اللِّسان ، وأَظهرها الكلام ، وكتبها البنان ، ويفسرها البيان ؛ كلمات برزت وظهرت لي من فتوح الغيب ، فحلَّت في الجنان ، { فأَشغلت } المكان ، فأَبرزها وأَنتجها صدق الحال ، فتولّىٰ إِبرازها لطف المنّان ، ورحمة ربِّ الأَنام ، في قالب صواب المقال ، محجَّة[1] لمريدي الحقِّ عزَّ وجلَّ والطُّلاب .

فمن ذالك أَنْ قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه :

قوت القلوب وزاد الرّحلة

لا بدَّ لكلِّ مؤمنٍ في سائر أَحواله من ثلاثة أَشياء : أَمرٌ يمتثله ، ونهيٌّ يجتنبه ، وقَدَرٌ يرضىٰ به ، فأَقلُّ حالة لا يخلو المؤمن فيها من إِحدىٰ هاذه الأَشياء الثَّلاثة .

فينبغي له أَنْ يُلْزِم [بها] قلبه ، وليُحدِّث بها نفسه ، ويأْخذ الجوارح بها في سائر أَحواله .

بالعمل تجنى الرّغائب

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه { وأَرضاه } : ٱتَّبعوا ولا تبتدعوا ، وأَطيعوا ولا تمرقوا[2] ، ووحِّدوا ولا تشركوا ، ونزِّهوا الحقَّ

---

(١) محجَّة : طريقاً .

(٢) المروق : الخروج من الشَّيء .

ولا تتَّهموا ، وٱسألوا ولا تسأموا ، وٱنتظروا وترقَّبوا ولا تشكّوا ، وٱصبروا ولا تجزعوا وٱثبتوا ولا تنفروا ، وتآخوا ولا تعادوا ، وٱجتمعوا علىٰ الطّاعة ولا تتفرَّقوا ، وتحابّوا ولا تباغضوا ، وتطهَّروا عن الذُّنوب وبها فلا تتدنَّسوا وتتلطَّخوا، وبطاعة ربِّكم فتزيَّنوا ، وعن باب مولاكم فلا تبرحوا، وعن الإقبال عليه فلا تتولّوا، وبالتَّوبة فلا تُسوِّفوا، وعن/ الاعتذار إلىٰ خالِقكم في آناء اللَّيل وأطراف النَّهار {والسّاعات كلِّها} فلا تملّوا.

٣/ب

فلعلَّكُم تُرحموا وتُسعدوا ، وعن النّار تُبعدوا ، وإلىٰ الجنَّة تدخلوا ، وإلىٰ الله توصلوا ، وبالنَّعيم وٱفتضاض الأَبكار في دار السَّلام تشغلوا ، وعلىٰ ذالك أَبداً تخلدوا ، وعلىٰ النَّجائب تركبوا ، وبحورِ العين وأَنواع الطّيب وصوت القيان مع ذالك النَّعيم تُحبروا ، ومع الأَنبياء والصِّدّيقين والشُّهداء والصّالحين في علّيّين تُرفعوا .

في الإبتلاء صحوة الأرواح ويقظة البصائر

قال رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه : إذا ٱبتُلي العبد ببليَّةٍ تحرَّك أَوَّلاً في نفسه بنفسه ، فإنْ لم يتخلَّص منها ٱستعان بغيره من الخلق كالسَّلاطين وأَرباب المناصب وأَبناء الدُّنيا وأَصحاب الأَموال وأَهل الطِّبّ في الأَوجاع والأَمراض ، فإنْ لم يجد في ذالِك خلاصهُ ، رجع حينئذٍ إلىٰ ربّه عزَّ وجلَّ بالدُّعاء والتَّضرُّع { والبكاء } فما دام يجد عند نفسه نصرة ، لم يرجع إلىٰ الخلق ، وما دام لم يجد عند الخلق نصرة ، لم يرجع إلىٰ الخالِق عزَّ وجلَّ ، ثمَّ إذا لم يجد عند الخالِق نصرةً ٱستطرح[1] بين يديه مديماً للسؤال والتَّضرُّع والدُّعاء والبكاء والافتقار ، مع الخوف منه والرَّجاء

---

(١) ٱستطرح : ٱرتمىٰ بين يديه .

{ له } ، ثمَّ يُعْجِزه الخالِق { عزَّ وجلَّ } عن الدُّعاء ، ولا يجيبه حتّىٰ ينقطع عن جميع الأَسباب ، فحينئذٍ ينفذ فيه القدر ، ويفعل فيه الفعل ، فيفنىٰ العبد عن جميع الأَسباب والحركات ، فيبقىٰ روحاً فقط ، فلا يرىٰ إلاّ فعل الحقِّ عزَّ وجلَّ ، فيصير موقناً موحِّداً / ضرورة ، فيقطع بأَلاّ فاعل ٤/أ علىٰ الحقيقة إلاّ الله عزَّ وجلَّ ، ولا محرِّك ولا مسكِّن إلاّ الله ، ولا خير ولا شرَّ ، ولا نفع ولا ضرَّ ، ولا عطاء ولا منع ، ولا فتح ولا غلق ، ولا موت ولا حياة ، ولا عزَّ ولا ذُلَّ ، ولا غنىٰ ولا فقر إلاّ بيد الله عزَّ وجلَّ ، فيصير حينئذٍ في { يد } القدر كالطِّفل الرَّضيع في يد الظِّئر[1] ، والميت الغسيل في يدي الغاسل ، والكرة في صولجان[2] الفارس ، يقلَّب ويغيَّر { ويبدَّل } ويكوَّن ، ولا حراك به في نفسه ولا في غيره ، فهو غائب عن نفسه في فعل مولاه ، فلا يرىٰ غير مولاه وفعله ، ولا يسمع ولا يعقل من غيره .

إنْ أَبصر فلصنعه أَبصر ، وإنْ سمع وعلم فلكلامه سمع وبعلمه علم ، وبنعمته تنعَّم وبقربه أُسعد ، وبتقريبه تزيَّن وتشرَّف ، وبوعده طاب وسكن ، وبه ٱطمئن ، وبحديثه أَنس ، وعن غيره ٱستوحش ونفر ، وإلىٰ ذكره ٱلتجأَ وركن ، وبه عزَّ وجلَّ وثق ، وعليه توكَّل ، وبنور معرفته ٱهتدىٰ وتقمَّص وتسربل[3] ، وعلىٰ غرائب علومه ٱطَّلع ، وعلىٰ أَسرار قدرته أَشرف .

---

(١) ظأَرت الأُنثىٰ علىٰ ولد غيرها : عطفت عليه ، وحنتِ الجارة علىٰ وليد جارتها وظأَرت عليه كأُمّه .
(٢) الصَّولجان : هو المِحْجَنُ ؛ العصا المُعْوَجَّة .
(٣) ٱرتدىٰ رداء النور والحكمة والمعرفة ، وهاذا كناية عن ٱستنارة قلبه بنور الحكمة والمعرفة .

ومنه عزَّ وجلَّ سمع ووعا ، ثمَّ علىٰ ذالك حمد وأَثنىٰ ، وشكر ودعا .

اقتلع أعشاب الهوىٰ تتنامىٰ دوحة الكمال

قال رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه : إذا مت عن الخلق قيل لك رحمك الله وأَماتك عن هواك ، وإِذا مت عن هواك قيل لك رحمك الله وأَماتك عن إِرادتك ومناك ، وإِذا مت عن الإِرادة قيل لك رحمك الله وأَحياك ، فحينئذٍ تحيا حياةً لا موت بعدها ، { وتنعَم بنعيم لا بؤس بعده } ، وتغنىٰ غنىً لا فقر بعده ، وتعطىٰ عطاءً لا منع بعده / ، وتراح براحة لا شقاء بعدها ، وتعلم علماً لا جهل بعده ، وتُؤمَن أَمناً فلا تخاف بعده ، وتُسعد فلا تشقىٰ ، وتُعزُّ فلا تذلَّ ، وتُقرَّب فلا تبعد ، وتُرفع فلا توضع ، وتُعظَّم فلا تحقَّر ، وتُطهَّر فلا تُدنَّس ، فتتحقَّق فيك الأَماني ، وتصدق فيك الأَقاويل ، فتكون كبريتاً أَحمر[1] ، فلا تكاد تُرىٰ ، وعزيزاً فلا تُماثل ، وفريداً فلا تُشارك ، ووحيداً فلا تُجانس ، فرداً لفرد ووتراً لوتر ، غيباً لغيب ، سرّاً لسرٍّ ، فحينئذٍ تكون وارث كلِّ رسول ونبيّ وصدّيق .

٤/ب

بك تُختم الولاية ، وإِليك تصدر الأَبدال ، وبك تنكشف الكروب ، وبك تسقىٰ الغيوث ، وبك ينبت الزَّرع ، وبك { يُرفع البلاء } والمحن ، عن الخاصِّ والعامِّ وأَهل الثُّغور والرّاعي والرَّعايا والأَئمة والأُمَّة وسائر

---

(١) الكبريت : معروفٌ ، وقولهم أَعزُّ من الكبريت الأَحمر ، إِنَّما هو كقولهم ، أَعزُّ من بيض الأَنوق ، ويقال : ذهبٌ كبريتٌ ، أي : خالصٌ ونادرٌ .

البرايا ، فتكون شحنة البلاد والعباد ، فتنطلق الأَرجل إِليك بالسَّعي والتِّرحال ، والأَيدي بالبذل والعطاء والخدمة بإِذن خالق الأَشياء في { سائر الأَحوال } ، والأَلسن بالذِّكر الطَّيِّب والحمد والثَّناء في جميع المحال ، ولا يختلف فيك ٱثنان من أَهل الإِيمان ، يا خير من سكن البراري والعمران وجال .

وذالك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل والامتنان .

سرابٌ يحسبهُ الظَّمآن ماءً !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : إِذا رأَيت الدُّنيا في يدي أَربابها وأَبنائها ، بزينتها وأَباطيلها وخدعها { الكاذبة } ، ومصائدها وسمومها القاتلة ، مع لين مسَّ ظاهرها ، وضرارة باطنها ، وسرعة إِهلاكها / ، وقتلها لِمن مسَّها وٱغترَّ بها ، وغفل عن داهيتها ، وغيَّرها ٥/أ بأَهلها ، ونقض عهدها ، فكُن كمن رأىٰ إِنساناً علىٰ الغائط بالبراز ، باديةٌ سوأَته ، فائحة رائحته ، فإِنَّك تغضُّ بصركَ عن سوأَته ، وتسدَّ أَنفك من رائحته ونتنه .

فهاكذا { فكُن } في الدُّنيا ، إِذا رأَيتها غضَّ بصرك عن زينتها ، وسدَّ علىٰ أَنفك ممّا يفوح من روائح شهواتها ولذّاتها ، لتنجوَ منها ومن آفاتها ، ويصلُ إِليك قَسْمُك منها وأَنت فيه مهنّأ .

قال الله عزَّ وجلَّ لنبيّه المصطفىٰ صلَّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقىٰ ﴾ [سورة طه : ٢٠/ ١٣١] .

أُحِبُّ قُربَكَ وأُوثِرُ هواكَ (١)

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ٱفْنَ عن الخلق بحكم الله ، وعن هواك بأمر الله ، وعن إرادتك بفعل الله . فحينئذٍ تصلح أَنْ تكون وعاء لعلم الله تعالىٰ .

فعلامة فنائك عن خلق الله { تعالىٰ } ٱنقطاعك عنهم ، وعن التَّردُّد إليهم ، واليأس ممّا في أَيديهم .

وعلامة فنائك { عنك } وعن هواك ترك التَّكسُّب والتَّعلُّق بالسَّبب في جلب النَّفع ودفع الضُّرِّ ، فلا تتحرَّك فيك بك ولا تعتمد عليك لك ، ولا تذب عنك ، ولا تنصر نفسك ، ولاكِن تكِلْ ذالك كلَّه إِلىٰ من تولاّه منك أَوّلاً فيتولاّه آخراً ، كما كان ذالك موكولاً إليه في حال كونك مغيَّباً في الرَّحم ، وكونك رضيعاً طفلاً في مهدك .

وعلامة فناء إرادتك بفعل الله { عزَّ وجلَّ } أَنَّكَ لا تُريد { مع إرادته } مراداً / قطُّ ، ولا يكون لك غرض ، ولا تقف لك حاجة ولا مرام ، لأَنَّك لا تريد مع إرادة الله { تعالىٰ } سواها ، بل يجري فعل الله { تعالىٰ } فيك ، فتكون أَنت إرادة الله تعالىٰ وفعله ، ساكن الجوارح ، مطمئن الجنان ، مشروح الصَّدر ، منوَّر الوجه ، عامر الباطن ، غنيّاً عن الأَشياء بخالِقها ، تقلِّبك يد القُدرة ، ويدعوك لسان

د/ب

(١) من كلام السَّيِّدة عائشة أُمِّ المؤمنين رضيَ الله عنها لرسول الله ﷺ حين ٱستأذنها للذهاب إِلىٰ البقيع وإِحياء ليلة النِّصف من شعبان ، وهو خير شاهد عن فناء المُحِبّ عن هواه في سبيل المحبوب .

الأَزل ، ويعلِّمك ربُّ الملك ، ويكسوك نوراً { من نوره وإجلالاً منه } ، ويلبسك الحلل ، وينزلك منازل من سلف من أُولي العلم الأُوَل ، فتكون منكسراً أَبداً ، فلا تثبت فيك شهوة ولا إرادة ؛ كالإناء المنثلم الَّذي لا يثبت فيه مائع وكدر [أَبداً] فتنبو عن الأَخلاق البشريَّة ، فلن يقبل باطنك { ساكناً } غير إرادة الله تعالىٰ . فحينئذٍ يُضاف إِليك التَّكوين وخرق العادات ، فيُرىٰ ذالك منك في ظاهر العقل والحكم ، وهو فعل الله { تعالىٰ } وإرادته حقّاً في العلم ، فتدخل حينئذٍ في زمرة المنكسرة قلوبهم ، الَّذين { كسرت } إراداتهم البشريَّة ، وأُزيلت شهواتهم الطَّبيعيَّة ، وٱستوثقت لهم إرادةٌ ربانيَّة ، وشهوات { إضافيَّة } ، كما قال النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « حُبِّبَ إليَّ مِنَ [الدُّنْيا] ثلاثٌ : النِّساءُ ، والطّيبُ ، وَجُعِلَ قُرَّةَ عَيني في الصَّلاةِ »[1] فأَضيف ذالك إِليه بعد أَنْ خرج منه وزال عنه تحقيقاً لِما أَشرنا إِليه { وتقدَّم } .

قال { الله } عزَّ وجلَّ : (أَنا عِنْدَ ٱلْمُنْكَسِرَةِ قُلوبُهم منْ أَجلي)[2] .

---

(١) أَخرجه النَّسائي في « سننه » برقم ٣٩٣٩ . عن أَنس رضيَ الله عنه . وهو حديث حسن صحيح .

(٢) ذكره القاري في « الأَسرار المرفوعة » برقم ٧٠ ، وقال : قال السَّخاوي : ذكره الغزالي في « البداية » . قلت : وتمامه« . . وأَنا عِنْدَ المُنْدَرِسَةِ قُبورُهُم لأَجلي » . وفي روايات أُخرىٰ : « قلوبهم » بدل « قبورهم » . وتبدو لي أَنَّ هاذه الرِّواية أَصحُّ ، لأَنَّ ٱنكسار القلب هو المرحلة الأُولىٰ في التَّذلُّل إِلىٰ الله تبارك وتعالىٰ ، والغاية الَّتي يمكن أَنْ تنتهيَ إِليها هاذه المرحلة : الاندراس والفناء . فانظر في ذالك وتأمله فإِنَّه ممّا يتَّفق وأُسلوب القوم .

ومهما يكن من أَمرهما فإِنَّهما حديثان موضوعان كما صرَّح بذالك الإمام السَّخاوي والقاري .

٦/أ فالله تعالىٰ / لا يكون عندك حتّىٰ تنكسر جملتك وهواك وإرادتك ، فإذا ٱنكسرت ولم يثبت فيك شيء ، ولم تصلح لشيء { سواه } أنشأكَ له ، فجعل فيك إرادة ، فتريد بتلك الإرادة ، فإذا وجدت في تلك الإرادة المنشأة فيك ، كسرها الرَّبُّ تعالىٰ لوجودك فيها ، فتكون منكسر القلب أبداً ، فهو عزَّ وجلَّ لا يزال يجدِّد فيك إرادة ، ثمَّ يُزيلها { عند } وجودك فيها ، هاكذا إلى أن يبلغ { الكتاب } أجله ، فيحصل اللِّقاء .

فهاذا هو معنىٰ : أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي .

ومعنىٰ قولنا (عند وجودك فيها) : { هو } ركونك وطمأنينتك إليها . قال الله عزَّ وجلَّ في بعض ما يذكره عنه نبيّه صلّىٰ الله تعالىٰ عليه [وعلىٰ آله وأصحابه] وسلَّم : « لا يَزالُ عَبْدِيَ ٱلمُؤْمِنُ يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حَتّىٰ أُحِبَّهُ ، فإذا أَحبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتي يَسْعىٰ بِها »[1] . وفي لفظ آخر « فَبي يَسْمَعُ ، وَبي يُبْصِرُ ، وبي يَبْطِشُ ، وَبي يَعْقِلُ » .

وهاكذا تكون حالة الفناء لا غير ، { وهو أَنْ تفنىٰ عنك } ، فإذا أُفنيتْ عنك وعن الخلق ، والخلق إنَّما هو خير وشرٌّ ، وكذالك أَنت خير وشرٌّ ، فلم ترج خيرهم ولا تخاف شرَّهم ، بقيَ الله عزَّ وجلَّ وحده كما كان قبل أَنْ يخلقك { وحده } ، ففي { قدر } الله خير وشرٌّ ، فيؤمنك من شرِّه ويغرقك في بحارِ خيره ، فتكون وعاء لكلِّ خير ، ومنبعاً لكلِّ نعمة وسرور وحبور ونور وضياء وأَمن وسكون/ . ٦/ب

فالفناء هو المُنىٰ والمُبتغىٰ والمُنتهىٰ وحدٌّ ومردٌّ ينتهي إليه سير الأَولياء ، وهو الاستقامة الَّتي طلبها من تقدَّم من الأَولياء والأَبدال

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » برقم ٦٥٠٢ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

رضيَ الله عنهم ، أَنْ يفنوا عن إرادتهم ، فتُبدَّل بإِرادة الحقِّ عزَّ وجلَّ ، فيريدون بإِرادة الحقِّ أَبداً إِلىٰ الوفاة ، فلهاذا سمّوا أَبدالاً رضيَ الله { تعالىٰ } عنهم .

فذنوب هاؤلاء السّادة أَنْ يشركوا إرادة الحقِّ { عزَّ وجلَّ } بإِرادتهم علىٰ وجه السَّهو والنِّسيان وغلبة الحال والدَّهشة ، فيدركهم الله تعالىٰ برحمته باليقظة والتَّذكرة ، فيرجعون عن ذالك ويستغفرون ربَّهم عزَّ وجلَّ ، إذ لا معصوم عن الإرادة إلاّ الملائكة ، فالملائكة عُصِموا عن الإِرادة ، والأَنبياء عُصِموا عن الهوىٰ ، وبقيّة الخلق من الإنس والجنّ المتكلّفين لم يُعصموا منهما ، غير أَنَّ الأَولياء يُحفظون عن الهوىٰ ، والأَبدال { يحفظون } عن الإرادة ، ولا يُعصَمون منهما ، علىٰ معنىٰ أَنَّه يجوز في حقِّهم الميل إليهما في [بعض] الأَحيان ، ثمَّ يتداركهم الله { عزَّ وجلَّ } باليقظة برحمته .

آفة القلب الهوىٰ

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ٱخرج من نفسك وتنحَّ عنها ، وٱنعزل عن مُلكك ، وسلِّم الكلَّ إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، وكن بوابة علىٰ باب قلبك ، وٱمتثل أَمره عزَّ وجلَّ في إدخال من يأْمرك بإدخاله ، وٱنته بنهيه في صدِّ من يأمرك بصدِّه ، فلا تُدْخِل الهوىٰ قلبك بعد أَنْ { خرج } / ٧/ أ منه ، فإخراج الهوىٰ من القلب بمخالفته ، وترك متابعته في الأَحوال كلِّها . وإدخاله في القلب بمتابعته وموافقته ، فلا تُرِد إرادة غير إرادته عزَّ وجلَّ ، وغير ذالك منك تمنّىٰ وهو وادي الحمقىٰ ، وفيه حتفُك وهلاكُك { وسقوطك } من عينه عزَّ وجلَّ وحجابك عنه .

ٱحفظ أَبداً أَمره ، وٱئته أَبداً نهيه ، وسلِّم { إليه أَبداً } مقدوره ، ولا تشركه بشيء من خلقه ، فإرادتك وهواك وشهواتك خلقه كلّها ، فلا ترد ولا تهوىٰ ولا تشته لئلا تكون مشركاً ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَمَنْ كانَ يَرْجو لِقاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [سورة الكهف : ١٨/ ١١٠] .

ليس الشِّرك عبادة الأَصنام فحسب ، بل هو أَيضاً متابعتك لهواك ، وأَنْ تختار مع ربِّك عزَّ وجلَّ شيئاً سواه من الدُّنيا وما فيها ، { والآخرة وما فيها } فما سواه عزَّ وجلَّ غيره ، فإذا ركنت إلىٰ غيره فقد أَشركت به عزَّ وجلَّ غيره ، فاحذر ولا تركن ، وخَفْ ولا تأمن ، وفتِّش ولا تغفل فتطمئن ، ولا تُضف إلىٰ نفسك حالاً ولا مقاماً ، ولا تَدَّع شيئاً من ذالك ، فإنْ أُعطيت أَو أُقمت في مقام أَو أُطلعت { علىٰ } سرٍّ ، فلا تُخبر أَحداً شيئاً من ذالك ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ كلَّ يوم هو في شأن ، في تغيير وتبديل ، وإنَّه يحول بين المرء وقلبه ، فيُزيلك عمّا أَخبرت به ، ويغيّرك عمّا تخيّلت / ثباته وبقاءه ، فتخجل عند من أَخبرته بذالك ، بل ٱحفظ ذالك فيك ولا تعده إلىٰ غيرك ، فإنْ كان الثَّبات والبقاء ، فتعلم أَنَّه موهبة ، فتشكر { الله تعالىٰ وتسأَله } التَّوفيق للشُّكر ، { والاستزادة منه } . وإنْ كان غير ذالك كان فيه زيادة علم ومعرفةٍ ونورٍ وتيقُّظ وتأديب . قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ما نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ [سورة البقرة : ٢/ ١٠٦] .

٧/ب

فلا تعجز الله { قدره } ، ولا تتَّهمه في تدبيره وتقديره ، ولا تشكَّ في وعده { ووعيده } ، فلتكن لك برسول الله صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم أُسوة { حسنة } .

نُسخت الآيات والسّور النّازلة عليه المعمول بها ، المقروءة في

المحاريب ، المكتوبة في المصاحف { والصُّحف } ، ورفعت وبدِّلت وأُثبت غيرها مكانها ، ونقل صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم إِلىٰ غيرها ، هاذا في ظاهر { الحكم } والشَّرع . وأَمّا في الباطن والعلم والحال فيما بينه وبين الله تعالىٰ ، فكان صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم يقول : « إِنَّهُ لَيُغانُ عَلَىٰ قَلْبي فَأَسْتَغْفِرُ ٱللهَ في كُلِّ يَوْمٍ سَبْعينَ مَرَّةً » وروي « مِئَةُ مَرَّة »[1] .

---

(١) أَخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الذِّكر ٤١ . وأَبو داود في « سننه » برقم ١٥١٥ . كلاهما عن الأَغرِّ الْمُزَنيّ رضيَ الله عنه .

قال المناوي في « فيض القدير » ج٣/١١ : قال الإمام أَبو الحسن الشّاذلي : هاذا غين أَنوار لا غين أَغيار ، لأَنَّه كان دائم التَّرقي ، فكلَّما توالت أَنوار المعارف علىٰ قلبه ٱرتقىٰ إِلىٰ رتبة أَعلىٰ منها ، فيعدُّ ما قبلها كالذنب .

أَي فليس ذالك الغين غين حجاب ولا غفلة كما وهِمَ ، وإِنَّما كان تستغرقه أَنوار التَّجلّيات فيغيب بذالك الحضور ، ثمَّ يسأل الله المغفرة ، أَي ستر ما له عليه ، لأَنَّ الخواصّ لو دام لهم التَّجلّي لتلاشوا عند سلطان الحقيقة ، فالستر لهم رحمة وللعامَّة حجاب ونقمة ، ومن كلمات السُّهروردي : لا ينبغي أَن يُعتقد أَنَّ الغين نقص في حال المصطفىٰ ﷺ بل كمال أو تتمَّة كمال ، وهاذا السِّرُّ دقيق لا ينكشف إلاّ بمثال ، وهو أَنَّ الجفن المُسْبَل علىٰ حدقة البصر وإِنْ كانت صورته صورة نقصان من حيث هو إِسبال وتغطية علىٰ ما يقع به أَنْ يكون ناوياً ، فإِنَّ القصد من خلق العين إدراك الحسيّات ، وذالك لا يمكن إلاّ بانبعاث الأشعَّة الحسّيّة من داخل العين وٱتصالها بالمرئيات عند قوم ، وبانطباع صور المدركات في الكرة الجليدة عند آخرين ، فكيفما ما كان لا يتمُّ المقصود إلاّ بانكشاف العين وعرائها عمّا يمنع ٱنبعاث الأَشعَّة عنها . لاكن لمّا كان الهوىٰ المحيط بالأَبدان الحيوانيَّة قلّما يخلو من الغبار الثّائر تحرِّكه الرِّياح ، فلو كانت الحدقة دائمة الانكشاف تأَذَّت به ، فتغطت بالجفون وقاية لها ومصقلة للحدقة ، فيدوم جلاؤها ، فالجفن وإِنْ كان نقصاً ظاهراً فهو كمال حقيقة . فلهاذا لم تزل بصيرة النَّبيِّ ﷺ متعرِّضة لأَنْ تصدأ بالغبار الثّائر من أنفاس الأَغيار ، فدعت الحاجة إِلىٰ إسبال جفن من العين علىٰ حدقة بصيرته ستراً لها ووقاية وصقالاً عن تلك الأَغيرة المثارة برؤية الأَغيار وأَنفاسها ، فصحَّ أَنَّ الغين وإِنْ كان نقصاً فمعناه كمال وصقال حقيقة .

وكان رسول الله صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم يُنقل من حالة إلىٰ أُخرىٰ فتبدَّل بأُخرىٰ ، ويسير به عليه الصَّلاة والسَّلام في منازل القرب وميادين الغيب ، وتُغيَّر عليه الخلع والأَنوار ، فتبين الحالة الأُولىٰ عندما يليها ظلمة ونقصاناً ، / ومنه تقصيراً في حفظ الحدود ـ أَي تواضعاً منه صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم ـ ، فيلقَّن الاستغفار ، لأَنَّه أَحسن حال العبد وأَليق به في سائر الأَحوال ، لأَنَّ فيه اعترافاً بذنبه وقصوره ، وهما صفة العبد في سائر الأَحوال ، فهما وراثة من أَبي البشر آدم [عليه الصَّلاة والسَّلام] للمصطفىٰ عليه [الصَّلاة] والسَّلام حين اعتورت صفاء { حالته } ظلمة النِّسيان للعهد والميثاق ، وإِرادة الخلود في دار السَّلام ومجاورة الحبيب الرَّحمان المنّان ، ودخول الملائكة الكرام عليه بالتَّحيَّة والسَّلام ، فوجدت هناك نفسه مشاركة إرادته لإِرادة الحقِّ عزَّ وجلَّ ، فانكسرت لذالك تلك الإِرادة ، وزالت تلك الحالة ، وانعزلت تلك الولاية ، وأُهبطت تلك المنزلة ، وأُظلمت تلك الأَنوار ، وتكدَّر ذالك الصَّفاء ، ثمَّ نُبِّه عليه [الصَّلاة] والسَّلام وذكِّر بصفى الرَّحمان ، فعرف الاعتراف بالذَّنب والنِّسيان ، ولقِّن الإِقرار بالقصور فقال عليه [الصَّلاة] والسَّلام : ﴿ . . رَبَّنا ظَلَمْنا أَنفُسَنا وَإِن لَمْ تَغْفِرْ لَناوَتَرْحَمْنا لَنَكونَنَّ مِنَ ٱلخاسِرين ﴾ [سورة الأَعراف : ٧/ ٢٣] .

فجاءته أَنوار الهداية وعلوم التَّوبة ومعارفها ، والمصالح المدفونة فيها ، ما كان غائباً من قبل فلم يظهر إِلاَّ بها ، فبدِّلت تلك الإِرادة بغيرها ، والحالة الأُولىٰ بأُخرىٰ ، وجاءته الولاية الكبرىٰ والسُّكون في الدُّنيا ، ثمَّ في العقبىٰ ، / فصارت الدُّنيا له ولذريَّته منزلاً ، والعقبىٰ لهم موئلاً ومرجعاً وخُلداً .

٨/ أ

٨/ ب

{ قال الله تعالىٰ : ﴿ ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتي بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها . . ﴾ [سورة البقرة ٢/ ١٠٦] } .

فلك برسول الله صلّىٰ الله تعالىٰ عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم محمَّد الحبيب المصطفىٰ ، وأَبيه آدم صفيِّ الله ، عنصر الأَحباب والأَخلاء؛ أُسوة في الاعتراف بالقصور والاستغفار في الأَحوال كلِّها ، والذِّلَّة والافتقار فيها . صلّىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ [آله وأَصحابه] وسلَّم .

أفضل المنازل ما ارتضاه الخالق

قال رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه : إذا كنتَ في حالةٍ لا تختر غيرها ، لا أَعلىٰ منها ولا أَدنىٰ . فإذا كنتَ علىٰ باب دار المَلِك لا تختر الدُّخول إلىٰ الدّار حتّىٰ تُدْخَلَ إليها جبراً لا اختياراً ـ أَعني بالجبر : أَمراً عنيفاً { منكراً } متكرِّراً ـ ولا تقنع بمجرَّد الإذن في الدُّخول ، لجواز أَنْ يكون ذالك مكراً وخديعة من المَلِك ، لاكن اصبر حتّىٰ تُجبر علىٰ الدُّخول ، فتدخل الدّار جبراً محضاً وفعلاً من المَلِك ، فحينئذٍ لا يعاقبك المَلِك علىٰ فعله ، إنّما تتطرَّق العقوبة نحوك لشؤم تخيُّرك { وطلبك } وشرهك ، وقلَّة صبرك وسوء أَدبك ، وترك الرِّضا بحالتك الَّتي أُقِمت فيها ، فإذا حصلت ودخلت في الدّار علىٰ هاذا الوجه فكُن مطرقاً غاضّاً لبصرك متأَدِّباً ، محافظاً لِما تؤمر به من الشُّغل والخدمة فيها ، غير طالب للتَّرقي إلىٰ الذُّروة العُليا . قال الله تعالىٰ لنبيّه المصطفىٰ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم : ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلىٰ مامَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلحَياةِ ٱلدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقىٰ ﴾ [سورة طه ٢٠/ ١٣١] . فهاذا تأديب منه عزَّ وجلَّ لنبيّه { المصطفىٰ } المختار / في ٩/ أ حفظ الحال والرِّضا بالعطاء بقوله { تعالىٰ } : ﴿ . . وَرِزْقُ رَبِّك خَيْرٌ

وَأَبْقىٰ ﴾ ، أَي ما أَعطيتك من الخير والنُّبوَّة ، والعلم والقناعة والصَّبر ، وولاية الدّين والقدوة فيه ، أَولىٰ ممّا { أُعطيَ غيرك } وأَحرىٰ .

فالخير كلُّه في حفظ الحال والرِّضا بها وترك الالتفات إِلىٰ ما سواها ، لأَنَّه لا يخلو إِمّا أَنْ يكون ذالك من قَسْمِك أَو قَسْم غيرك ، أَو أَنَّه لا قسم لأَحد ، بل أَوجده الله فتنة . فإِنْ كان قَسْمُك فهو واصل إِليك شئت أَم أَبيت ، فلا ينبغي أَن يظهر منك سوء الأَدب والشَّرة في طلبه ، فإِنَّ ذالك غير محمود في قضية العقل والعلم ، وإِنْ كان قَسْم غيرك فلا تتعب فيما لا تناله ولا يصل إِليك أَبداً ، وإِن كان ليس بقَسْمٍ لأَحد بل هو فتنة ، فكيف يرضىٰ العاقل ويستحسن أَن يطلب لنفسه فتنة ويستجلبها لها ؟ فقد ثبت أَنَّ الخير كلَّه والسَّلامة في حفظ الحال .

فإِذا رقيت إِلىٰ الغرفة ثمَّ إِلىٰ السَّطح فكُن كما ذكرنا من التَّحفُّظ والإِطراق والأَدب ، بل يتضاعف ذالك منك ، لأَنَّه أَقرب إِلىٰ المَلِك وأَدنىٰ { من } الخطر ، ولا تتمنّىٰ الانتقال منها إِلىٰ أَعلىٰ منها ولا إِلىٰ أَدنىٰ ، ولا ثباتها ولا بقاءها ، ولا تغير وصفها وأَنت فيها ، ولا يكون لك في ذالك ٱختيار أَلبتة ، فإِنَّ ذالك يكون كفراً لنعمة الحال ، والكفر يُحِلّ { بصاحبه } الهوان في الدُّنيا والآخرة .

٩/ب فاعمل علىٰ ما ذكرنا أَبداً حتّىٰ ترقىٰ إِلىٰ حالة تصير/ {لك} مقاماً، تُقام فيه ولا تُزال عنه، فتعلم حينئذٍ أَنَّه لك موهبة بعلامات وآيات تظهر فتمسكه {ولا تزول} عنه، فالأَحوال للأَولياء ، والمقامات للأَبدال.

أهابك حبّاً وإجلالاً

قال رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه : ينكشف للأَولياء والأَبدال من

أَفعال الله عزَّ وجلَّ ما يُبهر العقول ويخرق العادات والرُّسوم .

{ وهي } علىٰ قسمين : جلال وجمال .

فالجلال والعظمة يورِثان الخوف المُقْلِق والوجَل المزعج ، والغلبة العظيمة علىٰ القلب بما يظهر علىٰ الجوارح ، كما رُوِيَ عن النَّبيّ صلّىٰ الله تعالىٰ عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم : كان يُسْمَعُ من صدره أزيزاً كَأَزير المرجل في الصَّلاة[1] من شدَّة الخوف لِما يرىٰ من جلال الله عزَّ وجلَّ ، وينكشف له عن عظمته . ونُقِلَ مثل ذالك عن إبراهيم خليل الرَّحمن { صلوات الله عليه ، وعن أَمير المؤمنين } عمر الفاروق رضيَ الله عنه .

وأَمّا مشاهدة الجمال : فهو التَّجلّي للقلوب بالأَنوار والسُّرور والأَلطاف والكلام اللَّذيذ والحديث الأَنيس ، والبشارة بالمواهب الجسام والمنازل العالية ، والقُرب منه عزَّ وجلَّ ممّا سيؤول أَمرهم إِليه ، وجفَّ به القلم من أَقسامهم في سابق الدُّهور فضلاً منه ورحمة ، وإِيثاباً منه لهم في الدُّنيا إِلىٰ بلوغ الأَجل وهو الوقت المقدَّر ، لئلا يفرط بهم المحبَّة من شدَّة { شوقهم } إِليه عزَّ وجلَّ { فتنفطر مرائرهم } ، فيهلكوا / ، أَو يضعفوا ١٠/أ عن القيام بالعبوديّة إِلىٰ أَن يأتيهم اليقين الَّذي هو الموت ، فيفعل ذالك بهم لطفاً منه ورحمة ومداواة ، وتربية لقلوبهم ومداراة لها ، إِنَّه حكيم عليم ، لطيف بهم ، رؤوف رحيم .

ولهاذا رُوِيَ عن النَّبيّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه

---

(١) أَخرجه النَّسائي في « سننه » برقم ١٢١٤ ، عن مطرف ، عن أَبيه قال أَتيت رسول الله ﷺ وهو يُصَلّي ولجوفه أَزيزٌ كأَزيز المِرْجَل ـ يعني يبكي . والمرجل : الإِناء الَّذي يُغلىٰ فيه الماء .

وسلَّم أَنَّه كان يقول لبلال المؤذِّن رضيَ الله عنه : « أَرِحْنا { بها } يا بِلال »[1] ، يعني : بالإقامة ، { ليدخل } في الصَّلاة لمشاهدة ما ذكرنا من الجمال ، ولهاذا قال { النَّبيُّ } صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه و[علىٰ] آله وأَصحابه وسلَّم : « وَجُعِلَتْ قُرَّة عَيْني في الصَّلاة »[2] .

وخالِف النَّفس والهوىٰ وآعصِهما

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : إنَّما هو الله عزَّ وجلَّ ونفسك وأَنت المخاطب ، والنَّفس ضدُّ الله { وعدوّته } ، والأَشياء كلُّها تابعة لله { عزَّ وجلَّ } ، والنَّفس { فهي } لله { عزَّ وجلَّ } خلقاً وملكاً حقيقة ، وللنَّفس إدعاء وتمنٍّ وشهوة ولذَّة بملابستها .

فإذا وافقتَ الحقَّ عزَّ وجلَّ في مخالفة النَّفس وعداوتها فكنتَ لله خصماً علىٰ نفسك ، كما قال الله عزَّ وجلَّ لداود عليه [الصَّلاة] والسَّلام : (يا داود العبوديَّة أَنْ تكون لي خصماً علىٰ نفسك) ؛ فتحقَّقتْ حينئذٍ موالاتك لله عزَّ وجلَّ وعبوديَّتك له عزَّ وجلَّ ، وأَتتك الأَقسام هنيئاً مريئاً مطيّباً وأَنت عزيزٌ مكرَّمٌ ، وخدمتك الأَشياء وعظَّمتك وفخَّمتك ، لأَنَّها بأَجمعها تابعة لربِّها { عزَّ وجلَّ } ، موافقة له ، إذ هو خالِقها ومنشئِها ، / وهي مُقرَّةٌ له بالعبوديَّة . ١٠/ب

قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِنْ مِن شَيءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلاكِن لاَّ تَفْقَهونَ تَسْبيحَهُمْ { إِنَّهُ كانَ حَليماً غَفوراً } ﴾ [سورة الإسراء

---

(١) قطعة من حديث . أَخرجه الطبراني في « الكبير » برقم ٦٢١٥ ، عن عبد الله بن محمَّد وهو حديث ضعيف واهي الإسناد .

(٢) تقدَّم تخريجه ، ص ٥٧ وهو حديث حسن صحيح .

٠٦/١٧] ، أي تذكره وتعبده ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ .. فَقالَ لَها وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعين ﴾ [سورة فصِّلت ١١/٤١] .

فالعبادة كلُّ العبادة في مخالفتك لنفسك وهواك ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبيلِ الله .. ﴾ [سورة ص ٢٦/٣٨] وقال الله تعالىٰ لداود عليه الصَّلاة والسَّلام : (ٱهجر هواك فإنَّه لا منازع ينازعني في ملكي غير الهوىٰ) .

والحكاية المشهورة عن أَبي يزيد البسطامي ـ رضيَ الله عنه ـ لمّا رأىٰ ربَّ العزَّة في المنام فقال له : كيف الطَّريق إليك يا بارْ خُدايا[1] ؟ قال : ٱترك نفسك وتعالَ ، فقال أَبو يزيد ـ رحمة الله تعالىٰ عليه ـ : فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحيَّةُ من جلدها[2] .

فإذن ثبت أَنَّ { الخير كلَّه } في معاداتها في الجملة في الأَحوال كلِّها ، فإنْ كنتَ في حال التَّقوىٰ فخالف { نفسك } ، بأَنْ تخرج من حرام الخلق وشُبهِهم ومننهم ، والاتّكال عليهم ، والثِّقة بهم ، والخوف منهم ، والرَّجاء { لهم } ، والطَّمع فيما عندهم من حطام الدُّنيا ، فلا ترجو عطاءَهم علىٰ طريق الهديَّة والزَّكاة أَو الصَّدقة أَو الكفّارة أَو النَّذر ، فاقطع همَّك منهم في سائر الوجوه والأَسباب ، حتّىٰ إِنْ كان لك نسيب ذو مال لا تتمنّىٰ موته لترث مالَه .

فاخرج من الخلق جداً وٱجعلهم كالباب يُرَدُّ / ويفتح ، وشجرة ١١/أ توجد فيها ثمرة تارة وتحيل أُخرىٰ . كلُّ ذالك بفعل فاعل وتدبير مدبِّر ،

---

(١) كلمة فارسيَّة ، معناها : يا إلاهيَ العظيم .

(٢) مجموع الفتاوىٰ ، ج١٠/٥١٨ .

وهو الله عزَّ وجلَّ ، فإذا صحَّ لك هاذا كنت موحِّداً للرَّبِّ عزَّ وجلَّ .

ولا تنسَ مع ذالك كسبهم لتتخلَّص من مذهب الجبريَّة[1] ، وٱعتقد أَنَّ الأَفعال لا تتمُّ بهم دون الله تعالىٰ لكيلا تعبدهم وتنسىٰ الله ، ولا تَقُلْ فعلهم دون فعل الله فتكفر فتكون قدريّاً[2] . ولاكن قُلْ هي لله خلقاً وللعباد كسباً كما جاءت به الآثار[3] ، ولبيان موضع الجزاء من الثَّواب والعقاب .

وٱمتثل أَمر الله { تعالىٰ } فيهم ، وخلِّص قَسْمُك منهم بأَمره ولا تجاوزه ، فحكم الله قائم يحكم عليك وعليهم ، فلا تكن أَنت الحاكم ، وكونك معهم قدرٌ ، والقدرُ ظلمة ، فادخل في الظُّلمة بالمصباح وهو { الحَكَمُ } وكتاب الله وسنَّة رسوله ، فلا تخرج عنهما ، فإِنْ خطر خاطر أَو وجد إِلهام فاعرضهما علىٰ الكتاب والسُّنَّة ، فإذا وجدت فيهما تحريم ذالك مثل أَنْ تُلهم بالزِّنا أَو الرِّبا أَو مخالطة أَهل الفسق والفجور وغير ذالك من المعاصي ، فادفعه عنك وٱهجره ولا تَقْبَله { ولا تعمل } به ، وٱقطع بأَنَّه من الشَّيطان اللَّعين . فإنْ وجدت فيهما

---

(١) هم قوم ٱعتقدوا أَلاّ كسب للعبد ولا ٱختيار ، وأَنَّه مجبور علىٰ الفعل ومقسور علىٰ العمل ، كالرِّيشة المعلَّقة في الهواء . وعلىٰ مذهبهم لا قدرة للإنسان ، وإِنَّما تصدر الأَفعال بقدرة الله فقط . وهاذا خلاف عقيدة أَهل السُّنَّة والجماعة ، ولجلاء الأَمر راجع كتاب « العقيدة الإسلاميَّة وأُسسها » للدكتور عبد الرَّحمان حبنكة الميداني .

(٢) هم قوم ٱعتقدوا بأَنَّ العبد موجدٌ وخالق لفعله الاختياري ، وأَنَّ الله تعالىٰ قد فوَّض الأَمر إِليه ، فيفعل ما يشاء ، وأَنَّ الأَفعال تصدر بقدرة العبد فقط . وللاستزادة والتوضيح راجع كتاب « العقيدة الإسلاميَّة وأُسسها » للدُّكتور عبد الرَّحمان حبنكة الميداني .

(٣) هاكذا جاءت الآثار عن السَّلف الصَّالح والمتقدِّمين من العلماء . راجع كتاب شرح العقيدة الطَّحاويَّة ، وشرح الواسطيَّة وغيرهما .

إِباحة كالشَّهوات المباحة من الأَكل والشُّرب واللِّبس والنِّكاح فاهجره أَيضاً ولا تَقْبَله ، وٱعلم أَنَّه من إِلهام النَّفس وشهواتها ، وقد أُمرت بمخالفتها وعداوتها .

وإِنْ لم تجد في الكتاب / والسُّنَّة تحريمه ولا إِباحته ، بل هو أَمر ١١/ب لا تعقله مثل أَنْ يقال ٱئت موضع كذا وكذا ، إِلقَ فلاناً { الصَالح } ، ولا حاجة لك هناك ولا في الصّالح لاستغنائك عنه بما أَولاك الله عزَّ وجلَّ من نعمه ، من العلم والمعرفة ، فتوقَّف في ذالك ولا تُبادر إِليه ، فتقول هل هاذا إِلهام من الحقِّ عزَّ وجلَّ فأَعملُ به ؟ بل ٱنظر الخير في ذالك وفعل الحقِّ عزَّ وجلَّ ، بأَنْ يتكرَّر ذالك الإِلهام وتؤمر بالسَّعي ، أَو علامة تظهر لأَهل العلم بالله عزَّ وجلَّ يعقلها العقلاء من الأَولياء ، والمؤيَّدون من الأَبدال ، وإِنَّما لم تتبادر إِلىٰ ذالك لأَنَّك لا تعلم عاقبته وما يؤول الأَمر إِليه ، وما كان فيه فتنة وهلاك ومكر من الله عزَّ وجلَّ وٱمتحان . { فاصبر } حتّىٰ يكون هو عزَّ وجلَّ الفاعل فيك .

فإِذا تجرَّد الفعل وحُملت إِلىٰ هناك وٱستقبلتك فتنة ، كنت محمولاً محفوظاً فيها ، لأَنَّ الله تعالىٰ لا يعاقبك علىٰ فعله ، وإِنَّما تتطرَّق العقوبة نحوك لكونك في الشَّيء ، وإِنْ كنتَ في حالة الحقيقة وهي حالة الولاية فخالف هواك وٱتَّبع الأَمر في الجملة .

وٱتِّباع الأَمر علىٰ قسمين :

أَحدهما : أَنْ تأخذ من الدُّنيا القوت الَّذي هو حقُّ النَّفس ، وتترك الحظَّ ، وتؤدّي الفرض ، وتشتغل بترك { الذُّنوب } ما ظهر منها وما بطن .

والقسم الثّاني : ما كان { بأَمرٍ } باطنٍ ، وهو أَمر الحقِّ عزَّ وجلَّ ،

١٢/أ { يأمر عبده } وينهاه ، وإنّما / يتحقّق هاذا الأمر في المباح الّذي ليس له حكم في الشّرع ، علىٰ معنىٰ أنّه ليس من قبيل { النّهي } ولا من قبيل الأَمر الواجب ، بل هو مهمل ، تُرِكَ العبد يتصرّف فيه باختياره ، فيسمّىٰ مباحاً ، فلا يُحدث العبد فيه شيئاً من عنده ، بل ينتظر الأَمر فيه ، فإذا أُمر ٱمتثل ، فتصير { جميع } حركاته وسكناته بالله عزَّ وجلَّ ، ما في الشّرع حُكْمُه فبالشرع ، وما ليس له حكم في الشّرع فبالأَمر الباطن ، فحينئذٍ يصير محقّاً من أَهل الحقيقة ، وما ليس فيه أَمر باطن فهو مجرّد الفعل حالة التّسليم .

وإنْ كنت في حالة حقِّ الحقِّ { عزَّ وجلَّ } ، وهي حالة المحو والفناء ، وهي حالة الأَبدال ، والمنكسري القلوب لأَجل الحقِّ عزَّ وجلَّ ، الموحِّدين العارفين ، أَرباب العلوم والعقل ، السّادة الأُمراء الشحن خفراء الخلق ، خلفاء الرّحمان وأَخلاؤه وأعيانه وأَحبّائه عليهم السّلام ، فاتّباع الأَمر فيها بمخالفتك إيّاك بالتّبرّي من الحول والقوّة ، [وأَلاّ] يكون لك إرادة وهمّة في شيء أَلبته دنيا وعقبىٰ ، فتكون عبد المَلِك لا عبد المُلْك ، وعبد الأَمر لا عبد الهوىٰ ؛ كالطِّفل { الرّضيع مع } الظِّئر ، والميت { الغسيل } مع الغاسل ، والمريض المقلوب علىٰ جنبيه { بين يدي } الطّبيب ، فيما سوىٰ الأَمر والنّهي .

أَخمد شهوتكَ وإلاّ أَحرقتكَ !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : إذا أُلقيتْ عليك شهوة النّكاح في حالة الفقر ، وعجزت عن مؤنته ، فصبرت عنه ، منتظراً للفَرَج من ١٢/ب الباري عزَّ وجلَّ إمّا بزوالها وإقلاعها عنك بقدرته الّتي أَلقاها عليكَ / وأَوجدها فيك ، فيعينك ويصونك عن حمل مؤنتها أَيضاً أَو إيصالها إليك

موهبة مهنئاً مكفاً من غير ثقل في الدُّنيا ولاتبعة في العقبىٰ .

سمَّاك { الله } عزَّ وجلَّ شاكراً لصبرك عنها وراضياً بقَسْمِهِ ، وزادك عصمة وقوَّة ، فإِنْ كانت { قسمتك } ساقها إِليك مكفّاً مهنئاً ، فينقلب الصَّبر شُكراً ، { لأَنَّه } عزَّ وجلَّ وعد الشّاكرين بالزّيادة في العطاء ، قال عزَّ وجلَّ : ﴿ . . لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [سورة إبراهيم ١٤/ ٧] .

{ وإِنْ } لم تكن قَسْماً لك ، فالغنىٰ عنها بقلعها من القلب إِنْ شاءت النَّفس أَو أَبت .

فلازم الصَّبر وخالف الهوىٰ ، وعانق الأَمر وٱرضَ بالقضاء ، وٱرجُ بذالك الفضل والعطاء ، وقال جلَّ وعلا : ﴿ . . إِنَّمَا يُوَفَّىٰ الصّابِرونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِساب ﴾ [سورة الزُّمر ٣٩/ ١٠] .

لا تشغلك النِّعمة عن المُنعِم

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : إِذا أَعطاك الله { عزَّ وجلَّ } مالاً فاشتغلت به عن طاعته ، حجبك به عنه دنيا وأُخرىٰ ، وربَّما سلبك إِيّاه { وعثرك } وأَفقرك عقوبة لك لاشتغالك بالنِّعمة عن المُنعِم ، وإِنْ ٱشتغلت بطاعته عزَّ وجلَّ عن المال جعله لك موهبة ، ولم ينقص منه حبَّة واحدة ، ويكون المال خادمك وأَنت خادم المولىٰ ، فتعيش في الدُّنيا مدلَّلاً ، وفي العقبىٰ مكرَّماً مطيَّباً ، في جنَّة المأوىٰ مع الصِّدّيقين والشُّهداء والصّالحين .

الخَيْرُ ما ٱختاره الله

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : لا تختر جلب النَّعماء ولا دفع البلوىٰ .

١٣/أ **فالنّعماء** / **واصلة إليك** إنْ كانت قَسْمُك { آستحليتها } أَو كرهتها .

والبلوىٰ **حالة بك** إنْ كانت قَسْمُك مقضية عليك سواء كرهتها أَو دفعتها **عنك بالدُّعاء** ، أَو صبرت وتجلَّدت لرضىٰ المولىٰ . بل سلِّم في **الكلِّ** ، **فيفعل** الفعل فيك .

فإِنْ كانت النَّعماء فاشتغل بالشُّكر ، وإِنْ كانت البلوىٰ فاشتغل بالتَّصبُّر أَو الصَّبر ، أَو الموافقة والرِّضا أَو التنعُّم بها أَو العدم والفناء فيها ، علىٰ قدر ما تُعطىٰ من الحالات ، فتنقل فيها ، وتسير في المنازل في طريق المولىٰ ، الَّذي أُمرت بطاعته والموالاة ، وتُقطع بك الفيافي والمفاوز[1] والبراري إلىٰ المقامات ، لتصِل إلىٰ الرَّفيق الأَعلىٰ ، { فتقام } حينئذٍ مقام من تقدَّم ومضىٰ من الصِّدّيقين والشُّهداء والصّالحين ـ أَعني به قرب العليّ الأَعلىٰ ـ لتعاين مقام من سبقك إلىٰ المليك ومنه دنا ، ووجد عنده كلَّ ظريفة جزياً وسروراً وأَمناً وكرامة ، ونعماً .

دع البليَّة تَزُرك ، خلِّ عنه سبيلها ، ولا تقف بدعائك في وجهها ، ولا تجزع من مجيئها وقربها ، فليس نارها أَعظم من نار جهنَّم [ولظاها] ، وقد ثبت في الخبر المرويّ عن خير البريَّة وخير من أَقلَّتْه الأَرض وأَظلَّتهُ السَّماء محمَّد المصطفىٰ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « إِنَّ نارَ جَهَنَّمَ تَقولُ لِلمؤمِن جُزْ يَا مُؤمِنُ فَقَدْ أَطْفَأَ نورُكَ لَهَبي »[2] . فهل كان نور المؤمن الَّذي أَطفأَ لهب النّار في اللَّظىٰ ، إلاّ

---

(١) وهي الصَّحراء الواسعة الَّتي لا ماء فيها .

(٢) أَخرجه الطبراني في « الكبير » ج٢٢/٢٥٨ ـ ٢٥٩ ، عن يعلىٰ بن منية ، ورواه أَبو نعيم في «الحلية»، ج٩/٣٢٩. وذكره القرطبي في «التَّذكرة»، ص٣٤، كلَّهم من طريقين عن بشير بن طلحة، عن خالد بن دريك، عن يعلىٰ بن منية، وبشير بن طلحة ضعيف، وخالد بن دريك لم يسمع من يعلىٰ بن منية، فهو حديث ضعيف منقطع .

النّور / الَّذي صحبه في الدُّنيا ، الذَّي تميَّز به من { بين } من أَطاع ١٣/ب وعصىٰ .

فليطفئ هاذا النّور لهب البلوىٰ ، وليُخمد برد صبرك وموافقتك المولىٰ وهجَ ما حلَّ بك من ذالك ومنك دنا .

فالبليّة لم تأتك لتُهلِكك ، ولكنَّها تأتيك { لتختبرك } وتحقّق صحَّة إيمانك ، وتؤيّد قاعدة يقينك ، ويبشِّرك باطنها من مولاك بمباهاته بك .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلوَنَّكُمْ حَتّىٰ نَعْلَمَ الْمُجاهِدينَ مِنكُمْ وَالصّابِرينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبارَكُمْ ﴾ [سورة محمَّد ٤٨/ ٣١] .

فإذا ثبتَ مع الحقِّ بإيمانك ووافَقْتَه في فعله بيقينك ، كلُّ ذالك بتوفيق منه وفضل { ومِنَّة } ، فكُن حينئذٍ { له } أَبداً صابراً موافقاً مسلِّماً ، لا تحدث فيك ولا في غيرك حادثة ما خرج عن الأَمر والنَّهي ، فإذا جاء أَمره عزَّ وجلَّ فتابع وتُسارع وتجلَّد وتقاوىٰ وتحرك ولا تسكن ، ولا تسلِّم للقدر والفعل ، بل ٱبذل طوقك ومجهودك لتؤدّي الأَمر ، فإنْ عجزت فدونك التَّضرُّع والالتجاء إلىٰ مولاك عزَّ وجلَّ ، فالتجئ إليه وتضرَّع وٱعتذر ، وفتِّش عن سبب عجزك عن أَداء أَمره عزَّ وجلَّ وصدِّك عن التَّشرُّف بطاعته ، ولعلَّ ذالك لشؤم دعائك وسوء أَدبك في طاعته ، ورعونتك وٱتّكالك علىٰ حولك وقوَّتك ، وإِعجابك بعلمك ، وشركك إِيّاه { عزَّ وجلَّ } بنفسك وبخلقه . فصدَّك عن بابه ، وعزلَكَ عن طاعته وخدمته ، وقطعَ عنك مدد توفيقه ، وولّىٰ عنك وجهه الكريم ، ومقتَك وقلاك[1] ، وشغلك ببلائك ودنياك وهواك وإِرادتك ومناك .

(١) أَي : بغضك وكرهك أشدَّ الكُره .

١٤/أ أَما تعلم / أَنَّ كلَّ ذالك مشغلك عن مولاك ، ومُسْقِطك عن عين الَّذي خلقك وربّاك ، وخوّلك وأَعطاك وحباك .

ٱحذر لا يلفتك عن مولاك غير مولاك ، كلُّ من سوىٰ مولاك غيره فلا تُؤْثِر عليه غيره ، فإِنَّه خلقك له ، فلا تظلم نفسك فتشتغل بغيره عن أَمره ، فيُدخلك نارَه الَّتي وقودها النّاس والحجارة فتندم ، فلا ينفعك النَّدم ، وتعتذر فلا تُعذر ، وتستغيث فلا تُغاث ، وتستعتب فلا { تعتب } ، وتسترجع إِلىٰ الدُّنيا لتستدرك وتُصْلِح فلا ترجع .

ٱرحم نفسك وأَشفق عليها ، ٱستعمل الآلات والأَدوات الَّتي أُعطيتها في طاعة مولاك ، من العقل والإِيمان والمعرفة والعلم . لتستنير بنورهما في ظلمات الأَقدار ، وتمسَّك بالأَمر والنَّهي ، وسر بهما في طريق مولاك ، وسلِّم ما سواهما إِلىٰ الَّذي خلقك وأَنشأَك ، { فلا تكفر بالَّذي خلقك من تراب وربّاك ، ثمَّ من نطفة ، ثمَّ رجلاً سوّاك } ، فلا ترد غيره أَمره ، ولا تكره غير نهيه .

ٱقتنع من الدُّنيا والأُخرىٰ بهاذا المراد ، وٱكره فيهما هاذا المكروه ، فكلّ ما يُراد تبع لهاذا المراد ، وكلّ ما يُكره تبع لهاذا المكروه .

إِذا كنت مع أَمره كانت الأَكوان في أَمرك ، وإِذا كرِهت نهيه فرَّت منك المكاره أَين كنت وحللت .

قال الله عزَّ وجلَّ في بعض كتبه : (يا ٱبنَ آدم أَنا الله لا إِله إِلاّ أَنا ، أَقول للشيء كن فيكون ، أَطعني أَجعلك تقول للشيء كن فيكون) ، وقال { الله } عزَّ وجلَّ : (يا دنيا من خدمني فاخدميه ، ومن خدمك فأَتعبيه)[1] { ٱخدمي من خدمني ، وٱستخدمي من خدمك } .

---

(١) ذكره الفتني في « تذكرة الموضوعات » ، ص١٧٥ وقال : موضوع . وهو ليس بحديث قدسي ، إِنَّما هو من كلام ابن عيينة كما صرَّح بذالك المناوي في « فيض القدير » ج٢/ ٣٠٥ .

فإذا جاء نهيه عزَّ وجلَّ فكُن كأنَّك مسترخيَ المفاصل / ، مسكَّن ١٤/ب الحواس ، منجزع الجنان ، مضيق الذَّرع ، متماوت الجسد ، زائل الهوىٰ ، منطمس الرُّسوم ، ممتحي { الرُّسوم } ، منسيَ الأَثر ، مظلم الفِنا ، متهدِّم البناء ، خاوي البيت ، ساقط العرش ، لا حسّ ولا أَثر ، فليكن سمعك كأَنَّه أَصم وعلىٰ ذالك مخلوق ، وبصرك كأَنَّه معصَّب ومرمود أَو أَكمه مطموس ، وشفتاك كأَنَّ بهما قرحة وبُثوراً[1] ، ولسانك كأَنَّ به خرساً وكلولاً ، وأَسنانك كأَنَّ بهما ضرباً وأَلاماً وثبوراً[2] ، ويداك كأَنَّ بهما شللاً وعن البطش قصوراً ، ورجلاك كأَنَّ بهما رعدة وآرتعاشاً وجروحاً ، وفرجك كأَنَّ به عِنَّة وبغير ذالك الشّأن مشغولاً ، وبطنك كأَنَّ به آمتلاء وآرتواء وعن الطَّعام غنىٰ ، وعقلك { فكأَنَّك } مجنون { ومخبول } ، وجسدك فكأَنَّك ميّت وإِلىٰ القبر محمول ، فالتَّسامع والتَّسارع في الأَمر ، والتَّقاعد والتَّقاصر في النَّهي ، والتَّماوت والتَّقادم والتَّفاني في القدر .

فاشرب هاذه الأَشربة ، وتداوىٰ بهاذا { الدَّواء } ، وتغذّىٰ بهاذا الغِذاء ، تنجع وتَشفىٰ ، وتُعافىٰ من أَمراض الذُّنوب وعلل الأَهواء ، بإِذن الله { تعالىٰ } ، إِنْ شاء الله تعالىٰ .

وفي ذالك فليتنافس المتنافسون

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : لا تدع حالة القوم يا صاحب { النَّفس } والهوىٰ ، أَنت تعبد الهوىٰ وهم عبيدُ المولىٰ ، أَنت رغبتك

---

(١) البَثْرُ : ما يظهر علىٰ الوجه والجلد من خُرّاج أَو قروح .

(٢) أي هالكة تالفة .

في الدُّنيا ورغبة القوم في العُقبىٰ ، أَنت ترىٰ الدُّنيا وهم يرون ربَّ الأَرض والسَّماء ، أَنت أُنسُكَ بالخلق وأُنسُ القوم بالحقِّ ، أَنت قلبك متعلِّق / ١٥/أ بمن في الأَرض وقلوب القوم متعلِّقة بربِّ العرش ، أَنت يصطادك من ترىٰ وهم لا يرون من ترىٰ ؛ بل يرونَ خالق الأَشياء وما يرىٰ ، فاز القوم وحصلت لهم النَّجاة ، وبقيتَ أَنتَ مُرتَهَنٌ بما تشتهي من الدُّنيا وما تهوىٰ ، فالقومُ فنوا عن الخلق والهوىٰ والإرادة والمُنىٰ ، فوصلوا إلىٰ المليك الأَعلىٰ ، فأَوقفهم علىٰ غاية ما رام منهم من الطّاعة والحمد والثَّناء ، ذالِك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فلازموا ذالك وواظبوا بتوفيق منه وتيسير بلا عناء .

فصارت الطّاعة لهم روحاً وغذاء ، وصارت الدُّنيا إذ ذاك في حقِّهم نعمةً وجزيا ، فكأَنَّها لهم جنَّة المأوىٰ ، إذ ما يرون شيئاً من الأَشياء حتّىٰ يروا قبله فعل الله تعالىٰ الَّذي خلقَ وأَنشأَ ، فبهم ثبات الأَرض والسَّماء ، وقرار الموتىٰ والأَحياء ، إذ جعلَهُم مليكُهُم أَوتاد الأَرض الَّذي دحا ، فكلٌّ كالجبل الَّذي رسا ، فتنحَ عن طريقهم ولا تزاحم من لم يقيده عن قصده الآباء والأَبناء ، فهم خيرُ مَنْ خلقَ ربّي وبثَّ في الأَرض وذرأَ ، فعليهم سلام الله وتحيّاته وبركاته ما دامت السَّماوات والأَرضين .

جناحا الإيمان خوفٌ ورجاء

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : رأيت في المنام كأَنّي في موضع شبه مسجد ، وفيه قومٌ منقطعون ، فقلت : لو كان لهاؤلاء فلان يؤدِّبهم ويرشدهم . فأَشرت إلىٰ رجل من الصّالحين فاجتمع القوم

حولي ، فقال واحد منهم / : فأَنت لِمَ لا تتكلَّم ؟ فقلت : إنْ رضيتموني ١٥/ب لذالك .

ثمَّ قلت : إذا ٱنقطعتم عن الخلق إلىٰ الحقِّ عزَّ وجلَّ فلا تسألوا النّاس شيئاً بأَلسنتكم ، فإذا تركتم ذالك فلا تسألوهم بقلوبكم ، فإِنَّ السّؤال بالقلب كالسّؤال باللِّسان .

ثمَّ ٱعلموا أَنَّ الله تعالىٰ كلَّ يوم هو في شأن ، في تغيير وتبديل ، ورفع وخفض ، فقوم يرفعهم إلىٰ عليّين ، وقوم يحطُّهم إِلىٰ أَسفل السّافلين .

فخوف الَّذين رفعهم إلىٰ العليّين أَنْ يحطَّهم إِلىٰ أَسفل السّافلين ، ورجاؤهم أَنْ يبقيَهم ويحفظهم علىٰ ما هم عليه من الرَّفع .

وخوف الَّذين حطَّهم إلىٰ أَسفل السّافلين ، أَنْ يُبْقيَهم ويخلِّدهم علىٰ ما هم فيه من الحطِّ ، ورجاؤهم أَنْ يرفعهم إلىٰ عليّين . ثمَّ ٱنتبهت .

توكّل علىٰ الله تجده تجاهك

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : إنَّما { حجبك الله عن فضله والبداية } بنعمته لا تّكالك علىٰ الخلق والأَسباب والصَّنائع { والاكتساب } .

فالخلق حجابك عن الأَكل بالسُّنَّة وهو الكسب ، فما دمت قائماً مع الخلق ، راجياً لعطائهم وفضلهم ، سائلاً لهم ، متردِّداً إلىٰ أَبوابهم ، فأَنت مشرك بالله عزَّ وجلَّ خلقه ، فيعاقبُك بحرمان الأَكل بالسُّنَّة الَّذي هو الكسب من حلال الدُّنيا .

ثمَّ إذا تُبْتَ عن القيام مع الخلق ، وشركِك بربِّك عزَّ وجلَّ بهم ، ورجَعت إلىٰ الكسب فتأكل بالكسب ، وتتوكَّل علىٰ الكسب ، وتطمئن إليه وتنسىٰ فضل الرَّبِّ { عزَّ وجلَّ } ، فأَنت مشرك أَيضاً ، إلاّ أَنَّه شِرك خفيٌّ أَخفىٰ من الأَوَّل[1] ، فيعاقبُك الله ويحجبُك عن فضله / والبداية به . ١٦/أ

فإذا تُبْتَ عن ذالك وأَزلت الشِّرك عن الوسط ، ورفعت أتّكالك علىٰ الكسب والحول والقوَّة ، ورأيت الله { عزَّ وجلَّ } هو الرَّزّاق ، وهو المسبِّب والمسهِّل والمقوّي علىٰ الكسب ، { والموفِّق } لكلِّ خير ، والرِّزق بيده تارة يواصلك به بطريق الخلق علىٰ وجه المسأَلة لهم في حالة الابتلاء أَو الرِّياضة أَو عند سؤالك له عزَّ وجلَّ ، وأُخرىٰ بطريق الكسب معاوضه ، وأُخرىٰ من فضله مبادأة من غير أَنْ ترىٰ { الواسطة } والسَّبب ، ورجَعت إليه { وآستَطَرحت } بين يديه عزَّ وجلَّ رفع الحجاب بينك وبين فضله { عزَّ وجلَّ } ، وباداًك وغذّاك بفضله ، عند كلِّ حاجة علىٰ قَدْر ما يوافق حالك ، كفعل الطَّبيب الشَّفيق الرَّفيق الحبيب بالمريض حماية منه عزَّ وجلَّ ، وتنزيهاً لك عن الميل إلىٰ من سواه ، ويرضيك بفضله .

فإذن ينقطع عن قلبك كلُّ إرادة وكلُّ شهوة ولذَّة ومطلب ومحبوب ، فلا يبقىٰ في قلبك سوىٰ إرادته عزَّ وجلَّ . فإذا أَراد أَنْ يسوق إليك قَسْمُكَ الَّذي لا بدَّ لك من تناوله وليس هو رزق لأَحد من خلقه عزَّ وجلَّ سواكَ ، أَوجد عندك شهوة ذالك القَسْم وساقه إليك ، فيواصلُك به عند الحاجة ،

---

(١) وقد قال النَّبيُّ ﷺ : « الشِّرك في هاذه الأُمة أَخفى من دبيب النَّملة السَّوداء علىٰ صفحات سوداء في ظُلمة اللَّيل » .

ثمَّ يوفِّقُك لشكره ، ويعرِّفُك أنَّه منه { عزَّ وجلَّ } ، وهو سائقه إليك ورازقُه لك .

فتشكُرُه حنيئذٍ وتعرف وتعلم ، فيزيدُك خروجاً من الخلق ، وبُعداً من الأنام ، وخلوَّ الباطن ممّا سواه عزَّ وجلَّ .

ثمَّ إذا قويَ علمُك / ويقينُك ، وشُرِح صدرُك ، ونوِّر قلبُك ، وزادك ١٦/ب قُربُك من مولاك عزَّ وجلَّ ومكانتك لديه ، وأمانتك عنده ، وأَهليَّتُكَ لحفظ الأَسرار ، علِمت متىٰ يأتيك قَسْمُك قبل حينه كرامةً لك ، وإجلالاً { لحرمتِك } ، وفضلاً منه ومِنَّةً وهداية .

قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَروا وَكانوا بِآياتِنا يُوقِنون ﴾ [سورة السَّجدة ٣٢/ ٢٤] ، وقال { تعالىٰ } : ﴿ وَالَّذينَ جاهَدوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا . . ﴾ [سورة العنكبوت ٢٩/ ٦٩] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ . . وَاتَّقوا اللهَ وَيُعَلِمُكُمُ اللهُ . . ﴾ [سورة البقرة ٢/ ٢٨٢] .

ثمَّ يرد إليك التَّكوين ، فتكوِّن بالإذن الصَّريح الَّذي لا غبار عليه ، والدَّلالات اللاّئحة كالشَّمس المنيرة ، وبكلام لذيذ أَلذُّ من كلِّ لذيذ ، وإلهام صدق من غير تلبيس ، المصفّىٰ من هواجس النَّفس ووساوس الشَّيطان اللَّعين .

قال الله عزَّ وجلَّ في بعض كتبه : (يا بن آدم أَنا الله الَّذي لا إلٰه إلاّ أَنا ، أَقول للشيء كن فيكون ، أَطعني أَجعلُك تقول للشيء كن فيكون) .

وقد فعل ذالِك بكثير من أَنبيائِهِ وأَوليائه وخواصِّه من بني آدم عليهم السَّلام .

اِرحل من الخَلْق إلى الخالق ، ومن الكون إلى المكوِّن

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : إذا وصلت إلىٰ الله تعالىٰ ، فقربت منه بتقريبه وتوفيقه .

ومعنىٰ الوصول إلىٰ الله عزَّ وجلَّ خروجك عن الخلق والهوىٰ والإرادة والمُنىٰ ، والثُّبوت مع فعله عزَّ وجلَّ وإرادته تعالىٰ ، من غير أَنْ يكون منك حركة ، فيك ولا في خلقه بك ، بل بِحُكمه وأَمره وفعله ، فهي حالة الفناء / يعبَّر عنها بالوصول . ١٧/أ

فالوصول إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ليس كالوصول إلىٰ أَحد من خلقه المعقول المعهود ﴿ . . لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهوَ السَّميعُ الْبَصير ﴾ [سورة الشُّورىٰ ١١/٤٢] .

جلَّ الخالق أَنْ يشبَّه بمخلوقاته ، أَو يُقاس علىٰ { مصنوعاته } .

فالوصول إليه عزَّ وجلَّ معروف عند أَهل الوصول ، بتعريفه { عزَّ وجلَّ } لهم كلَّ واحد علىٰ حِدَه ، ولا يشاركه فيه غيره ، له عزَّ وجلَّ مع كلِّ واحد من رسله وأَنبيائه وأَوليائه سرٌّ من حيث هو ، لا يطَّلع علىٰ ذالك أَحد غيرهُما ، حتّىٰ أَنَّه قد يكون للمريد سرٌّ لا يطَّلع عليه شيخه ، وللشيخ سرٌّ لا يطَّلع عليه مريده ، الَّذي قد دنا في سيره إلىٰ عتبة باب حالة شيخه .

فإِذا بلغ المريد حالة شيخه أُفرد عن الشَّيخ وقُطع عنه ، فيتولاّه الحقُّ عزَّ وجلَّ ، { فيفطِمه } عن الخلق جملة ، فيكون الشَّيخ كالظِّئر والدّاية ، لارضاع بعد الحولين ، لا خلق بعد زوال الهوىٰ والإرادة .

والشَّيخ يُحتاجُ إليه ما دام ثَمَّ هوىٰ وإرادة لكسرهما ، وأَمّا بعد

زوالهما فلا ، لأَنّه لا كدورة ولا نقصان .

فإِذا وصلت إِلىٰ الحقِّ { عزَّ وجلَّ } علىٰ ما بينّا ، فكن آمناً أَبداً ممَّن سواه عزَّ وجلَّ ، فلا ترىٰ لغيره وجوداً أَلبتة ، لا في الضَّرِّ ولا في النَّفع ، ولا في العطاء ولا في المنع ، ولا في الخوف ولا في الرَّجاء ، بل هو عزَّ وجلَّ أَهل التَّقوىٰ وأَهل المغفرة .

فكُن أَبداً ناظراً إِلىٰ فعله ، مترقّباً لأَمره ، مشتغلاً بطاعته ، مبايناً عن جميع خلقه دنيا وأُخرىٰ .

لا تُعلِّق قلبك بشيء من خلقه ، وأجعل الخليقة أَجمع كرجل كتفه[1] سلطان عظيم ملكه ، شديد أَمره ، مهولةٌ صولته / وسطوته ، ثمَّ جعل ١٧/ب الغلَّ في رقبته ، ثمَّ مع رجليه ، ثمَّ صَلَبَهُ علىٰ شجرة الأَرز علىٰ شاطئ نهر عظيم موجه ، فسيح عرضه ، عميق غوره ، شديد جريه ، ثمَّ جلس السُّلطان علىٰ كرسي ، عظيم قدره ، عالٍ سماؤه ، بعيد مرامه ووصوله ، وترك { إِلىٰ جانبه } أَحمالاً من السِّهام والرِّماح والنَّبل وأَنواع السِّلاح والقِسي ممّا لا يبلغ قدرها غيره ، فجعل يرمي إِلىٰ المصلوب بما شاء من ذالك السِّلاح ، فهل يحسن لمن رأىٰ ذالك أَنْ يترك النَّظر إِلىٰ السُّلطان ويترك الخوف منه والرَّجاء له ، وينظر إِلىٰ المصلوب ويخاف منه ويرجو منه ؟

أَليس من فعل ذالك يسمّىٰ في قضية العقل عديم العقل والحسِّ مجنوناً ، بهيمة غير إِنسان ؟

فنعوذ بالله من العمىٰ بعد البصيرة ، والقطيعة بعد الوصول ،

---

(١) شدَّ يدَيْه من خلفه بحبل .

والصُّدود بعد الدُّنوِ والقُرب ، والضَّلالة بعد الهداية ، والكفر بعد الإيمان .

فالدُّنيا كالنَّهر العظيم الجاري الَّذي ذكرناه ، كلُّ يوم في زيادة مائها ، وهي شهوات بني آدم في الدُّنيا ولذّاتهم فيها ، { والدَّواهي } الَّتي تصيبهم منها ، وأَمّا السِّهام وأَنواع السِّلاح ، فالبلايا الَّتي تجري بها القدر إليهم ، فالغالب علىٰ بني آدم في الدُّنيا البلايا والنَّقص والآلام والمحن ، وما يجدون من النَّعيم واللَّذّات فيها فمشوبة بالآفات إذا ٱعتبرها ، فكلُّ عاقل لا حياة له { ولا عيش ولا راحة } إلاّ في الآخرة إنْ كان موقناً ، { لأَنَّ ذالك خصوصاً في حقِّ المؤمن } .

قال النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « لا عَيْشَ إلاّ عَيْشُ الآخِرَةِ »[1] / وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : « لا راحَةَ لِلْمؤمِنِ دونَ لِقاءِ ربِّهِ »[2] .

١٨/أ

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : « الدُّنيا سِجْنُ ٱلمؤمِنِ [وَجَنَّةُ الكافِرِ] »[3] وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : « التَّقيُّ مُلْجَمٌ »[4] .

---

(١) قطعة من حديث ، أخرجه البخاري في « صحيحه » برقم ٣٧٩٦ ، عن أَنس بن مالك رضيَ الله عنه .

(٢) ليس له أصل مرفوع ، إنّما رواه أحمد في « الزُّهد » ص١٩٤ عن إبراهيم النَّخعي عن عبد الله بن مسعود رضيَ الله عنه . وظاهر هاذا الإسناد الانقطاع .

(٣) أَخرجه مسلم في « صحيحه » ، كتاب الزهد والرَّقائق ، برقم١ عن أَبي هريرة رضي الله عنه . ومعناه : أَنَّ كلَّ مؤمن مسجون ، ممنوع في الدُّنيا من الشَّهوات المحرَّمة والمكروهة ، مكلَّف بفعل الطَّاعات الشَّاقة ، فإذا مات ٱستراح من هاذا وٱنقلب إلىٰ ما أعدَّ الله تعالىٰ له من النَّعيم الدَّائم والرَّاحة الخالصة من المنغصات وأَمّا الكافر فإنّما له من ذالك ما حصل في الدُّنيا ، مع قلَّته وتكديره بالمنغصات ، فإذا مات صار إلىٰ العذاب الدَّائم وشقاء الأَبد .

(٤) ذكره القرطبي في « الجامع لأحكام القرآن » ، ج١ / ١٦١ . وقال في شرحه لآية ﴿ فيه

فمع هاذه الأَخبار والعيان كيف يَدّعي طيب العيش في الدُّنيا ؟ .

فالرّاحة كلَّ الرّاحة في الانقطاع إِلىٰ الله عزَّ وجلَّ وموافقته ، والاستطراح بين يديه ، فيكون { العبد } بذالك خارجاً من الدُّنيا .

فحينئذٍ يكون الدَّلال رأفة ورحمة ولطفاً وصدقة وفضلاً .

جُرحُ الأحبّة غير ذي ألم

قال رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه : الوصية ، لا تشكونَّ إِلىٰ أَحد ممّا نزل بك من ضرٍّ كائناً من كان ، صديقاً كان أَو عدوّاً ، { ولا تتهمنَّ } الرَّبَّ عزَّ وجلَّ فيما فعل فيك ، وأَنزل بك من البلاء ، بل أَظهر الخير والشُّكر . فكذُبك { بإِظهارك } الشُّكر من غير نعمة عندك خير من صدقك في إِخبارك جليّةَ الحال بالشَّكوىٰ من الَّذي خلا من نعمة الله عزَّ وجلَّ .

{ قال الله تعالىٰ : ﴿ . . وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصوها . . ﴾ [سورة إِبراهيم ١٤/ ٣٤] .

فكم من نعمةٍ عندكَ } وأَنت لا تعرفها ؟

ولا تسكن إِلىٰ أَحد من الخلق ، ولا تستأنس به ، ولا تُطلِع أَحداً علىٰ ما أَنت فيه ، بل يكون أُنسُكَ بالله عزَّ وجلَّ ، وسكونك إِليه ، وشكواك منه وإِليه ، لا ترىٰ ثانياً .

= هدىً للمتَّقين ﴾ ، أَنّ أَصل التَّقوىٰ في اللُّغة قلَّة الكلام ، وٱستشهد بهاذا الحديث وزاد عليه : « . . والمتَّقي فوق المؤمن والطّائع » . وهو الَّذي يتَّقي بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالىٰ .

فإِنَّه ليس لأَحد ضرٌّ ولا نفع ، ولا جلب ولا دفع ، ولا عِزٌّ ولا ذلٌّ ، ولا رفع ولا خفض ، ولا فقر ولا غنىٰ ، ولا تحريك ولا تسكين ، الأَشياء كلُّها خَلقُ الله عزَّ وجلَّ وبيد الله ، بأَمره وإِذنه جريانُها ، كلٌّ يجري لأَجلٍ مسمّىٰ عنده ، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار ، لا مقدِّم لِما أَخَّر ، ولا مؤخِّر لِما قدَّم .

١٨/ب قال الله عزَّ وجلَّ / : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هوَ ، وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصيبُ بِهِ مَن يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَهوَ الْغَفورُ الرَّحيم ﴾ [سورة يونُس ١٠/ ١٠٧] .

فإِنْ شكوت منه عزَّ وجلَّ وَأَنت معافىٰ وعندك نعمة ما ، طالباً للزيادة ومتعامياً عمّا له عندك من النِّعمة والعافية { ٱستزراً } بهما ، غضب عليك وأَزالهما عنك ، وحقَّق شكواك ، وضاعف بلاءك ، وشدَّد عقوبتك ، ومقتك وقلاك ، وأَسقطك من عينه .

فاحذر الشَّكوىٰ جدّاً ولو قُطِّعت وقُرِض لحمُك بالمقاريض .

إِيّاك وإِيّاك ثمَّ إِيّاك ، الله الله ثمَّ الله ، النَّجاة النَّجاة ، الحذر الحذر . فإِنَّ أَكثر ما ينزل بابن آدم من أَنواع البلاء لشكواه من ربِّه عزَّ وجلَّ .

كيف { تشتكي } منه عزَّ وجلَّ وهو أَرحم الرّاحمين ، وخير الحاكمين ؟ حليم خبير ، رؤوف رحيم ، لطيف بعباده ، ليس بظلّام للعبيد ، كطبيب حليم حبيب شفيق لطيف قريب . فهل يُتَّهم الوالد الشَّفيق أَو الوالدة الشَّفيقة الرَّحيمة ؟

قال النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « اللهُ

أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنَ الوالِدَةِ عَلىٰ وَلَدِها »[1] .

أَحسنِ الأَدب يا مسكين ، تصيرُ عندك { البلايا منن } إنْ ضعفت عن الصَّبر ، ثمَّ ٱصبر إنْ ضعفت عن الرِّضا والموافقة . ثمَّ ٱرضَ ووافق إنْ وجدت ، ثمَّ ٱفنَ إذا فقدت .

أَيُّها الكبريت الأَحمر ، أَين أَنت ، أَين توجد ونرىٰ ؟

أَما تسمع إلىٰ قوله تعالىٰ عزَّ وجلَّ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَهوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ، وَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهواْ شَيْئاً وَهوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهوَ شَرٌّ لَّكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمون ﴾ [سورة البقرة ٢/ ٢١٦] .

طوىٰ عنك علم حقيقة الأَشياء وحجبك عنه ، فلا تُسيءِ الأَدب / ١٩/ أ فتكره بك أَو تحبّ بك ، بل ٱتَّبع الشَّرع في جميع ما ينزل بك إنْ كنتَ في حالة التَّقوىٰ الَّتي هي القدم الأَوَّلىٰ ، وٱتَّبع الأَمر في حالة الولاية ووجود الهوىٰ ولا تجاوزه وهي القدم الثّانية ، وٱرضَ بالفعل ووافق ، وٱفنَ في حالة البدليَّة والغوثية والصِّدّيقيَّة ، وهي المنتهىٰ .

تنحَّ عن طرق القدر ، خلِّ عَنْ سبيله ، رُدَّ نفسك وهواك ، وكفَّ لسانك عن الشَّكوىٰ .

---

(١) أَخرجه البخاري في « صحيحه » برقم ٥٩٩٩ ، عن عمر بن الخطّاب رضيَ الله عنه : قال : قدم علىٰ النَّبيّ ﷺ سَبيٌ ، فإذا امرأةٌ من السَّبيْ قد تحلب ثديها تسقي ، إذا وجدت صَبيّاً في السَّبي أخذته ، فأَلصقته ببطنها وأَرضعته ، فقال لنا النَّبيُّ ﷺ : « أَتَرَوْنَ هاذِهِ طارِحَةً وَلَدَها في النّار » ، قلنا : لا ، وهي تقدِر علىٰ أَنْ لا تطرحَهُ ، فقال : « لَلّهُ أَرْحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ هاذِهِ بِوَلَدِها » .

قلت : وفي الحديث إشارة إلىٰ أَنَّه ينبغي للمرء أَنْ يجعل تعلُّقه في جميع أُموره بالله وحده ، وأَن كلَّ من فرض أَنَّ فيه رحمة ما حتّىٰ يقصد لأَجلها ما لله سبحانه وتعالىٰ أَرحم منه ، فليقصد العاقل لحاجته من هو أَشدُّ له رحمة .

فإذا فعلت ذالك ، إنْ كان خيراً زادك المولىٰ { سبحانه } حياة طيّبةً ولذَّةً وسروراً ، وإنْ كان شرّاً حفظك في طاعته فيه ، وأزال عنك الملامة ، وأفقدك فيه ، حتّىٰ يتجاوز عنك ، ويرحل عند انقضاء أجله ، كما ينقضي اللّيل فيسفر عن النّهار ، والبرد في الشّتاء فيسفر عن الصّيف .

ذالك { أُنموذج } عندك ، فاعتبر به ، ثمّ ذنوب وآثام وإجرام وتلويث بأنواع المعاصي والخطيئات ، { فلا يصلح } لمجالسة الكريم عزّ وجلّ إلاّ الطّاهر من أنجاس الذُّنوب والزّلات ، ولا تقبلُ سدّته إلاّ طيّباً من درن الدّعاوي ، ـ كما لا يصلح لمجالس الملوك إلاّ الطّاهر من الأنجاس وأنواع النّتن والأوساخ ـ ، فالبلايا مكفِّرات مطهِّرات .

قال النّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ وآله وأصحابه وسلّم : « حِمَىٰ يَوْمٍ كَفّارَةُ سَنَةٍ »[1] .

وفّ بوعدك وانظر مَنْ تُعاهِدُ !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأرضاه : إذا كنت ضعيف الإيمان واليقين ، ووَعَدتَ بوعد وفّ بوعدك ، ولا تخلف لئلا يزول إيمانك ويذهب يقينك ، فإذا قويَ ذالك في قلبك وتمكّنت ، وخوطبت بقوله عزّ وجلّ : ﴿ .. إنّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكينٌ أَمين ﴾ [سورة يوسُف ١٢/ ٥٤] ١٩/ب وتكرّر / هاذا الخطاب لك حالاً بعد حال ، فكنت من الخواصّ ، بل من

(١) ذكره الفتني في « تذكرة الموضوعات » ص٢٠٦ ، وقال : ضعيف . وقد أخرج القُضاعي في « الشِّهاب » ج١/ ٧١ ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « الحُمَّىٰ حَظُّ كلِّ مُؤمن من النّار ، وحُمّىٰ ليْلَةٍ يُكَفِّرُ خطايا سنة مُجْرِمَةٍ » . وهو أيضاً حديث ضعيف جدّاً .

خاصِّ الخاصِّ ، ولم يبق لك إرادة ولا مطلب ، ولا عمل تعجب به ، ولا قربة تراها ، ولا منزلة تلمحها ، فتسمو همَّتك إليها { فتصير } كالإناء المنثلم الَّذي لا يثبت فيه مائع ، فلا يثبت فيك إرادة ولا خلق ولا همَّة إلىٰ شيء من الأَشياء دنيا وأُخرىٰ ، وطُهِّرت ممّا سوىٰ الله تعالىٰ ، وأُعطيت رضاك عن الله عزَّ وجلَّ ، ووعدت برضوان الله { تعالىٰ } عنك ، ولُذِّذت ونُعِّمت بأَفعال الله عزَّ وجلَّ أَجمع .

فحينئذٍ توعد بوعد ، فإِذا ٱطمأننت إِليه ، ووجدت فيه أَمارة وإِرادةٍ ، مانقلت عن ذالك الوعد إِلىٰ ما هو أَعلىٰ منه ، وصُرِفت إِلىٰ أَشرف منه ، وعوِّضت عن الأَوَّل بالغنىٰ عنه ، وفتحت لك أَبواب المعارف والعلوم ، وأُطلعت علىٰ غوامض الأُمور وحقائق الحكمة والمصالح المدفونة في الانتقال من الأَوَّل إِلىٰ ما يليه ، ويزداد حينئذٍ في مكانتك في حفظ الحال ثمَّ المقام ، وفي أَمانتك في حفظ الأَسرار ، وشرح الصَّدر ، { وتنوير } القلب ، وفصاحة اللِّسان ، والحكمة البالغة ، في إِلقاء المحبَّة عليك ، فجُعلت محبوب الخليقة ، أَجمع الثَّقلين وما سواهما دنيا وأُخرىٰ .

فصرت محبوب الحقِّ عزَّ وجلَّ ، والخلق تابع للحقِّ عزَّ وجلَّ ، ومحبَّتهم مندرجة في محبَّته ، كما أَنَّ بغضهم يندرج في بغضه عزَّ وجلَّ ، فكذالك إذا بلغت هاذا المقام الَّذي ليس لك { فيه } إِرادة شيء أَلبته ، جُعِلت لك إِرادة لشيء / من الأَشياء ، فإِذا تحقَّقتْ إِرادتك لذالك الشّيءْ ٢٠/أ أُزيل الشَّيء وأُعدم ، وصُرِفتَ عنه ، فلم تُعطَه في الدُّنيا ، وعوِّضت عنه في الآخرة بما يُزيدك قربة وزلفىٰ إِلىٰ العليّ الأَعلىٰ ، وما تقرُّ به عيناك في الفردوس الأَعلىٰ وجنَّة المأوىٰ .

وإِنْ كنت لم تطلب ذالك وتأمله وترجوه وأَنت في دار الدُّنيا الَّتي هي دار الفناء والتَّكاليف والعناء ، بل رجاؤك وأَنت فيها وجه الَّذي خلق

وبرأ ، ومنع وأَعطىٰ ، وبسط الأَرض ورفع السَّماء ، { إِذ } ذاك هو المراد والمطلوب والمنىٰ ، وربَّما عوِّضت عن ذالك بما هو أَدنىٰ من ذالك أَو مثله في الدُّنيا بعد ٱنكسار قلبك ، وبصبرك عن ذالك المطلوب والمراد والمُنىٰ ، وتحقيق العوض في الأُخرىٰ وعلىٰ ما ذكرنا وبيّنا .

إنَّما الإيمان عزيمةٌ ويقين

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : في قول النَّبيِّ صلَّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « دَعْ ما يُريبُكَ إِلىٰ ما لا يُريبُكَ »[1] .

دع ما يريبك إِذا ٱجتمع مع ما لا يريبك ، فخذ بالعزيمة الَّتي لا يشوبُها ريب ولا شكٌّ ، ودع ما يريبك .

فأَمّا إِذا تجرَّد المريب المشوب الَّذي لم يصف عن جَزِّ القلب وحكّه كما جاء في الخبر { عن النَّبيِّ صلَّىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم } « الإِثْمُ حَوّازُ القُلوب »[2] فتوقَّف فيه وٱنتظر الأَمر فيه ، فإِنْ

---

(١) أَخرجه أَحمد في « مسنده »ج٣/ ١٥٣ ، عن أَنس بن مالك رضيَ الله عنه ، وأَخرجه النَّسائي في « سننه » برقم ٥٧١١ ، عن الحسن بن عليّ رضيَ الله عنهما . وهو حديث صحيح .

(٢) قطعة من حديث ، أَخرجه البيهقي في « الشُّعب » برقم ٥٤٣٤ ، عن عبد الله بن مسعود رضيَ الله عنه ، وتتمَّته : « . . وَما مِنْ نَظْرَةٍ إِلاّ ولِلشيْطانِ فيها مَطْمَعٌ » . وهو حديث موقوف علىٰ ابن مسعود .

قلت : وحواز القلوب هي الأُمور الَّتي تؤثر في الشَّيء وكما يؤثر الحزُّ في الشَّيء ، وهو ما يخطر فيها من أَن يكون معاصي ، لذالك إِياكم وحوائز القلوب ، وما حزَّ في قلبك من شيء فدعه .

أُمرت بتناوله فدونك ، وإنْ منعت فكفَّ ، فليكن ذالك عندك كأَنَّه لم يكن ولم يوجد ، وٱرجع إِلىٰ الباب وٱبتغ عند ربِّك الرِّزق .

وإِنْ ضعفت عن الصَّبر أَو الموافقة والرِّضا أَو الفناء ، فهو عزَّ وجلَّ لا يحتاج أَنْ يذكر ، فليس بغافل عنك و{ لا } عن / غيرك . هو عزَّ ٢٠/ب وجلَّ يطعم الكفّار والمنافقين والمُدْبرين عنه ، فكيف ينساك أَيُّها المؤمن الموحِّد المقبل علىٰ طاعته ، القائم بأَمره في آناء اللَّيل وأَطراف النَّهار ؟

وفيه وجه آخر دع ما يريبك إِلىٰ ما لا يريبك { معناه } : دع ما في يد الخلق فلا تطلبه ، ولا تعلِّق قلبك به ، ولا ترجو الخلق ولا تخافهم ، وخذ من فضل الله عزَّ وجلَّ { من الله } وهو ما لا يريبك ، وليَكُن لك مسؤولٌ واحد ، ومعطٍ واحد ، ومرجوٌّ واحد ، ومخوِّفٌ واحد ، وهمَّةٌ واحدة ؛ وهو ربَّك عزَّ وجلَّ الَّذي نواصي الملوك بيده ، وقلوب الخلق بيده الَّتي هي أُمراء الأَجساد ، وأَموال الخلق له عزَّ وجلَّ ، والخلق وكلاؤه وأُمناؤه ، وحركة أَيديهم بالعطاء لك بإِذنه عزَّ وجلَّ وأَمره وتحريكه ، { وكَفِّها } عن عطائك كذالك ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . وَاسأَلوا اللهَ مِن فَضْلِهِ . . ﴾ [سورة النِّساء ٤/٣٢] وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ . . إِنَّ الَّذينَ تَعْبُدونَ مِن دونِ اللهِ لا يَمْلِكونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدوهُ وَاشْكُروا لَهُ { إِلَيْهِ تُرْجَعُون } ﴾ [سورة العنكبوت ٢٩/١٧] ، وقال { تعالىٰ } : ﴿ وَإِذا سَأَلَكَ عِبادي عَنّي فَإِنّي قَريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ . . ﴾ [سورة البقرة ٢/١٨٦] ، وقال { تعالىٰ } : ﴿ . . ادْعوني اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [سورة غافر ٤٠/٦٠] ، وقال { تعالىٰ } : ﴿ إِنَّ اللهَ هوَ الرَّزّاقُ ذو القُوَّةِ الْمَتين ﴾ [سورة الذّاريات ٥٢/٥٨] ، وقال { تعالىٰ } : ﴿ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشاءُ بِغَيْرِ حِساب ﴾ [سورة آل عمران ٣/ ٣٧] .

الجسم نفثة حرّى من جهنم الشيطان

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : رأيت إبليس اللَّعين في المنام وأَنا في جمع كثير فهممت بقتله ، فقال لي ـ { لعنهُ الله } ـ : لِمَ تقتلني وما ذنبي إنْ جرىٰ القدَر بالشرِّ ، فلا أَقدِر أَنْ أُغيّره إلىٰ الخير وأَنقلَه إليه ، وإنْ جرىٰ بالخير فلا أَقدِر أَنْ أغيّره / { إلىٰ الشرِّ } وأَنقلَه إليه ، فأَيُّ شيءٍ بيدي ؟ ۲۱/أ

وكانت صورته علىٰ صورة الخناثىٰ ، ليّن الكلام ، مسنونَ الوجه[1] ، فيه طاقات شعر في ذقنه ، حقير الصّورة ، دميم الخِلقة[2] .

{ ثمَّ تبسَّم في وجهي } تبسُّم خجلٍ ووجلٍ ، وذالك في ليلة الأَحد ثاني عشر ذي الحجَّة من سنة { ستَّة عشر وخمسمئة } .

ابتلاؤك علىٰ قدْر مقامك

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : لا يزال الله يبتلي عبده المؤمن علىٰ قدْر إيمانه ، فمن عَظُمَ إيمانه وكَثُرَ وتزايد ، عَظُمَ بلاؤه .

فالرَّسول بلاؤه أَعظم من بلاء النَّبيّ ، { لأَنَّه أَعظم وأَكبر إيماناً } ، والنَّبيُّ بلاؤه أَعظم من بلاء البدل ، وبلاء البدل أَعظم من بلاء الولي ، كلٌّ واحد علىٰ قدْر إيمانه ويقينه .

---

(۱) أي ذو وجه مخروط أسيل متن .

(۲) أي قبيح الخلقة .

وأَصل ذالك قول النَّبيّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم « إِنّا مَعاشِرَ الأَنبياء أَشَدُّ النّاسِ بَلاءً ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَل »[1] ، فيُديم الله تعالىٰ البلاء لهاؤلاء السّادة الكرام حتّىٰ يكونوا أَبداً في الحضرة ، ولا يغفلوا عن اليقظة ، لأَنَّه يحبُّهم . فهم أَهل المحبَّة { أَحبّوا } الحقَّ عزَّ وجلَّ ، والمحبُّ أَبداً لا يختار بعد محبوبه .

فالبلاء خطاف لقلوبهم ، وقيد لنفوسهم ، يمنعهم عن الميل إِلىٰ غير مطلوبهم ، والسُّكون { والرُّكون } إِلىٰ غير خالقهم ، فإِذا دام ذالك في حقِّهم ذابت أَهويَتهم ، وٱنكسرت نفوسهم ، وتميَّز الحقُّ من الباطل ، فتزوىٰ[2] الشَّهوات والإِرادات ، والميل إِلىٰ اللَّذّات والرّاحات بأَجمعها دنيا وأُخرىٰ إِلىٰ ما يلي النَّفس ويصيّر السُّكون إِلىٰ وعد الحقِّ عزَّ وجلَّ ، والرِّضا بقضائه ، والقناعة بعطائه ، والصَّبر/ علىٰ بلائه ، والأَمن من شرِّ ٢١/ب خلقه إِلىٰ ما يلي القلب ، فتقوىٰ شوكة القلب ، فتصير الولاية علىٰ الجوارح إِليه ، لأَنَّ البلاء يقوّي القلب واليقين ، ويحقِّق الإِيمان والصَّبر ، ويُضعِف النَّفس والهوىٰ ، لأَنَّه كلَّما وصل الأَلم { إِلىٰ القلب } ووجد من { المؤمن } الصَّبر والرِّضىٰ والتَّسليم لفعل الرَّبِّ { عزَّ وجلَّ } ، رضيَ { الرَّبُّ عزَّ وجلَّ } عنه وشكره هو ، فجاءه المدد والزِّيادة والتَّوفيق .

---

(١) أَخرج التِّرمذيُّ في « الجامع الصَّحيح » برقم ٢٣٩٨ ، عن سعد بن أَبي وقّاص رضيَ الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أَيُّ النّاس أَشدُّ بلاءً ؟ قالَ : « الأَنبياءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلىٰ الرَّجُلُ عَلىٰ حَسَبِ دِينِهِ ، فإِنْ كانَ دِينُهُ صُلْباً ٱشتَدَّ بَلاؤُهُ ، وَإِنْ كانَ في دِينِهِ رِقَّةٌ ٱبْتُلِيَ عَلىٰ حَسَب دِينِهِ ، فَما يَبْرَحُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حَتّىٰ يَتْرُكَهُ يَمْشي عَلىٰ الأَرْضِ ما عَلَيْهِ [مِنْ] خَطيئَةٍ » . وهو حديث حسن صحيح .

(٢) أي تنصرف وتنطوي عنه .

قال الله تعالىٰ : ﴿ .. لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم .. ﴾ [سورة إبراهيم ١٤/ ٧] .

وإذا تحرَّكت النَّفس بطلب شهوة من شهواتها ، ولذَّة من لذّاتها من القلب ، فأَجابها القلب إلىٰ مطلوبها ، وذالك من غير أَمر من الله [تعالىٰ] وإذن منه ، وحصلت بذالك غفلة عن الحقِّ [تعالىٰ] وشرك ومعصية ، فعمَّها الله [تعالىٰ] { بالخذلان } والبلايا ، وتسليط الخلق ، والأَوجاع والأَمراض ، فينال { كلُّ } واحد من القلب والنَّفس حظَّه من ذالك .

{ فإن } لم يُجبِ القلب النَّفس إلىٰ مطلوبها حتّىٰ يأتيه الإذن من قبل الحقِّ { عزَّ وجلَّ } ، ـ بإلهام في حقِّ الأَولياء ، ووحي صريح في حقِّ المرسلين والأَنبياء ـ { فعمل } علىٰ ذالك عطاءً ومنعاً عمَّهم الله بالرَّحمة والبركة ، والعافيَة والرِّضىٰ ، والنّور والمعرفة ، والقُرب والغنىٰ ، والسَّلامة من الآفات ، والنَّصر علىٰ الأَعداء .

فاعلم ذالك وٱحفظه ، وٱحذر البلاء جدّاً في المسارعة إلىٰ إجابة النَّفس والهوىٰ ، بل توقَّف وترقَّب في ذالك إذن المولىٰ ، فتسلم في الدُّنيا والعقبىٰ إنْ شاء الله تعالىٰ .

قليله كثير ، وغيضه فيض ، وحرمانه عطاء

٢٢/ أ قال رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه : ٱرض بالدّون وٱلزمه/ جدّاً حتّىٰ يبلغ الكتاب أَجله ، فتُنقل إلىٰ الأَعلىٰ والأَنفس ، وبه تهنأ وفيه تبقىٰ وتُحفظ ، بلا عناء ، ولا تبعة ولا عدوىٰ ، دنيا وأُخرىٰ ، ثمَّ ترقّىٰ من ذالك إلىٰ ما هو أَقرُّ عيناً منه وأَهنأ .

وٱعلم أَنَّ القَسْم لا يفوتك بترك الطَّلب ، وما ليس { بقَسْمك } لا تناله بحرصك في الطَّلب والجدِّ والاجتهاد . فاصبر وٱلزم الحال وٱرضَ به ، ولا تأخذ بك ولا تعط بك حتّىٰ تؤمر ، ولا تتحرَّك بك ولا تسكن بك ، فتبتلىٰ بك وبمن هو أَشرُّ منك من الخلق ، لأَنَّك بذالك تظلم والظالم لا يغفل عنه .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَكَذالِكَ نُوَلّي بَعْضَ الظّالِمينَ بَعْضا . . ﴾ [سورة الأَنعام ٦/ ١٢٩] لأَنَّك في دار مَلِكٍ عظيم أَمرُه ، شديد شوكتُه ، كثير جُنده ، نافذة مشيئتُه ، قاهر حكمُهُ ، باق ملكُه ، دائم سلطانُه ، دقيق علمُه ، بالغة حكمتُه ، عدل قضاؤه ، لا يَعْزُبُ[1] عنه مثقال ذرَّة في الأَرض ولا في السَّماء ، لا يجاوزه ظلم ظالم . فأَنتَ أَعظمُ الظَّلمَة وأَكبرهم جريمة ، لأَنَّك أَشركت { بتصرُّفك } فيك وفي خلقه عزَّ وجلَّ بهواك .

قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيم ﴾ [سورة لقمان ٣١/ ١٣] وقال { الله } عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذالِكَ لِمَن يَشاء . . ﴾ [سورة النِّساء ٤/ ١١٦] .

ٱتق الشِّرك جدّاً ولا تقربه ، وٱجتنبه في حركاتِك وسكناتِك وليلِك ونهارِك ، في خلوتِك وجلوتِك ، وٱحذر المعصية في الجملة ، في الجوارح والقلب ، وٱترك الإثم ما ظهر منه وما بطن/ ، ولا تهرب منه عزَّ ٢٢/ب وجلَّ بمخالفتك { له } فيدركُكَ ، ولا تنازعه في قضائه فيقصمك ، ولا تتَّهمه في حكمه فيخذلك ، ولا تغفل عنه فيُنَبهُكَ ، ولا تُحْدث في داره حادثة { فيُهلكك } ، ولا تقل في دينه بهواك يرديك ويظلم قلبك ،

---

(١) أي لا يبعد ولا يغيب .

ويسلبك إِيمانك ومعرفتك ، ويسلِّط عليك شيطانك ونفسك وهواك وأَهلك وشهواتك وجيرانك وأَصحابك وأَخلاءك وجميع خلقه ، حتّىٰ عقارب دارك وحيّاتِها وجِنّها وبقيّة هوامها ، فينغِّص عيشتك في الدُّنيا ويطيل عذابك في الأُخرىٰ .

ٱلزم رحاب من لا يُغلق بابه

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ٱحذر معصية الله عزَّ وجلَّ جدّاً ، ٱلزم بابه حقّاً ، وٱبذل طوقك وجهدك في طاعته ، معتذراً متضرِّعاً مفتقراً خاضعاً ، متخشِّعاً مطرقاً ، غير ناظر إِلىٰ خلقه ولا تابع لهواك ، ولا طالب للأَعواض دنيا وأُخرىٰ ، ولا ٱرتقاء إِلىٰ المنازل العالية والمقامات الرَّفيعة الشَّريفة .

وٱقطع بأَنَّك عبده ، والعبد وما مَلَكَ لمولاه ، لا يستحقُّ عليه شيئاً من الأَشياء .

أَحسن الأَدب ولا تتَّهم مولاك ، فكلُّ شيءٍ عنده بمقدار ، لا مقدِّم لما أَخَّر ولا مؤخِّر لما قدَّم ، يأتيك ما قُدِّر لك عند وقته وأَجله ، إِنْ شئت أَو أَبيت . لا تشره علىٰ ما سيكون لك ، ولا تطلب وتلهف علىٰ ما هو لغيرك فيما ليس هو عندك ، لا يخلو إِمّا أَنْ يكون لك أَو لغيرك ، فإِنْ كان لك { فهو إِليك } صائراً وأَنت إِليه مقاد ومسيَّر/ . فاللقاء عن قريب حاصل ، وما ليس لك فأَنت عنه مصروف ، وهو عنك مولٍّ ، فأَنّىٰ لكما التَّلاقي . ٢٣/أ

فاشتغل بإِحسان الأَدب فيما أَنت بصدده من طاعة مولاك عزَّ وجلَّ في وقتك الحاضر ، ولا ترفع رأسك { ولا تُمل } عنقك إِلىٰ ما سواه .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلىٰ ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الـدُّنْيـا لِنَفْتِنَهُـمْ فيـهِ وَرِزْقُ رَبِّـكَ خَيْـرٌ وَأَبْقـىٰ ﴾ [سـورة طـه ٢٠/ ١٣١] .

فقد نهاك الله عزَّ وجلَّ عن الالتفات إلىٰ غير ما أَقامك فيه ، ورزَقك من طاعته ، وأَعطاك من قَسْمه ورزقه وفضله ، ونبَّهك أَنَّما سوىٰ ذالك فتنة ٱفتتنهم { فيه } ، ورِضاك بقَسْمك خير لك وأَبقىٰ وأَبرَكُ وأَحرىٰ وأَولىٰ .

فليكن هاذا دأبُك ومنقلبُك ومثواك ، وشعارُك ودِثارُك ومرادُك ومرامُك ، وشهوتُك ومناك ، تنال به كلَّ المرام ، وتصل به إلىٰ كلِّ مقام ، وترقىٰ به إلىٰ كلِّ خير ونعيم و{ طريف } وظريف وسرور ونفيس .

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أَخْفىٰ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بَما كانوا يَعْمَلون ﴾ [سورة السَّجدة ٣٢/ ١٧] ، فلا عمل بعد العبادات الخمس وترك الذُّنوب أَجمع ؛ أَعظمُ ولا أَشرف ولا أَحبُّ إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، ولا أَرضىٰ عنده ممّا ذكرت لك ، وفَّقنا الله { تعالىٰ } وإيّاك لِما يحبُّ ويرضىٰ عنه .

حسبك بحبّه نعيماً

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : لا تقولنَّ يا فقير اليد ، يا مولّي عن الدُّنيا { وأَبنائها } ، يا خامل الذِّكر بين ملوك الدُّنيا

وأَسبابها ، يا جائع { يا نائع }[1] ، يا عريان الجسد ، يا ظمآن الكبد ، ٢٣/ب يا مشتَّتاً/ في كلِّ زاوية من الأَرض ، من مسجد وبقاع خراب ، ومردوداً من كلِّ باب ، ومدفعاً عن كلِّ مراد ، ومنكسراً ومزدحماً في قلبه كلُّ حاجة ومرام ؛ إنَّ الله تعالىٰ أَفقرني وزوىٰ عنّي الدُّنيا وعترني ، وتركني وقلاني وفرَّقني ولم يجمعني ، وأَهانني ولم يعطني من الدُّنيا كفاية ، { وأَخملني } ولم يرفع ذكري بين الخليقة وإخواني ، وأَسبغ علىٰ غيري نعمة منه سابغة يتقلَّب فيها ليله ونهاره ، وفضَّله عليّ وعلىٰ أَهل دياري ، وكلانا مسلمان مؤمنان ، جميعنا أُمُّنا حواء وأَبونا آدم خير الأَنام { عليهما السَّلام } .

أَمَّا أَنت فقد فعل الله بك ذالك ، لأَنَّ طينتك حرَّة ، وندىٰ رحمة الله تعالىٰ متدارك عليك من الصَّبر والرِّضا واليقين ، والموافقة والعلم وأَنوار الإيمان والتَّوحيد متراكم لديك ، فشجرة إيمانك غرسها وبذورها ثابتة ، مكينة مورقة ، مثمرة ومستزيدة ، ومتشعِّبة { غضَّة } ، مظلِّلة متفرِّعة ، فهي في كلِّ يوم في زيادة ونمو ، فلا حاجة بها إلىٰ سباطة وعلف لتنمىٰ بها وتربىٰ . وقد فرغ الله تعالىٰ من أَمرك علىٰ ذالك ، وأَعطاك في الآخرة دار البقاء وخوّلك فيها ، وأَجزل عطاءك في العُقبىٰ ، ممّا لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر .

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أَخْفِىَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانوا يَعْمَلون ﴾ [سورة السَّجدة : ٣٢/ ١٧] .

٢٤/أ أَي ما عملوا في الدُّنيا من أَداء / الأَوامر ، والصَّبر علىٰ ترك المناهي والتَّسليم إليه في المقدور ، والموافقة له في جميع الأُمور .

---

(١) ناع ينيعُ : مال . والنَّوائعُ من الغصون : الموائلُ .

وأَمّا الغير الَّذي أَعطاه الله عزَّ وجلَّ من الدُّنيا ، وخوَّله ونعَّمه فيها ، وأَسبغ عليه فضله ، فعل به ذالك ، لأَنَّ محل إيمانه أَرضٌ سبخة[1] { وصخر } لا يكاد يثبت فيها الماء وتنبت فيها الأَشجار ، وتتربّىٰ فيها الزُّروع والثِّمار ، فصبَّ عليها أَنواع سباطه[2] وغيرها ممّا يربىٰ به النَّبات وهي الدُّنيا وحطامها ، ليتحفَّظ بذالك ما ينبت فيها من شجرة الإيمان وغرس الأَعمال ، فلو قطع ذالك عنها [لجفَّ] النَّبات والأَشجار ، وٱنقطعت الأَثّمار ، فخربتِ الدِّيَار ، وهو عزَّ وجلَّ يريد عمارتها .

فشجرة إيمان الغني ضعيفة المنبت ، خال عمّا هو مشحون به شجرة إيمانك يا فقير ، ففوَّتُها وبقاؤها بما ترىٰ عنده من الدُّنيا وأَنواع النَّعيم ، فلو قطعها ذالك عنه مع { ضعف } الشَّجرة جفَّت الشَّجرة ، فكان كفراً وجحوداً وإلحاقاً بالمنافقين والمرتدين والكفّار .

اللَّهُّم إلاّ أَنْ يبعث الله عزَّ وجلَّ إلىٰ الغني الشّاكر من الصَّبر والرِّضا واليقين والتَّوفيق والعلم وأَنواع المعارف ، فيقوىٰ الإيمان بها حينئذٍ ، حتّىٰ لا يبالي بانقطاع الغنىٰ والنَّعيم .

القلب دارٌ لا تسعُ ٱثنان

قال رضي الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : لا تكشف البرقع والقناع عن وجهك حتّىٰ تخرج من الخلق وتولّيهم ظهر قلبك في جميع الأَحوال / ٢٤/ب فيزول هواك ، ثمَّ تزول إرادتك ومُناك ، فتفنىٰ عن الأَكوان دنيا وأُخرىٰ ،

(١) وهي أَرض ذات نزٍّ وملح لا تكادُ تنبت .
(٢) السَّبِطُ من المطر : الغزيرُ .

فتصير كإناء منثلم لا تبقىٰ فيك إرادة غير إرادة ربّك عزَّ وجلَّ ، فتمتلئ بربّك عزَّ وجلَّ فلا يكون لغير ربّكَ في قلبك مكان ولا مدخل ، وجعلت أَبوّاب قلبك ، وأُعطيت سيف التَّوحيد والعظمة والجبروت ، فكلُّ من رأيته دنا من ساحة صدرك إلىٰ باب قلبك ندرتَ[1] رأسه من كاهله ، فلا يكون لنفسك وهواك وإرادتك ومُناك ودنياك وأُخراك عندك رأس منشأك ولا كلمة مسموعة ، ولا رأىٰ متَّبع إلاّ اتِّباع أَمر الرَّبّ عزَّ وجلَّ ، والوقوف معه ، والرِّضا بقضائه ، بل الفناء في قضائه وقدره ، فتكون عبد الرَّبِّ وأَمره ، لا عبد الخلق وآرائهم ، فإذا استمر الأَمر فيك كذالك ، ضربت حول قلبك سرادقات الغيرة وخنادق العظمة وسلطان الجبروت ، وحفَّ بجنود الحقيقة والتَّوحيد ، ويقام دون ذالك حراس الحقِّ عزَّ وجلَّ ، كيلا يَخلص الخلق إلىٰ القلب من الشَّيطان والنَّفس والهوىٰ ، والإرادات والأَماني الباطلة ، والدَّعاوىٰ الكاذبة النّاشئة من الطِّباع والنُّفوس الأَمّارة بالسّوء والضَّلالات النّاشئة من الأَهواء .

فحينئذٍ إنْ كان في القدر مجيء الخلق وتواترهم إليك وتتابعهم وتطابقهم عليك ، ليصيبوا من الأَنوار اللائحة / ، والعلامات المنيرة ، والحكم البالغة ، ويروا من الكرامات الظّاهرة وخوارق العادات المستمرَّة ، ويزدادوا بذالك من القُربات والطّاعات والمجاهدات والمكابدات في عبادة ربِّهم ؛ حُفِظت عنهم أَجمعين ، وعن ميل النَّفس إلىٰ هواها ، وعُجبها ومباهاتها ، وتعاظمها بالتّكبرُّ بهم ، وبقبولهم لك وإقبال وجوههم إليك .

وكذالك إنْ قُدِّر مجيء زوجة حسناء جميلة بكفايتها وسائر مؤنتها ،

٢٥/أ

---

(١) أي أَسقطتَ .

حُفِظتَ من شرِّها وتحمُّل أَثقالها وأَتباعها وأَهلها ، وصارت عندك موهبة مكفاة مهناة منقّاة مصفّاة من الغشِّ والخُبث والدَّغل والحقد والغضب والخيانة في الغيب ، فتكون مسخرة لك حينئذٍ { هي } وأَهلها ، محمولة عنك مؤنتها ، مدفوعة عنك أَذيَّتُها .

وإن قُدِّر مِنها ولد كان صالحاً ذرِّية طيِّبة قُرة عين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ . . وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَه . . ﴾ [سورة الأَنبياء ٢١/ ٩٠] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ربَّنا هَبْ لنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إماما . . ﴾ [سورة الفرقان ٢٥/ ٧٤] . وقوله تعالىٰ : ﴿ . . وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضيا ﴾ [سورة مريم ١٩/ ٦] .

فتكون هاذه الدَّعوات الَّتي في هاذه الآيات معمولاً بها ، مستجابة في حقِّك إنْ دعوت بها أَولم تدعُ ، إذ هي في محلِّها وأَهلها وأَولىٰ من يعامل بهاذه النِّعمة أَو يقابل بها من كان أَهلاً لهاذه المنزلة ، وأُقيم في هاذا المقام ، وقُدِّر له من الفضل والقُرب هاذا المقدار .

وكذالك إنْ قُدِّر مجيء شيء من الدُّنيا وإقبالها ، لا يضرُّ إذ ذاك / ٢٥/ب فما هو قَسْمُك منها لا بُدَّ من تناوله وتصفيته لك بفعل الله وإِراداته ، وورود الأَمر بتناوله ، فتناوله وأَنت ممتثلاً للأَمر ، مثاب علىٰ تناوله كما تُثاب علىٰ فعل صلوات الفرض { وصيام الفرض } ، وتؤمر فيما ليس بقَسْمك منها بصرفها إلىٰ أَربابها من الأَصحاب والجيران والإخوان المستحقّين ، الفقراء منهم وأَصحاب الأَقسام علىٰ ما يقتضي الحال ، والأَحوال تكشفها وتميِّزها ، وليس الخبر كالمعاينة . فحينئذٍ تكون من أَمرك علىٰ بيضاء نقيَّة لطيفة لا غبار عليها ، ولا تلبيس ولا تخليط ، ولا شكَّ ولا ٱرتياب .

فالصَّبر الصَّبر ، الرِّضا الرِّضا ، حفظ الحال حفظ الحال ، الخمول الخمول ، الخمود الخمود ، الجمود الجمود ، السُّكون السُّكون ، الصُّموت الصُّموت ، الحذر الحذر ، النَّجاة النَّجاة ، الوحا الوحا[1] ، الله الله ثـم الله ، الإطـراق الإطـراق ، الإغمـاض الإغمـاض ، الحيـاء الحياء ، حتّىٰ يبلغ الكتاب أَجله .

فيؤخذ بيدك فتقدَّم وتنزع عنك ما عليك ، ثمَّ تغوص في بحار الفضائل والمنن والرَّحمة ، ثمَّ تخرج منها فيخلع عليك خلع الأَنوار والأَسرار والعلوم الغرائب اللَّدنيَّة ، فَتُقرَّب وتُحدَّث وتُكلَّم وتُعطىٰ وتغنىٰ ، وتشجع وترفع وتُخاطب : بأَنَّك اليوم لدينا مكين أَمين .

فحينئذٍ أعتبر حالة يوسُف الصِّدّيق عليه [الصَّلاة] والسَّلام حين خوطِب بهاذا الخطاب علىٰ لسان مِلك مصر وعظيمها وفرعونها ، كان لسان المَلِكِ قائلاً ومعبِّراً لِهاذا الخطاب ، والمخاطب هو الله عزَّ وجلَّ علىٰ لسان المعرفة ، سلم إليه / الملك الظّاهر وهو ملك المَلِكِ وملك ٢٦/أ النَّفس وملك المعرفة والعلم والقربة والخصوصيَّة وعلوّ المنزلة عند { الله } عزَّ وجلَّ . قال الله { عزَّ وجلَّ } في ملك المَلِكِ ﴿ . . وَكَذالِكَ مَكَّنّا لِيوسُفَ في ٱلأَرْض . . ﴾ [سورة يوسُف ١٢/ ٥٦] ، أَي في أَرض مصر ﴿ . . يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاء . . ﴾ الآية ، وقال [تعالىٰ] في ملك النَّفس : ﴿ كَـذالِـكَ لِنَصْـرِفَ عَنْـهُ ٱلسُّـوءَ وَٱلْفَحْشـاءَ إِنَّـهُ مِـنْ عِبـادِنـا الْمُخْلَصين ﴾ [سورة يوسُف ١٢/ ٢٤] . وقال تعالىٰ في ملك المعرفة والعلم بيوسف : ﴿ ذالِكُما مِمّا عَلَّمَني رَبّي إِنّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْم لا يُؤمِنونَ بِاللهِ وَهُم بِالأَخِرَةِ هُمْ كافِرون ﴾ [سورة يوسُف ١٢/ ٣٧] . فإِذا خوطبت

(١) الوحا : السُّرعة . الوحا الوحا : البدارَ البدار .

بهاذا الخطاب أَيُّها الصَّديق الأَكبر ، أُعطيت الحظَّ الأَوفر من العلم الأعظم ، ومُنحت وهنيت بالتوفيق والمنن والقدرة والولاية العامَّة ، والأَمر النّافذ علىٰ النَّفس وغيرها من الأَشياء والتّكوين ، بإِذن إِلٰه الأَشياء في الدُّنيا قبل { الآخرة } .

وأَمّا في { الآخرة } في دار السَّلام والجنَّة العُليا ، والنَّظر إِلىٰ وجه المولىٰ الكريم فيها زيادة ومِنَّة ، وهو المُنىٰ الَّذي لا غاية له ولا منتهىٰ .

تخيَّر من الثِّمار أطيبه

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ٱجعل الخير والشَّرَّ ثمرتين من غصنين من شجرة واحدة ، أَحد الغصنين يثمر الثِّمار حلواً والآخر مرّاً .

فاترك البلاد والأَقاليم ونواحي الأَرض الَّتي تحمل إِليها هاذه الثِّمار المأخوذة من هاذه الشَّجرة ، فابعد عنها وعن أَهلها ، وٱقترب من الشَّجرة وكن سائسها وخادمها القائم عندها ، وٱعرف الغصنين والثَّمرتين والجانبين .

فكُن إِلىٰ جانب الغصن / المثمر حلواً ، فحينئذٍ يكون غذاؤك وقوّتك منها . وٱجتنب أَنْ تتقدَّم إِلىٰ جانب الغصن الآخر فتأكل من ثمرتها فتهلِكك مرارتها ، { فإِذا دمت } علىٰ هاذا كنت في دَعَةٍ وأَمن وسلامة من الآفات كلِّها ، إِذ الآفات وأَنواع البلايا تتولَّد من تلك الثَّمرة المُرَّة ، وإِذا غِبْتَ عن الشَّجرة وهِمْتَ في الآفاق ، وقُدِّم بين يديك من تلك الثِّمار وهي مختلطة غير متميّزة الحلوة من المُرَّة فتناولت منها ، فربَّما وقعت يداك علىٰ المُرَّة فأَدنيتها من فِيكَ ، فأَكلت منها جزءاً ومضغته ، فسرت المرارة

٢٦/ب

إلى أَعماق لهواتك وباطن حلقك ودماغك وخياشيمك ، فعملت فيك وجرت في عروقك وأَجزاء جسدك فهلكت بها ، ولفظت نقطة الباقي من فِيك ، وغسلُ أَثره لا يدفع عنك ما قد سرىٰ في جسدك ولا ينفعك .

وإنْ أكلت ٱبتداء من الثَّمرة الحلوة ، وسرت حلاوتها في أَجزاء جسدك ، وٱنتفعت بها وسررت فلا يكفيك ذالك ، فلا بدَّ أَنْ تتناول غيرها ثانيةً ، فلا تأمن أَنْ تكون الثّانية من المُرَّة فيحلُّ بك ما ذكرته لك ، فلا خير في البعد عن الشَّجرة والجهل بثمرتها ، والسَّلامة في قربها والقيام معها .

فالخير والشَّرُّ فعل الله عزَّ وجلَّ ، والله تعالىٰ هو فاعلهما ومجريهما ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلون ﴾ [سورة الصّافّات ٣٧/ ٩٦] وقال النَّبيُّ صلّىٰ الله [تعالىٰ] عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم « والله خلق الجازر وجزوره »[١]

٢٧/ أ / فأعمال العباد خلق الله { وكسب لهم } . وقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . ٱدْخُلوا الجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلون ﴾ [سورة النَّحل ١٦/ ٣٢] .

سبحانه ما أَكرمه وأَرحمه أَضاف العمل إليهم وأَنَّهم ٱستحقّوا الدُّخول إلىٰ الجنَّة بعملهم ، وهو بتوفيقه ورحمته لهم في الدُّنيا والآخرة . قال النَّبيَّ صلّىٰ الله [تعالىٰ] عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « لا يَدْخُلُ ٱلجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ » ، فقيل له عليه الصَّلاة والسَّلام : ولا أَنت يا رسول الله ؟ فقال : « وَلا أَنا ، إلاّ أَنْ يَتَغَمَّدَنيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلىٰ رَأْسِهِ »[٢] مرويٌّ ذالك في عائشة رضيَ الله { تعالىٰ } عنها .

---

(١) لم أَعثر عليه فيما لديّ من المصادر .

(٢) أَخرجه أَحمد في « مسنده » ج٢/ ٢٥٦ . وأَخرج البخاري في « صحيحه » برقم ٦٤٦٣ ، عن أَبي هريرة رضيَ الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يُنْجيَ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ » ، قالوا : ولا أَنتَ يا رسول الله ؟ قال : « وَلا أَنا إلاّ أَنْ يَتَغَمَّدَنيَ الله =

فإذا كنت طائعاً لله عزَّ وجلَّ ، ممتثلاً لأمره ، منتهياً لنهيه ، مسلِّما له في قَدَره ؛ حماك عن شرِّه وتفضَّل عليك بخيره ، وحماك عن الأَسواء جميعاً دنيا وديناً .

أَمَّا دنيا : فقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ .. كَذالِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصين ﴾ [سورة يوسُف ١٢/ ٢٤] .

وأَمّا ديناً فقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ مايَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكانَ اللهُ شاكِراً عَليماً ﴾ [سورة النِّساء ٤/ ١٤٧] .

شاكر مؤمن ما يفعل البلاء عنده وهو إِلىٰ العافية أَقرب من البلاء ، وهو في محل المزيد بأَنَّه شاكر . قال الله تعالىٰ : ﴿ .. لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزيدَنَّكُمْ ﴾ [سورة إبراهيم ١٤/ ٧] .

فإيمانك يطفىء لهب النّار في الآخرة الَّتي هي عقوبة كلِّ عاص ، فكيف لا يطفىء نار البلاء في الدُّنيا ؟

اللَّهمَّ إلاّ أَنْ يكون العبد من المجذوبين المختارين للولاية والاصطفاء والاجتباء ، فلا بدَّ من البلاء ليطفئ من خبث الأَهواء والميل إلىٰ الطِّباع ، والرُّكون / إلىٰ شهوات النَّفس ولذّاتها ، والطُّمأنينة إلىٰ الخلق والرِّضا بقربهم ، والسُّكون إِليهم والثُّبوت معهم والفرح بهم ، فيبتلىٰ حتّىٰ يذوب جميع ذالك ، فيتنظَّف القلب بخروج الكلِّ . ويبقىٰ توحيد الرَّبِّ عزَّ وجلَّ ومعرفة الحقِّ وموارد الغيب من أَنواع الأَسرار والعلوم وأَنوار القُرب ، لأَنَّه بيت لا يسعُ اثنان . قال الله تعالىٰ : ﴿ ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ ﴾ [سورة الأَحزاب ٣٣/ ٤] . وقال : ﴿ .. إِنَّ الْمُلوكَ إِذا دَخَلوا

٢٧/ ب

= بِرَحْمَةٍ ، سَدِّدوا وَقارِبوا ، وَاغْدوا وَروحوا ، وَشَيءٌ مِنَ الدُّلْجةِ ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغوا » .

قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّة ﴾ [سورة النّمل ٢٧/ ٣٤] .

فأَخرجوا الأَعزَّة عن طيب المنازل ونعيم العيش .

كانت الولاية على القلب للشَّيطان والهوىٰ والنَّفس والجوارح متحرِّكة بأَمرهم من أَنواع المعاصي والأَباطيل والتُّرهّاتَ فزالت تلك الولاية ، فسكنت الجوارح وفرغت دار الملك ، الَّتي هي القلب ، وتنظَّفت السّاحة الَّتي هي الصَّدر .

فأَمّا القلب فصار مسكناً للتوحيد والمعرفة والعلم . وأَمّا السّاحة فمحطُّ الموارد والعجائب من الغيب .

كلُّ ذالك نتيجة البلايا وثمرتها ، قال النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « إِنّا مَعاشِرَ الأَنبياءِ أَشَدُّ النّاسِ بَلاءً ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ »[١] ، وقال صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « أَنا أَعْرَفُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَوْفاً »[٢] فكلُّ من قرب من الملك ٱشتدَّ خطره وحذره / ، لأَنَّه في مرأىٰ من الملك ، لا يخفىٰ عليه تصاريفه وحركاته ولحظاته .

٢٨/أ

فإِنْ قلت : فالخليقة عند الله بأَجمعهم كشخص واحد لا يخفىٰ عليه منهم شيء ، فأَيُّ فائدة لهاذا الكلام ؟

{ فأقول } : قيل ذالك لمّا علت منزلته ، وشَرُفت رتبته ، عظم خطره ، لأَنَّه وجب عليه شكر ما أَولاه من جسيم نعمه وفضله ، فأَدنىٰ

---

(١) تقدَّم تخريجه ، ص ٩١، وهو حديث حسن صحيح .

(٢) أَخرج البخاري في « صحيحه » برقم ٦١٠١ ، عن عائشة رضيَ الله عنها ، قالت : صنع النَّبيُّ شيئاً فرخَّص فيه ، فتنزَّه عنه قومٌ ، فبلغ ذالك النَّبيَّ ﷺ ، فخطب فحمد الله ثمَّ قال : « ما بالُ أَقوام يَتَنَزَّهونَ عَنِ الشَّيء أَصنَعُهُ ، فوَ الله إِنّي لأَعْلَمُهُمْ بالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً » .

الالتفات عن خدمته تقصير في شكره ، وذالك نقصان في طاعته . قال الله تعالىٰ ﴿ يَا نِساءَ النَّبيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَها الْعَذابُ ضِعْفَيْن . . ﴾ [سورة الأحزاب ٣٣/ ٣٠] .

قال ذالك لهنَّ لتمام نعمته عزَّ وجلَّ عليهنَّ باتصالهنَّ بالنَّبيِّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه [وعلىٰ] آله وأَصحابه وسلَّم ، فكيف من كان { مواصلاً } بالله عزَّ وجلَّ وقربه ـ تعالىٰ الله علواً كبيراً عن التَّشبيه بخلقه ـ ليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير .

دع ثمرك على غصنه تقطفه يانعاً

قال رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه : أَتريد الرّاحة والسُّرور ، والدَّعة[1] والحبور ، والأَمن والسُّكون ، والنَّعيم والدَّلال ، وأَنت بَعْدُ في كير السَّبك والتَّذويب ، وتمويت النَّفس ومجاهدة الهوىٰ ، وإزالة المرادات والأَعواض دنيا وأُخرىٰ ، وقد بقيَ فيك بقيَّة من ذالك ظاهرة لائحة ؟

علىٰ { رِسلِك } يا مستعجل ، مهلاً مهلاً يا مترقِّب ، الباب مسدود إلىٰ ذالك ، وقد بقيت عليك منه بقيَّة وفيك درة منه ، المكاتب[2] عبد ما بقيَ عليه درهم / ، أَنت مصدود عن ذالك ما بقيَ عليك من الدُّنيا مقدار مصِّ نواة . ٢٨/ب

الدُّنيا هواك ومرادك ومُناك ورؤيتك لشيء من الأَشياء ، وطلبك لشيء من الأَشياء ، وتشوُّف نفسك إلىٰ شيء من الأَعواض دنيا وأُخرىٰ .

---

(١) السُّكون والاستقرار .

(٢) المُكاتِب : العبد يُكاتب علىٰ نفسه بثمنه ، فإذا سعىٰ وأَدّاه عُتِقَ .

فما دام فيك شيء من ذالك فأَنت في باب الإفناء .

فاسكن حتّىٰ يحصل الفناء علىٰ التَّمام والكمال ، فتخرج من الكير وتكمل صياغتك وتُحلّىٰ وتُكسىٰ وتطيَّب وتبخَّر ، ثمَّ تُرفع إِلىٰ الملك الأَكبر ، فتخاطب بأَنَّك اليوم لدينا مكين أَمين ، فتؤانس وتلاطف ، وتُطعم من الفضل ومنه تسقىٰ ، وتقرَّب وتدنىٰ ، وتطَّلع علىٰ الأَسرار وهي عنك لا تخفىٰ ، فتغنىٰ بما تُعطىٰ من ذالك عن جميع الأَشياء .

أَلا ترىٰ إِلىٰ قراضة الذَّهب { متفرِّقة } مبتذلة مناولة ، غادية رائحة في أَيدي العطَّارين والبقّالين والقصّابين والدّبّاغين والنَّقاضين[1] والكنّاسين والكتّافين ، أَصحاب الصَّنائع النَّفيسة والرَّذيلة والدَّنيّة والخبيثة .

ثمَّ تُجمع فتجعل في كير الصّائغ فتذوب هناك بإشعال النّار عليها ، ثمَّ تخرج منه فتطرق وترقَّق وتطبع وتصاغ فتجعل حليّاً ، ثمَّ تُحلّىٰ وتُطيّب فتترك في خير المواضيع والأَمكنة من وراء الأَغلاق في الخزائن والصَّناديق والأَحقاق[2] ، أَو تحلّىٰ بها العروس وتزيَّن وتكرم ، وقد تكون العروس للملك الأَعظم فتنقل القراضة من { هاذه الأَيدي } إِلىٰ قُرب / الملِك ومجلسه بعد السَّبك والدَّقّ . ٢٩/أ

فهاكذا أَنت يا مؤمن إِذا صبرت علىٰ مجاري الأَقدار { فيك } ، ورضيت بالقضاء في جميع الأَحوال ، قربت إِلىٰ مولاك في الدُّنيا ، فتنعم بالمعرفة والعلوم والأَسرار ، وتسكن في الآخرة دار السَّلام مع الأنبياء

---

(١) هادمي الأَبنية والبيوت .

(٢) الحُقّ : وعاء صغير من عاج أَو زجاج أَو فخّار ونحو ذالك .

والصِّدِّيقين والشُّهداء والصّالحين ، في جوار الله عزَّ وجلَّ وداره وقربه والأُنس به عزَّ وجلَّ .

فاصبر ولا تستعجل ، وارضَ بالقضاء ولا تتَّهم { الحقَّ ، فسينالك } بردُ { عفو الله عزّ وجلَّ } ، وحلاوة مغفرته ورحمته ولطفه وكرمه ومَنِّهِ .

قد يجني من الفقر غنىً

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه في قول النَّبيِّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « كادَ الفَقْرُ أَنْ يَكونَ كُفْراً »[1] .

العبد يؤمن بالله عزَّ وجلَّ ، ويسلِّم الأُمور كلَّها إليه ، ويعتقد تسهيل الرِّزق منه ، وأَنَّ ما أَصابه لم يكن ليخطئه ، وما أَخطأه لم يكن ليصيبه . ويؤمن بقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . . ﴾ [سورة الطَّلاق ٦٥/ ٢ـ٣] .

يقول ذالك { ويؤمن به } وهو في حال العافية والغنىٰ ، ثمَّ يبتليَه الله عزَّ وجلَّ بالبلاء والفقر ، فيأخذ في السّؤال والتَّضرُّع ، فلا يكشفها عنه .

(١) قطعة من حديث . أَخرجه البيهقي في « الشُّعب » برقم ٦٦١٢ . عن أَنس بن مالك رضيَ الله عنه ، وتتمَّته : « . . وَكادَ الحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ القَدَرَ » . وهو حديث ضعيف . لاكن يشهد له ما أَخرجه ابن حبّان وصحّحه عن أَبي سعيد الخُدري ، عن رسول الله ﷺ أَنَّه كان يقول : اللَّهُمّ إنّي أَعوذُ بِكَ مِنَ الكُفْرِ وَالفَقْرِ » فقال رجل : يا رسول الله ويعتدلان ؟ قال ﷺ : « نعم » .

فحينئذٍ يتحقَّق قوله { عليه الصَّلاة والسَّلام } : « كادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً » .

فمن تلطُّف الله به كشفَ الله عنه ما به ، فأدركه بالعافية والغنىٰ ووفَّقه للشُّكر والحمد والثَّناء ، فيديم له ذالك إلىٰ اللِّقاء [وهو الرَّجل الأَوّل] .

۲۹/ب ومن يُرِد الله { عزَّ وجلَّ } فتنَتهُ / أَدام بلاءه وفقره ، فيقطع عنه مدد إيمانه ، فيكفر بالاعتراضِ والتِّهمة للحقِّ عزَّ وجلَّ والشَّكِّ في وعده ، فيموت كافراً بالله عزَّ وجلَّ ، جاحداً لآياته متسخِّطاً علىٰ ربّه { عزَّ وجلَّ } . [وهو الرَّجل الثّاني] ، وإليه أَشار رسول الله صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم [بقوله] : « إنَّ أَشَدَّ النّاسِ عَذاباً يَوْمَ القيَامَةِ رَجُلٌ جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ فَقْرِ ٱلدُّنيا وَعَذابِ الآخِرَةِ »[1] . نعوذ بالله من ذالك ، وهو الفقر المسمّىٰ الَّذي ٱستعاذ منه النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم .

والرَّجل الثّالث هو الَّذي أَراد الله عزَّ وجلَّ ٱصطِفاءَه وٱجتِباءَه ، وجعله من خواصِّه وأَحبائه وأَخلاّئه ووارث أَنبيائه وسيّد أَوليائه ، ومن { عظماء } عباده وعلمائهم وحكمائهم وشفعائهم ، وشيخهم { ومتبوعهم } ومعلِّمهم وهاديهم إلىٰ مولاهم ، ومرشدهم إلىٰ سنن الهدىٰ وٱجتناب سُبل الرَّدىٰ .

فأَرسل الله إليه جبال الصَّبر وبحار الرِّضا ، والموافقة والفناء في فعل المولىٰ ، ثمَّ يدركه بجزيل العطاء ويدلِّلهُ في آناء اللَّيل وأَطراف النَّهار في الخلوة ، وإذا خلىٰ في الظّاهر مرَّة وفي الباطن أُخرىٰ بأَنواع اللُّطف وفنون الجزايا ، فيتَّصل له ذالك إلىٰ حين اللِّقاء .

---

(۱) لم أعثر عليه فيما لدي من المصادر .

أَمّا الصَّبر فمذاقه مُرٌّ وعاقبته شَهْدٌ !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ما أَكثر ما تقول [أَي شيء] أَعمل وما الحيلة ؟

فيقال لك : قف مكانك ولا تجاوز حدَّك حتّىٰ يأتيك الفرج ممَّن أَمرك بالقيام فيما أَنت فيه .

قال / الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا ٱصْبِروا وَصابِروا وَرابِطوا وَاتَّقوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحون ﴾ [سورة آل عمران ٣/ ٢٠٠] . ٣٠/ أ

أَمرك بالصَّبر يا مؤمن ثمَّ بالمصابرة والمرابطة والمحافظة والملازمة { له } ، ثمَّ حذَّرك { تركه } ، ثمَّ قال : وٱتقوا الله في ترك ذالك ـ أي لا تترك الصَّبر فإِنَّ الخير والسَّلامة في الصَّبر ـ وقال { النَّبيُّ } صلَّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « الصَّبْرُ مِنَ الإيمانِ كالرَّأسِ مِنَ ٱلجَسَدِ »[1] وقيل : لكلِّ شيء ثوابه بمقدار ، إلاّ ثواب الصَّبر فإِنَّه جزاف غير مقدَّر . كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ . . إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرونَ أَجْرَهُم

---

(١) أَخرجه الديلمي في « الفردوس » برقم ٣٨٤٠ ، عن أَنس بن مالِك رضيَ الله عنه ، وأَخرجه البيهقي في « الشُّعب » برقم ٤٠ ، عن علي رضيَ الله عنه موقوفاً وهو حديث ضعيف .

قال المناوي في « فيض القدير » ج٤/ ٢٣٤ : « الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » لأَنَّ الصَّبر يدخل في كلِّ باب ، بل في كلِّ مسألة من مسائل الدّين ، فكان في الإيمان بمنزلة الرأس من الإنسان . قال عليٌّ كرَّم الله وجهه : فإِذا قطع الرأس مات الجسد . ثمَّ رفع صوته قائلاً : أَما إنّه لا إِيمان من لا صبر له ، أَي وإن كان فإيمان قليل وصاحبه ممَّن : « يعبد الله علىٰ حرف فإِنْ أَصابه خير ٱطمأن به ، وإِنْ أَصابته فتنة ٱنقلب علىٰ وجهه » .

بِغَيْرِ حِساب ﴾ [سورة الزُّمر ٣٩/ ١٠] .

فإِذا ٱتَّقيت { الله } عزَّ وجلَّ في حفظك للصَّبر ومحافظة الحدود أَنجز لك ما وعدك في كتابه وهو قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب . . ﴾ [سورة الطَّلاق ٦٥/ ٢ـ٣] .

وكنت بصبرك ـ حتّىٰ يأتيك الفرج ـ من المتوكِّلين ، وقد وعدك الله عزَّ وجلَّ بالكفاية فقال : ﴿ . . وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . . ﴾ [سورة الطَّلاق ٦٥/ ٣] ، وكنت مع صبرك وتوكُّلك من المحسنين ويحبُّكَ الله تعالىٰ مع ذالك ، لأَنَّه قال : ﴿ . . إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنين ﴾ [سورة المائدة ٥/ ١٣] .

فالصَّبر رأس كلِّ خير وسلامة ، دنيا وأُخرىٰ ، ومنه يترقّىٰ المؤمن إِلىٰ حالة الرِّضا والموافقة ، ثمَّ الفناء في أَفعال الله عزَّ وجلَّ حالة البداية والغيبة .

فاحذر أَنْ تتركه فتُخذل في الدُّنيا والآخرة ، ويفوتك خيرهما .

ميزان الحبّ بالهوىٰ

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : إِذا وجدت في قلبك بغض شخص أَو حبّه ، فاعرض أَعماله علىٰ الكتاب والسُّنَّة ، فإِنْ كانت فيهما مبغوضة / فأبشر { بموافقتك لله ورسوله ، وإِنْ كانت أَعماله فيهما محبوبه وأَنت تبغضه فاعلم أَنَّك صاحب هوىٰ ، تبغضه بهواك ، ظالم له ببغضك إِيّاه ، وعاصٍ لله عزَّ وجلَّ ولرسوله مخالف لهما ، فتب إِلىٰ الله عزَّ وجلَّ من بغضك ، وٱسأَله عزَّ وجلَّ محبّة ذالك الشَّخص وغيره من

٣٠/ب

أَحباب الله وأَوليائه وأَصفيائه والصّالحين من عباده ، لتكون موافقاً له عزَّ وجلَّ في محبَّته .

وكذالك أفعل فيمن تحبُّه ـ [يعني] أعرض أَعماله علىٰ الكتاب والسُّنَّة ـ فإِنْ كانت محبوبة فيهما فأَحببه ، وإِنْ كانت مبغوضة فيهما فابغضه ، كيلا تحبَّه بهواك وتبغضه بهواك ، وقد أُمرت بمخالفة هواك . قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . وَلا تَتَّبِعِ الهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبيل الله . . ﴾ [سورة ص ٣٨/ ٢٦] .

ما الحبّ إلّا للحبيب الأوحد

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ما أَكثر ما تقول كلُّ من أُحبُّه لا تدوم صحبتي له فيحال بيننا ، إمّا بالغيبة أَو بالموت أَو العداوة وأَنواع الأَموال بالتَّلف والفوات من اليد .

فيقال : أَما تعلم يا محبوب الحقِّ، المُعنىٰ به ، المنظور إِليه ، المغار له وعليه؛ أَنَّ الله {عزَّ وجلَّ} غيور خلقك له وتروم أَن تكون لغيره ؟

أَما سمعت قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . يُحِبُّهُمْ وَيُحِبَّونَه . . ﴾ [سورة المائدة ٥/ ٥٤] . وقوله : ﴿ وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إلاّ لِيَعْبُدون ﴾ [سورة الذّاريات ٥١/ ٥٦] .

أَما سمعت قول الرَّسول صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « إِذا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً ٱبتَلاهُ ، فإِنْ صَبَرَ ٱقتَناهُ » ، قيل : يا رسول الله / وما ٱقتناه ؟ قال : « لا يَذَرُ لَهُ مالاً وَلا وَلَداً »[1] ؟ ٣١/ أ

(١) أَخرجه الدَّيلمي في « الفردوس » برقم ٩٦٨ ، عن أَبي عتبة الخولاني رضيَ الله عنه . وهو حديث ضعيف .

وذالك إذا كان له مال وولد أَحبَّهما فتشعَّبت محبَّتة لربّه عزَّ وجلَّ فتنقص وتجزّأ ، فتصير مشتركة بين الله { عزَّ وجلَّ } وبين غيره ، والله { عزَّ وجلَّ } لا يقبل الشَّريك ، وهو غيور قاهر ، فوق كلِّ شيء ، غالب لكلِّ شيء ، فيهلك شريكه ويعدمه ليَخْلُصَ قلب عبده له من غير شريك ، فيتحقَّق حينئذٍ قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . يُحِبُّهُمْ وَيُحِبّونَه . . ﴾ وإذا تنظَّف القلب من الشُّركاء والأَنداد من الأَهل والمال والولد واللَّذّات والشَّهوات ، وطلب الولايات والرّياسات والكرامات والحالات والمنازل والمقامات والجنّات والدَّرجات والقُربات والزّلفات ، فلا يبقىٰ في القلب إرادة ولا أُمنية ، { فيصير } كالإناء المنثلم الَّذي لا يثبت فيه مائع ، فلا يثبت فيه إرادة شيء من الأَشياء ، لأنَّه ٱنكسر بفعل الله عزَّ وجلَّ ، وكلَّما تجمعت فيه إرادة كسرها فعل الله عزَّ وجلَّ وغيرته ، فضُربت { حينئذٍ } حوله سرادقات العظمة والجبروت والهيبة وحفرت من دونها خنادق الكبرياء والسَّطوة ، فلم يخلص إلىٰ القلب إرادة شيء من الأَشياء ، فحينئذٍ لا يضرُّ القلب الأَسباب من المال والولد والأَهل والأَصحاب والكرامات والحكم والعبارات ، فإنَّ جميع ذالك يكون خارج القلب ، فلا يغار الله عزَّ وجلَّ ، بل يكون جميع ذالك كرامة من الله عزَّ وجلَّ لعبده ولطفاً به ونعمة ورفقاً ومنفعة للواردين إليه ، فيكرمون به / ويحفظون ويرحمون لكرامته علىٰ الله عزَّ وجلَّ ، فيكون خفيراً لهم وشحنة وكهفاً وحرزاً وشفيعاً دنيا وأُخرىٰ . ٣١/ب

مقامات الخَلْقِ ومنازِلُ الرّجال

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : النّاس أَربعة رجال .

[**الرَّجل الأَوَّل**] : رجل لا لسان له ولا قلب ، وهو العاصي الغرّ الغبي سفساف[1] ، لا يعبأ الله عزَّ وجلَّ به ، لا خير فيه ، هو وأَمثاله حثالة لا وزن لهم ، إلاّ أَنْ يعمَّهم الله برحمته ، فيهدي قلوبهم للإيمان به ، ويحرِّك جوارحهم بالطّاعة له عزَّ وجلَّ .

فاحذر أَنْ تكون منهم ، ولا تلُذ بهم { ولا تكترث } بهم ، ولا تقم فيهم ، فإِنّهم أَهل العذاب والغضب والسُّخط ، سكّان النّار وأَهلها ، نعوذ بالله منهم .

إلاّ أَنْ تكون من العلماء بالله عزَّ وجلَّ ومن معلِّمي الخير وهُداة الدّين وقُوادِه ودُعاته ، فدونك فأْتِهم وٱدعُهم إِلىٰ طاعة الله عزَّ وجلَّ وحذِّرهم عن { معصيته ، فتكتَبُ } عند الله جهبذاً فتُعطىٰ ثواب الرُّسل والأَنبياء .

قال رسول الله صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم { لأَمير المؤمنين } عليّ بن أَبي طالب رضيَ الله { تعالىٰ } عنه « لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِهُداكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِمّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ »[2] .

الرَّجل الثّاني : لسان بلا قلب ، فينطق بالحكمة ولا يعمل بها ، يدعو النّاس إِلىٰ الله عزَّ وجلَّ وهو يفرُّ منه عزَّ وجلَّ ، يستقبح عيب غيره ويدوم هو علىٰ مثله في نفسه ، يُظهِرُ للناس تنسُّكاً ويبارز الله بالعظائم من المعاصي ، إذا خلا { كأَنّه } ذئب عليه ثياب .

وهو الَّذي حذَّر منه النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ / آله ٣٢/أ وأَصحابه وسلَّم بقوله « أَخْوَفُ ما أَخافُ عَلىٰ أُمَّتي كُلَّ مُنافِقٍ عَليمِ

---

(١) السَّفساف : الرَّديء الحقيرُ من كلِّ شيءٍ وعملٍ .

(٢) أَخرجه الطبراني في « الكبير » رقم ٩٣٠ ، عن أَبي رافع رضيَ الله عنه . وهو حديث صحيح .

اللِّسانِ »[1] وفي حديث آخر : « أَخْوَفُ ما أَخافُ عَلىٰ أُمَّتي مِنْ عُلَماءِ السُّوءِ »[2] ، نعوذ بالله من هاذا .

فابعد عنه وهرول لئلا يختطفك بلذيذ لسانه ، فتحرِقُكَ نار معاصيه ، ويقتلك نتن باطنه وقلبه .

والرَّجل الثالث : قلب بلا لسان ، وهو مؤمن ستره الله { عزَّ وجلَّ } عن خلقه ، وأَسبل عليه كنفه ، وبصَّره بعيوب نفسه ، ونوَّر قلبه ، وعرَّفه غوائل مخالطة النّاس وشؤم الكلام والنُّطق ، وتيقَّن أَنَّ السّلامة في الصَّمت والانزواء .

كما قال النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « مَنْ صَمَتَ نَجا »[3] . { وكما قيل } : العبادة عشرة أَجزاء ؛ تسعة منها في الصَّمت[4] .

---

(١) أَخرجه ابن عدي في « الكامل » ج٣/ ٩٧٠ . وأَخرج ابن حبّان في « صحيحه »برقم ٨٠ ، عن عمران بن حُصين قال : قال رسول الله ﷺ : « أَخْوَفُ ما أَخافُ عَلَيْكُمْ جدالَ ٱلمُنافِقِ عَليم اللِّسان » . وهاذا حديث صحيح .

(٢) لَم أَعثر عليه فيما لَدي من المصادر ، وقد أَخرج المنذري في « التَّرغيب والتَّرهيب » ج١/ ١٢٨ عن ابن عباس رضيَ الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « عُلَماءُ هاذه الأُمَّةِ رَجُلانِ ؛ رَجُلٌ آتاهُ الله عِلْماً فَبَذَلَهُ لِلنّاس ، وَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ طَمَعاً ، وَلَمْ يَشْتَرِ بِهِ ثَمَناً فَذالِكَ تَسْتَغْفِرُ لَهُ حِيتَانُ البَحْرِ ، وَدَوابُّ الْبَرِّ ، وَالطَّيْرُ فِي جَوِّ السَّماءِ ، ويَقْدُم علىٰ الله سيِّداً شَريفاً حَتّىٰ يُرافِقَ المُرسَلين ، وَرَجُلٌ آتاهُ الله عِلْماً فَبَخِلَ بِهِ عَنْ عِبادِ الله ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعاً ، وشَرىٰ بِهِ ثَمَناً ، فَذالِكَ يُلْجَمُ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِلِجام مِنْ نارٍ ، وَيُنَادي مُنادٍ : هاذا الَّذي آتَاهُ اللهُ عِلْماً فَبَخِلَ بِهِ عَنْ عِبادِ اللهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعاً ، وَاشْتَرَىٰ بِهِ ثَمَناً ، وَكَذَالِكَ حَتَّىٰ يَفْرُغَ الْحِسابُ » .

(٣) أَخرجه أحمد في « مسنده » ج٢/ ١٥٩ ، والتِّرمذيُّ في « الجامع الصَّحيح » برقم ٢٥٠١ ، عن عبد الله بن عمرو رضيَ الله عنه ، وهو حديث صحيح .

(٤) ذكر ابن أَبي الدُّنيا في « الصَّمت وآداب اللِّسان » برقم ٣٦ ، عن وُهَيْب بن الورد قال : الحكمة عشرةُ أَجزاء ، فتسعة منها في الصمت ، والعاشرةُ عُزلة النّاس . وقد أَخرج =

فهاذا رجل وليُّ الله عزَّ وجلَّ ، في سِتر الله { عزَّ وجلَّ } محفوظاً ، ذو سلامة وعقل { وفراسة } ، جليس الرَّحمان ، منعمٌ عليه ، فالخير كلّ الخير عنده ، فدونك ومصاحبته ومخالطته [وخدمته] والتَّحبُّب إليه بقضاء الحوائج الَّتي تسنح له ومرافق يرتفق بها ، فيحبُّك الله ويصطفيك ، ويدخلك في زمرة أحبائه وعباده الصّالحين ببركته { إنْ شاء الله تعالىٰ } .

والرَّجل الرّابع : له لسان وقلب ، وهو الرَّجل المدعو في الملكوت بالعظيم ، كما جاء في الحديث : « مَنْ تَعَلَّمَ وَعَمِلَ بِهِ وَعَلِمَ دُعيَ في ٱلمَلَكوتِ عَظيماً »[1] ، وهو العالم بالله عزَّ وجلَّ وآياته ، ٱستودع الله عزَّ وجلَّ { في } قلبه غرائب علمه ، وأَطلعه علىٰ أسرارٍ طواها عن غيره ، وٱصطفاه وٱجتباه وجذبه إليه ورقّاه ، وإلىٰ باب قربه هداه ، وشرح صدره لقبول / تلك الأَسرار والعلوم ، وجعله جهبذاً وداعياً للعباد ، ونذيراً ٣٢/ب لهم ، وحجَّة فيهم ، هادياً مهديّاً ، شافعاً مشفَّعاً ، صادقاً مُصَدَّقاً صِدّيقاً ، بدلاً لرسله وأَنبيائه عليهم صلواته وبركاته وتحيّاته .

فهاذا هو الغاية والمنتهىٰ في بني آدم ، لا منزلة فوق منزلته إلاّ النُّبوَّة ، فعليك { به } ، وٱحذر أَنْ تُخالفه وتُنافره وتُجانبه وتُعاديه ، وتترك القبول منه ، والرُّجوع إلىٰ قوله ونصيحته ، فإنَّ السَّلامة فيما يقول وعنده ، والهلاك والضَّلال عند غيره ، إلاّ من يوفِّقه الله عزَّ وجلَّ { فيؤيّده } بالسَّداد والرَّحمة .

= هنّاد بن السَّريّ في « الزُّهد » ق ١٠٥/ب ، عن أَبي ذر الغفاري رضيَ الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أُخبرُكم بأَيَسَرِ العبادة وأَهوَنِها علىٰ البَدَنِ ؟ الصَّمتُ وحسنُ الخُلُقِ » .

(١) أخرجه أَبو خيثمة النَّسائي في كتاب « العلم » ، وابن الجوزي في « ترجمة سفيان الثَّوريّ » .

فقد قسَّمت لك النّاس ، فانظر لنفسك إنْ كنت ناظراً ، وٱحترز لها إنْ كنت محترزاً بها ، شفيقاً عليها ، هدانا الله وإيّاك لما يحبُّه ويَرضاه ، دنيا وأُخرىٰ برحمته .

لكلّ أجلٍ كتاب

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ما أَعظم تسخطك علىٰ ربِّك وتهمتك له عزَّ وجلَّ ، وٱعتراضك عليه { ونسبك } له عزَّ وجلَّ إلىٰ الظُّلم ، وٱستبطائك في الرِّزق والغنىٰ وكشف الكروب والبلوىٰ ؟

أَما تعلم أَنَّ لكلِّ أَجل كتاب ، ولكلِّ بليّة وكربة غاية ومنتهىٰ ونفاذ . لا يتقدَّم ذالك ولا يتأَخَّر ؟

أَوقات البلاء لا تنقلب فتصير عوافي ، ووقت البؤس لا ينقلب نعمة ، وحالة الفقر لا تستحيل غنىٰ .

فأَحسن الأَدب ، وٱلزم الصَّمت والصَّبر والرِّضا والموافقة لربِّك عزَّ وجلَّ ، وتب { له من تسخُّطك } عليه وتهمتك له في فعله ، ليس هناك / ٣٣/أ إلاّ شقاء وٱنتقام من غير ذنب وعلىٰ الطَّبع ، كما هو في حقِّ العبيد بعضهم في بعض .

هو عزَّ وجلَّ متفرِّد بالأَزل ، سبق الأَشياء وخلقها وخلق مصالحها ومفاسدها ، فعلِم ٱبتداءها وٱنتهاءها وٱنقضاءها وعاقبتها ، وهو عزَّ وجلَّ حكيم في فعله ، متقن في صنعه ، لا تناقض في فعله ، لا يفعل عبثاً ، ولا يخلق باطلاً لعباً ، لا تجوز عليه النَّقائص ولا اللَّوم في أَفعاله .

وٱنتظر الفرج إنْ عجزت عن موافقته ، وعن الرِّضا والغنىٰ في فعله ، إلىٰ أَنْ يبلغ الكتاب أَجله ، فتسفر الحالة عن ضدِّها بمرور الزَّمان وٱنقضاء

الآجال ، كما ينقضي الشِّتاء فيسفر عن الصَّيف ، وينقضي اللَّيل فيسفر عن النَّهار ، فإذا طلبت ضوء النَّهار ونوره بين العشاءين لم تعطه ، بل تُزاد { ظلمة في } اللَّيل ، حتّىٰ إذا بلغت الظُّلمة غايتها ، وطلع الفجر وجاء النَّهار بضوئه ، طلبت ذالك وأردته ، أو سكتَ عنه وكرهته . فإنْ طلبت إعادة اللَّيل حينئذٍ لم تجب دعوتك ولم تعطه ، لأنَّك طلبت الشَّيء في غير حينه ووقته ، فتبقىٰ حسيراً منقطعاً متسخِّطاً خجلاً ، { فٱربح } هاذا كلّه وٱلزم الموافقة ، وأحسن الظَّنَّ بربِّك والصَّبر الجميل . فما كان لك لا تُسلب ، وما ليس لك لا تُعطىٰ .

لعمري إنَّك لتدعو وتبتهل إلىٰ ربِّك بالدُّعاء والتَّضرُّع ، { وهما } عبادة وطاعة ، وٱمتثالاً لأمره عزَّ وجلَّ في قوله : ﴿ . . ٱدْعوني أَستَجبْ لَكْم . . ﴾ [سورة غافر ٤٠/ ٦٠] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . وٱسأَلوا اللهَ مِن فَضْلِه . . ﴾ [سورة النِّساء ٤/ ٣٢] ، وغير ذالك / من الآيات ٣٣/ب والأَخبار .

أَنت تدعوه وهو يستجيب لك عند حينه ووقته وأَجله إذا أَراد الله عزَّ وجلَّ ، أَو كان لك في ذالك مصلحة في دنياك وأُخراك ، أَو وافق ذالك قضاءه وٱنتهاء أَجله .

لا تتَّهمه في تأخير الإجابة ، ولا تسأَم من دعائه ، فإنَّك إنْ لم تربح لم تخسر ، وإنْ لم يجبك عاجلاً أَثابك آجلاً ، فقد جاء في الحديث : « إنَّ العَبْدَ يَرىٰ في صَحائِفِهِ يَوْمَ القِيامَةِ حَسَناتٍ لَمْ يَعْرِفْها ، فيُقالَ لَهُ : إنَّها بَدَلُ سُؤالِكَ في الدُّنيا ، الَّذي لَمْ يُقَدَّرْ قضاؤه فيها »[1] أَو كما ورد .

---

(١) لم أَعثر عليه فيما لدي من المصادر بهاذا اللَّفظ . لاكن أَخرج الطبراني في « الدُّعاء » برقم ٣٥ ، عن أَبي سعيد الخدري رضيَ الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قال : « مَنْ دَعا =

ثمَّ أَقلُّ أَحوالك أَنْ تكون ذاكراً لربِّك موحِّداً له ، حيث تسأله ولم تسأَل { أَحداً } غيره ، ولم تُنزل حاجتك بغيره عزَّ وجلَّ ، فأَنت بين حالين في زمانك كلِّه ؛ ليلِك ونهارك ، وصحتك وسقمك ، وبؤسك ونعمائك ، وشدَّتك ورخائك .

إمّا أَنْ تمسك عن السّؤال وترضىٰ وتوافق وتسترسل لفعله عزَّ وجلَّ ، كالميت بين يدي الغاسل ، والطِّفل الرَّضيع في يدي الظئر ، والكرة بين يدي الفارس يقلِّبها بصولجانه ، فيقلِّبُك القدر كيف شاء .

إنْ كان النَّعماء فمنك الشُّكر والثَّناء ، ومنه عزَّ وجلَّ المزيد في العطاء ، كما قال { عزَّ وجلَّ } : ﴿ .. لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم .. ﴾ [سورة إبراهيم ١٤/ ٧] ، وإنْ كان البأساء والضَّرّاء فالصَّبر والموافقة منك بتوفيقة والتَّثبيت والنّصرة والصَّلاة والرَّحمة منه عزَّ وجلَّ بفضله كما قال عزَّ مِنْ قائل : ﴿ .. إنَّ اللهَ مَعَ الصّابِرين ﴾ [سورة البقرة ٢/ ١٥٣] ، يعني : بالنَّصر والتَّثبيت ، وكيف / لا يكون الحقُّ عزَّ وجلَّ مع الصّابرين بنصره وتثبيته وهو بصبره ناصر له علىٰ نفسه وهواه وشيطانه . كما قال { الله } عزَّ وجلَّ : ﴿ .. إنْ تَنْصروا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُم ﴾ [سورة محمَّد ٤٧/ ٧] .

٣٤/ أ

فإذا نصرت الله { عزَّ وجلَّ } في مخالفة نفسك وهواك بترك الاعتراض عليه ، والتَّسخُّط لفعله فيك ، وكنتَ خصماً لله علىٰ نفسك سيّافاً له عليها ، كلَّما تحرَّكت بكفرها وشركها ورعونتها جزرت رأسها

= بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فيها إِثْمٌ وَلا قَطيعَةُ رَحِمٍ ، أَعطاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِها إِحدىٰ ثَلاثٍ : إمّا أَنْ يَغْفِرَ لَهُ بِها ذَنباً قَدْ سَلَفَ ، وَإمّا أَنْ يُعَجِّلَها لَهُ في الدُّنيا ، وَإمّا أَنْ يدَّخِرَها لَهُ في الآخِرَةِ » .

بصبرك وموافقتك لربّك ، والطُّمأنينة إلىٰ فعله ووعده والرِّضا { بهما } ؛ كان الله عزَّ وجلَّ لك معيناً وناصراً .

وأمّا الصَّلاة والرَّحمة فقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . وَبَشِّرِ الصّابِرينَ الذَّينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالوا إِنّا للهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعونَ أُوْلائِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلائِكَ هُمُ المُهْتَدونَ ﴾ [سورة البقرة ٢/ ١٥٥ـ١٥٧] .

والحالة الأُخرىٰ أَنَّك تبتهل إِلىٰ ربّك عزَّ وجلَّ بالدُّعاء والتَّضرُّع إعظاماً له وٱمتثالاً لأَمره ، { ووضع الشَّيء } في موضعه لأَنَّه { ندبك } إلىٰ سؤاله والرُّجوع إليه ، وجعل لك ذالك مستراحاً ، ورسولاً منك إليه ، ومواصلة ووسيلة لديه ، بشرط ترك التُّهمة له { والتَّسخُّط } عليه عند تأخير الإجابة إلىٰ حينها .

ٱعتبرها بين الحالتين ولا تكن ممَّن يجاوز إحديهما ، فإِنَّه ليس هناك حالة أُخرىٰ .

فاحذر أَنْ تكون من { المعتَدين } الظّالمين ، فيهلكك الله عزَّ وجلَّ ولا يبالي كما أَهلك من مضىٰ من الأُمم السّابقة في الدُّنيا بتشديد بلائه وفي الآخرة بأَليم عذابه .

سبحان الله / العظيم ، يا عالِماً بحالي عليك ٱتّكالي . ٣٤/ ب

مَن حَامَ حول الحِمىٰ يوشِكُ أَنْ يقعَ فيه

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : عليك بالورع وإلاّ فالهلاك في ربقك[1] ملازم لا تنجو منه أَبداً ، إلاّ أَنْ يتغمَّدك الله عزَّ وجلَّ برحمته ،

(١) الرِّبق : الكرب .

فقد ثبت في الحديث المروي عن رسول الله [صلّىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم] أنّه قال : « إِنَّ مَلاكَ الدّين الوَرَعُ ، وَهَلاكُهُ الطَّمَعُ ، وإِنَّ مَنْ حامَ حَوْلَ الحِمىٰ يوشِكُ أَنْ يَقَعَ فيهِ ، كالرّاتِعِ إِلىٰ جَنْبِ الزَّرْعِ يوشِكُ أَنْ يَمُدَّ فاهُ إِليهِ لا يَكادُ أَنْ يَسْلَمَ الزَّرْعُ مِنْهُ »[1] .

وقد قال عمر بن الخطّاب رضيَ الله { تعالىٰ } عنه : كنّا نترك تسعة أَعشار من الحلال مخافة أَنْ نقع في الحرام . وعن أَبي بكر الصِّدّيق رضوان الله عليه : كنّا نترك سبعين باباً من المباح مخافة أَنْ نقع في الجناح[2] .

فعلوا ذالك تورُّعا من مقاربة الحرام ، أَخذاً بقول النّبيّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه سلَّم : « إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىٰ وَإِنَّ حِمىٰ الله مَحارِمُهُ ، فَمَنْ حامَ حَوْلَ الحِمىٰ يوشِكُ أَنْ يَقَعَ فيهِ »[3] .

فمن دخل حضرة الملِك فجاوز الباب الأَوّل ثمَّ الثّاني { ووقف علىٰ الباب الثّالث } ، حتّىٰ قرب من سدَّته ، خيرٌ ممّن وقف علىٰ الباب الأَوَّل الذّي يلي البرِّ ، فإِنَّه إِنْ أُغلق عنه الباب الثّالث لم يضرَّه { ذالك } إِذ هو وراء بابين من أَبواب القصر ، ومن دونه { حرّاس } الملِك وجنده .

وأَمّا إِذا كان علىٰ الباب الأَوَّل فأُغلق عنه بقيَ في البرِّ وحده ، أَخذته

---

(١) لم أَجده فيما لدي من المصادر بهاذا اللّفظ ، ويشهد له ما أَخرجه البخاري في « صحيحه » برقم ٥٢ ، عن النّعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحَلالُ بَيّنٌ ، وَالحَرامُ بَيّنٌ ، وَبَيْنَهُما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كَثيرٌ مِنَ النّاسِ ، فَمَنِ ٱتَّقىٰ ٱلْمُشَبَّهاتِ ٱسْتَبْرَأَ لِدينِهِ وَعِرْضِه ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ : كَراعٍ يَرْعىٰ حَوْلَ الحِمىٰ ، يوشِكُ أَنْ يواقِعَهُ ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىٰ ، أَلا إِنَّ حِمىٰ اللهِ في أَرْضِهِ مَحارِمُهُ . . » .

(٢) ذكرهما الزّبيدي في « الاتحاف » ج٦/ ٢٥ .

(٣) أَخرجه ابن عساكر في « تاريخه » ج٣/ ٢٧٣ ، من النّعمان بن بشير رضيَ الله عنه .

{ الزِّعار }[1] والأَعداء فكان من الهالكين .

فهاكذا من سلك العزيمة ولازمها ، إنْ سلب عنه مدد التَّوفيق / ٣٥/ أ والرِّعاية وٱنقطعت عنه حصل في الرُّخص ولم يخرج من فناء الشَّرع ، فإِنْ أَدركته المنيَّة كان علىٰ الطّاعة والعبادة ، ويُشهَد له بخير العمل .

ومن وقف مع الرُّخَص ولم يتقدَّم إلىٰ العزيمة إنْ سُلِبَ التَّوفيق وقطعت عنه أَمداده ، فغلب الهوىٰ عليه وشهوات النَّفس ، فتناول الحرام خرج من الشَّرع ، فصار في زمرة الشَّياطين أَعداء الله عزَّ وجلَّ ، الضّالين عن سبيل الهدىٰ ، فإِنْ أَدركته المنيَّة قبل التَّوبة كان من الهالكين ، إلاّ أَنْ يتغمَّده الله برحمته وفضله .

فالخطر في القيام مع الرُّخص ، والسَّلامة كلُّ السَّلامة في القيام مع العزيمة .

طلاق الدُّنيا مَهْـــرُ الجَنَّة

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ٱجعل آخرتك رأس مالِكَ ودنياك ربحه ، وٱصرف زمانك أَوَّلاً في تحصيل آخرتك ، ثمَّ إنْ فضل من زمانك شيءٍ ٱصرفه في دنياك وفي طلب معاشك . ولا تجعل دنياك رأس مالك وآخرتك ربحه ، ثمَّ إنْ فضل من زمانك { فضلة } صرفتها في آخرتك ، تقضي فيها الصَّلوات الخمس تسبكها سبكة واحدة ساقطة الأَركان ، مختلفة الواجبات من غير ركوع وسجود وطمأنينة بين الأَركان أَو يلحقك التَّعب والإعياء فتنام عن القضاء جملة ، جيفة في اللَّيل بطّالاً

(١) عديمي الأَخلاق والخير .

المبالاة بأمرها ، ونسيان يوم القيامة وما سيصيروا إليه غداً ممّا ذُكر في الكتاب / والسُّنَّة . ٣٦/ب

فانظر لنفسك وٱختر لها خير القبيلتين وأَفردها عن أَقران السّوء من شياطين الإنس والجنّ ، وٱجعل الكتاب والسُّنَّة إمامك ، وٱنظر فيهما وٱعمل بهما ، ولا تغترَّ بالقال والقيل والهوس .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَما آتاكُمُ الرَّسولُ فَخُذوه وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فٱنتَهوا وَٱتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ شَديدُ العِقاب ﴾ [سورة الحشر ٥٩/ ٧] ، { أَي وٱتقوا الله } ولا تخالفوه ، فتتركوا العمل بما جاء به وتخترعوا لأَنفسكم عملاً وعبادة ، كما قال عزَّ وجلَّ في { حقِّ } قوم ضلّوا عن سبيل الله : ﴿ . . وَرَهْبانِيَّةً ٱبْتَدَعوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِم ﴾ [سورة الحديد ٥٧/ ٢٧] .

ثمَّ إنَّه قد زكّىٰ الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمّد صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم ونزَّهه من الباطل والزُّور فقال { الله تعالىٰ } : ﴿ وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ * إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحىٰ ﴾ [سورة النَّجم ٥٣/ ٣ـ٤] ، أَي ما آتاكم به فهو من عندي لا من هواه ونفسه فاتَّبعوه .

ثمَّ قال : ﴿ قُلْ إن كُنتُمْ تُحبُّونَ اللهَ فٱتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ الله . . ﴾ [سورة آل عمران ٣/ ٣١] فبيَّن أَنَّ طريق المحبَّة ٱتِّباعه صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم قولاً وفعلاً ، فالنَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم قال : « الاكتِسابُ سُنَّتي ، وَالتَّوَكُلُّ حالَتي »[1] أَو كما قال .

---

(١) لم أَعثر عليه فيما لدي من المصادر . وقد يظنُّ بعض النّاس أَنَّ التَوكُّل يُنافي الاكتساب وتعاطي الأَسباب ، وأَنَّ الأُمور إذا كانت مقدَّرة فلا حاجة إلىٰ الأَسباب !! وهذا =

فكُن بين { سنَّته وحالته عليه الصَّلاة والسَّلام } إنْ ضَعُفَ إيمانك ، فالتّكسُّب الَّذي هو سنَّته وإنْ قوي إيمانك فحالته الَّتي هي التَّوكُّل ، قال الله تعالىٰ : ﴿ . . وَعَلَىٰ اللهِ فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنتُم مُؤْمِنين ﴾ [سورة المائدة ٥/ ٢٣] وقال { الله عزَّ وجلَّ } : ﴿ . . وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . . ﴾ [سورة الطَّلاق ٦٥/ ٣] ، وقال : ﴿ . . إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين ﴾ [سورة آل عمران ٣/ ١٥٩] .

فقد أَمرك بالتَّوكُّل ونبَّهك عليه كما أَمر نبيُّه صلّىٰ الله / { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم . ٣٧/ أ

فاتَّبع أَوامر الله عزَّ وجلَّ ورسوله في أَعمالك ، وإلاّ فهي مردودة { عليك } . قال النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم : « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ »[1] ، هاذا يعمُّ طلب الرِّزق والأَعمال والأَقوال ، ليس لنا نبيٌّ غيره فنتَّبعه ، ولا كتاب غير القرآن فنعمل به ، فلا تخرج عنهما فتهلك ، فيضلك هواك والشَّيطان .

= فاسدٌ . فإنَّ الاكتساب : منه فرضٌ ، ومنه مستحبٌّ ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام كما قد عُرِف . وقد كان النَّبيُّ ﷺ أَفضل المتوكّلين ، يلبس لأَمَةَ الحرب ، ويمشي في الأَسواق للاكتساب ، حتّىٰ قال الكافرون : ﴿ مالِ هاذا الرَّسولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشي في الأَسواق ﴾ [سورة الفرقان ٢٥/ ٧] .

(١) أَخرجه مسلم في « صحيحه » ، كتاب الأقضية ، برقم ١٨ ، عن عائشة رضيَ الله عنها .

قال أَهل العربية : الرَّدُّ هنا بمعنىٰ المردود . ومعناه : فهو باطل غير معتدٍّ به ، وهاذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام ، وهو من جوامع كلمه ﷺ ، فإنَّه صريح في ردِّ كلِّ البدع والمحدثات . وهو ممّا ينبغي حفظه وٱستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به .

قال الله تعالىٰ : ﴿ .. وَلا تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ .. ﴾ [سورة ص ٣٨/ ٢٦] .

فالسَّلامة مع الكتاب والسُّنَّة ، والهَلاك مع غيرهما ، وبهما يترقّىٰ العبد إلىٰ حالة الولاية والبدليَّة والغوثيَّة .

كأنَّ الحاسد إنَّما خُلِقَ ليَغْتاظ

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ماليَ أَراك يا مؤمن حاسداً لجارك في مطعمه ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه ، وتقلُّبه في غناه ونعم مولاه ، وقَسْمُه الَّذي قُسِمَ له ؟

أَما تعلم أَنَّ هاذا ممّا يُضعِف إِيمانك ويسقطك من عين مولاك عزَّ وجلَّ ويبغضك إِليه ؟

أَما سمعت الحديث المروي عن النَّبيّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم { أَنَّه قال : فيما يُحكىٰ } أَنَّ الله { تعالىٰ } يقول : « الحَسودُ عَدُو نِعْمَتي »[1] ؟ وما سمعت قول النَّبيّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه [وعلىٰ آله وأَصحابه] وسلَّم : « إِنَّ الحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَناتِ كَما تَأْكُلُ النّارُ الحَطَب »[2] ؟

---

(١) ذكره الغزالي في « الإحياء » ج٣/ ١٨٨ ، عن زكريا عليه السَّلام وزاد عليه : « .. متسخِّط لقضائي ، غير راضٍ بقسمتي الَّتي قسمت بين عبادي » . وله شاهد من السُّنَّة لاكنَّ سنده ضعيف ومعناه صحيح ، عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما قال : قال ﷺ : « إِنَّ لِنِعَم الله أَعداء » قيل : وَمَنْ أُولائِكَ ، قال : « الَّذينَ يحسدونَ النّاسَ علىٰ ما آتاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » .

(٢) أَخرجه أَبو داود في « سننه » برقم (٤٩٠٣) ، عن أَبي هريرة رضيَ الله عنه . وأَخرجه ابن ماجة في « سننه » برقم (٤٢١٠) ، عن أَنس بن مالك رضيَ الله عنه ، وزاد =

ثمَّ علىٰ أَيّ شيءٍ تحسده { يا مسكين } ؟ أَعلىٰ قَسْمِه أَم علىٰ قَسْمِك ؟

فإنْ حسدته علىٰ قَسْمِه { الذي } قَسَمَهُ الله تعالىٰ له به في قوله : ﴿ . . نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُم مَعيشَتَهُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيا ﴾ [سورة الزُّخرف ٤٣ / ٣٢] فقد ظلمته .

رجل يتقلَّب في { نِعَم } مولاه الَّتي تفضَّل بها عليه { وقدَّرها له } ، ولم يجعل / لأحدٍ فيها حظّاً ونصيباً ، فمن يكون أَظلم منك وأَبخل ٣٧/ ب وأَرعن وأَنقص عقلاً منك ؟

وإنْ حسدته علىٰ قَسْمِك فقد جهلت غاية الجهل ، فإِنَّ قَسْمَك لا يُعطىٰ لغيرك ، ولا ينتقل منك إليه ، حاش لله عزَّ وجلَّ . قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ مَايُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنا بظَلاَّمٍ لِلْعَبيد ﴾ [سورة ق ٥٠ / ٢٩] .

إنَّ الله { عزَّ وجلَّ } لا يظلمك فيأخذ ما قَسَمَهُ وقدَّره لك { فيعطيه

= عليه : « . . والصَّدقة تُطفئ الخطيئة كما يُطفئ الماء النّار ، والصّلاة نور المؤمن ، والصّيام جُنَّةٌ من النّار » . وهو حديث ضعيف . قال المناوي في « فيض القدير » ، ج٣/ ٤١٤ : قال الغزالي : الحسد هو المفسد للطّاعات ، الباعث علىٰ الخطيئات ، وهو الدّاء العُضال الّذي ٱبتُلي به كثير من العلماء فضلاً عن العامّة حتّىٰ أَهلكهم وأَوردهم النّار ، وحسبك أَنَّ الله تعالىٰ أَمر بالاستعاذة من شرِّ الحاسد فقال : ﴿ ومن شرِّ حاسد إذا حسد ﴾ [سورة الفلق : ١١٣/ ٥] ، كما أَمر بالاستعاذة من شرِّ الشَّيطان . فانظر كم له من شرٍّ وفتنة حتّىٰ أَنزله منزله الشّيطان والسّاحر . وينشأ عن الحسد إفساد الطّاعات ، وفعل المعاصي والشّرور ، والتَّعب والهمُّ بلا فائدة ، وعمىٰ القلب حتّىٰ لا يكاد يفهم حكماً من أَحكام الله ، والحرمان والخذلان فلا يكاد يظفر بمراد نفس دائم وعقل هاشم وغمٌ لازم . والله أَعلم . راجع كتابنا سر الأَسرار للشيخ الجيلاني رحمه الله تعالىٰ ، ص١٢٣ .

لغيرك } ، فهاذا جهل منك وظلم لأَخيك .

ثمَّ حسدك للأَرض الَّتي هي معدن الكنوز والذَّخائر من أَنواع الذَّهب والفِضة والجواهر ممّا جمعَتْهُ الملوك المتقدِّمة من عاد وثمود وكسرىٰ وقيصر أَولىٰ من حسدِك { لجارك المؤمن أَو الفاجر ، فإِنَّما [في بيته] لا يكون جزءاً من أَجزاء أَلف أَلف جزء ممّا هناك .

فما حسدك لجارك } إلاّ كمثل رجل رأىٰ ملِكاً مع سلطانه وجنوده وحشمه وملكه علىٰ الأَرض وجباية خراجها[1] { إليه } ، وٱرتفاعها لديه ، وتنعُّمه بأَنواع النَّعيم واللَّذّات والشَّهوات فلم يحسده علىٰ ذالك ، ثمَّ رأىٰ كلباً يخدم كلباً بريّاً من كلاب ذالك الملِك يقوم { ويبيت } ويصيح معه ، ويعطىٰ من مطبخ الملِك { نفاية } الطَّعام { ورداوته } ، فيقوَّت به ، فيأخذ يحسده ويعاديه ويتمنّىٰ هلاكه ، وكونه مكانه ، وأَنْ يخلفه في ذالك خِسَّة ودناءة لا زهداً وديناً وقناعة .

فهل يكون في الزَّمان رجل أَحمق منه وأَرعن وأَجهل ؟ .

٣٨/أ ثمَّ لو علمت يا مسكين ما سيلقىٰ جارك غداً من طول الحساب يوم / القيَامة إنْ لم يكن أَطاع الله { عزّ وجلَّ } فيما خوَّله من نعمه { وأَداء } حقِّه فيها ، وٱمتثل أَمره وٱنتهىٰ نهيه فيها ، وٱستعان بها علىٰ { عبادة الله تعالىٰ } وطاعته ، ممّا يتمنّىٰ أَنَّه لم يعط من ذالك ذرَّة ولا رأىٰ نعيماً يوماً قطُّ .

أَما سمعت ما قد ورد في الحديث [عن النَّبيِّ صلّىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وأصحابه وسلَّم] أَنَّه [قال] : « لَيَتَمَنّىٰ أَقوامٌ يَوْمَ القيَامَةِ أَنْ

---

(١) الخَراجُ : الضَّريبة المفروضة علىٰ البلاد الَّتي فُتحت صُلحاً .

تُقْرَضَ لُحومُهُمْ بِالمَقاريضِ مِمّا يَرَونَ لأَصحابِ البَلاءِ مِنَ الثَّوابِ »[1] ، فيتمنّىٰ جارك غداً مكانك في الدُّنيا لِما يرىٰ من طول حسابه ومناقشته وقيامه خمسين أَلف سنة في حرِّ الشَّمس في القيَامة ، لأَجل ما تمتَّع به من النَّعيم في الدُّنيا ، وأَنت في معزل { عن ذالك } في ظلِّ العرش آكلاً شارباً متنعِّماً فرحاً مسروراً مستريحاً ، لصبرك علىٰ شدائد الدُّنيا وضيقها وآفاتها وفقرها وبؤسها ، ورضاك بقَسْمِك وموافقتك لربِّك فيما دبَّر وقضىٰ من فقرك وغنىٰ غيرك ، وسقمك وعافية غيرك ، وشدَّتك ورخاء غيرك ، وذُلِّكَ وعزِّ غيرك .

جعلَنا الله وإيَاك ممّن صبر علىٰ البلاء ، وشكر علىٰ النَّعماء ، وأَسلم وفوّض الأُمور إلىٰ ربِّ الأَرض والسَّماء .

الصّدق دليل التّقوىٰ وجمال النّجوىٰ وكمالُ الدّينِ والدُّنيا

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : من عامل الله بالصِّدق { والنَّصاحة }[2] ٱستوحش ممّا سواه في المساء والصَّباح .

يا قوم لا تدعوا ما ليس لكم ، ووحِّدوا ولا تشركوا ، واللهِ إنَّ سهام القدر تصيبكم خدشاً لا قتلاً ، ومن كان في الله تَلَفه كان / علىٰ الله ٣٨/ب خلفه[3] .

---

(١) أَخرجه الطبراني في « الصَّغير » ج١/ ٨٨ . وأَخرج التِّرمذي في « الجامع الصَّحيح » برقم ٢٤٠٢ ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « يَوَدُّ أَهْلُ العافيةِ يَوْمَ القيَامَةِ حينَ يُعْطَىٰ أَهلُ البَلاءِ الثَّوابَ لَوْ أَنَّ جُلودَهُمْ كانَتْ قُرِضَتْ في الدُّنيا بالمَقاريض » . وهو حديث حسن صحيح .

(٢) نصح الشَّيءُ نَصْحاً ، ونُصُوحاً ، ونَصاحَةً : خَلَصَ .

(٣) هنالك زيادة في الأَصل ، ولم ترد في النُّسخ الأُخر ، فأحببت ذكرها هنا في الحاشية .=

الهوىٰ موطن الدّاء

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : الأَخذ مع وجود الهوىٰ من غير الأَمر عناد وشقاق ، والأَخذ مع عدم الهوىٰ وفاق وٱتّفاق ، وتركه رياء ونفاق .

أَلاَ كُلُّ شَيءٍ مَاخَلَا الله بَاطِلُ

١/٣٩ أ قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه / : لا تطمع في أَنْ تَدْخُلَ في زمرة الرّوحانيّين حتّىٰ تُعاديَ جملتك ، وتُباين جميع الجوارح والأَعضاء ، وتنفرد عن وجودك وحركاتك وسكناتك ، وسمعك وبصرك ، وكلامك وبطشك ، وسعيك وعملك وعقلك ، وجميع ما كان منك قبل وجود الرُّوح فيك ، وما أُوجد فيك بعد نفخ الرُّوح ، لأَنَّ جميع

= والزِّيادة هي : (وٱعلموا أَنكم لم توافقوا مجاري الأَقضية إلاّ قصمتكم ، وأَنّه لا يصطفي القلب حتّىٰ يُصطفىٰ ، وتصير مثل كلب رابضة علىٰ الباب ، وتنادي يا أَيّتها النَّفس المطمئنة ، ٱرجعي إلىٰ ربّك راضية مرضيّة . حينئذٍ يدخل القلب الحضرة ، ويصير كعبة الطواف الرّبُّ تعالىٰ ، ويكشف له عزَّ وجلَّ عن جلال الملك ، ويستوطن خيمة القرب ، ويغرس في جوار الملك ، ويظهر بجانبه ويخرج الفاقة ، ويسلِّم إليه دراية ويسلِّم إليه ويسمع النداء في الرَّفيق الأعلىٰ : يا عبدي وكل عبدي أَنت لي وأَنا لك ، فإذا طالت صحبته صار بطانة الملك ، وخليفته علىٰ رعيته ، وأَمينه علىٰ أَسراره ، وأَرسله إلىٰ البحر لينقذ الغرقىٰ ، أَو إلىٰ البرِّ ليهديَ الضّال ، فإنْ مرَّ علىٰ ميّت أَحياه ، أَو علىٰ عاص ذكرّه ، أَو علىٰ بعيد قرّبه ، أَو علىٰ شقي أَسعده . الولي غلام البدل ، والبدل غلام النَّبيِّ ، والنَّبيُّ غلام الرَّسول ﷺ ، مثال الولاية مثال مسامر الملك ومباطن حضرته لا يزال في صحبته إلاّ إذا ركب الخلوة مضت عروسهم ، واللَّيل سرير ملكهم ، والنَّهار يعزّيهم ، يا بني لا تَقْصُصْ رُؤياك علىٰ إخْوتِكَ) .

ذالك حجابُك عن ربّك عزَّ وجلَّ ، فإذا صِرْتَ روحاً منفردة ، سرّ السِّرِّ ، غيب الغيب ، مبايناً للأشياء في سرِّك ، متَّخذاً للكلِّ عدوّاً وحجاباً وظلمة ، كما قال { عزَّ وجلَّ } في حقِّ إبراهيم الخليل عليه الصَّلاة والسَّلام : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدوٌّ لي إلاّ رَبَّ الْعالَمين ﴾ [سورة الشُّعراء ٢٦/ ٧٧] . قال عليه السَّلام ذالك للأصنام .

فاجعل أنت جملتك وأجزاءك أصناماً مع سائر الخلق ، ولا تطع شيئاً من ذالك ولا تتَّبعه جملة ، فحينئذٍ تؤمَّن علىٰ الأسرار والعلوم اللَّدنيَّة وغرائبها ، ويَرِدُ إليك التَّكوين وخرق العادات الَّتي هي من قبيل القدرة الَّتي تكون للمؤمنين في الجنَّة ، فتكون في هاذه الحالة كأنَّك أُحييتَ بعد الموت في الآخرة ، فتكون كليَّتك { قدرة } ، تسمع بالله ، وتبصر بالله ، وتنطق بالله ، وتبطش بالله ، وتسعىٰ بالله ، وتعقل بالله ، وتطمئن وتسكن بالله ، فتعمىٰ عمّا سواه { سبحانه } وتصم عنه ، فلا ترىٰ لغيره وجوداً مع { حفظ الحدود ، والأوامر والنَّواهي } . فإذا { انخرم }[1] فيك شيء من الحدود فاعلم أنَّك مفتون متلاعبة بك الشَّياطين .

فارجع إلىٰ حكم الشَّرع والزمه ، ودع / عنك الهوىٰ ، لأنَّ كلَّ ٣٩/ب حقيقة لا تشهد لها الشَّريعة فهي زندقة .

الولايةُ مرَّة الفِطام !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأرضاه : { أَضربْ } لك مثلاً في الغنىٰ فنقول : أَلا ترىٰ المَلِك يولّي رجلاً من العوامِّ ويعطي له الولاية علىٰ

(١) نقص وانقطع .

بلدة من البلاد ، ويخلع عليه[1] ويعقد له أَلوية ورايات ، ويعطيه المكوس[2] والطَّبل والجند فيكون علىٰ ذالك برهة من الزَّمان ، حتّىٰ إذا ٱطمأن إلىٰ ذالك وٱعتقد بقاءه وثباته ، وعجب به ونسي حالته الأَوليَّة ونقصانه وفقره وخموله ، وداخلته النَّخوة والكبرياء ؛ جاءه العزل من الملِك في أَسرٍّ ما كان من أمره ، ثمَّ طالبه الملِك بجرائم صنعها وتعدّىٰ أَمره ونهيه فيها ، فحبسه في أَضيق الحُبوس وأَشدِّها ، فطال حبسه ودام ضرّه وذلّه وفقره ، وذابت نخوته وكبرياؤه ، وٱنكسرت نفسه وخمدت { ناريّة } هواه ، كلُّ ذالك بعين الملِك وعلمه ، ثمَّ { تعطَّف } الملِك عليه ، فنظر { إليه } بعين الرّأفة والرَّحمة ، فأَمر بإخراجه من الحبس والإحسان إليه ، والخلعة عليه وردِّ الولاية إليه ومثلها معها ، وجعلها { له } موهبة ، فدامت له وبقيت مصفّاة مكفّاة مهنّأة .

فكذالك المؤمن إذا قرَّبه الله تعالىٰ إليه وٱجتباه ، فتح { له } قبالة { باب } عين قلبه باب الرَّحمة والمِنَّة والإنعام ، فيرىٰ بقلبه ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر ، من مطالعة الغيوب من ملكوت السَّماوات والأَرض وتقريب ، /وكلام لذيذ لطيف ، ووعد جميل ودلال ، وإجابة دعاء وتصديق ، ووعد ووقاية وكلمات حكمة تُرمىٰ إلىٰ قلبه قذفاً من مكان بعيد ، فتظهر علىٰ لسانه ، ومع ذالك يسبغ عليه نِعمه ظاهرةً علىٰ جسده وجوارحه ، في المأكول والمشروب والملبوس ، والمنكوح الحلال والمباح ، وحفظ الحدود والعبادات الظّاهرة ، فيديم الله عزَّ وجلَّ ذالك لعبده المؤمن المجذوب برهة من

٤٠/أ

---

(١) خَلَعَ عَلَيْهِ خِلْعَةً : أَلبَسهُ إيّاها .

(٢) الضَّريبة الَّتي تُفرض علىٰ البضائع الواردة إلىٰ البلد من الخارج . وهي ما يسمّىٰ في عصرنا هاذا بضريبة الجمارك .

الزَّمان ، حتّىٰ { إذا } اطمأن العبد إلىٰ ذالك واغترَّ به واعتقد دوامه ، فتح الله تعالىٰ عليه أَبواب البلاء وأَنواع المحن في النَّفس والمال والأَهل والولد { والقلب } ، فينقطع عنه جميع ما كان قد أَنعم الله عليه من قبل ، فيبقىٰ متحيّراً حسيراً منكسراً مقطوعاً به .

إنْ نظر إلىٰ ظاهره رأىٰ به ما يسُؤُهُ ، وإنْ نظر إلىٰ قلبه وباطنه رأىٰ ما يُحزنه ، وإنْ سأل الله كَشْفَ ما به من الضُّرِّ لم يَرَ إجابة ، وإنْ طلب وعداً جميلاً لم يجده سريعاً ، وإنْ وُعد بشيءٍ لم يعثر علىٰ الوفاء به ، وإنْ رأىٰ رؤيا لم يظفر بتعبيرها وتصديقها ، وإنْ { رام } الرُّجوع إلىٰ الخلق لم يجد إلىٰ ذالك سبيلاً ، وإنْ ظهرت له رخصة في ذالك فعمل بها تسارعت العقوبات نحوه ، وتسلَّطت أَيدي الخلق علىٰ جسمه ، وأَلسنتهم علىٰ عرضه ، وإنْ طلب الإقالة فيما قد أُدخل فيه من الحالة والرُّجوع إلىٰ الحالة الأَوليّة قبل الاجتباء لم { يُقَلْ } ، وإنْ طلب الرِّضا والطِّيبة والتَّنعُّم بما به من البلاء/ لم يعط . ٤٠/ب

فحينئذٍ تأخذ النَّفس في الذَّوبان ، والهوىٰ في الزَّوال ، والإرادات والأَماني في الرَّحيل ، { والأَكوان } في التَّلاشي ، فيُدام له ذالك ، بل يزداد تشدُّداً { وعسراً } وتأكيداً ، حتّىٰ إذا فَنيَ العبد من الأَخلاق الإنسانيّة { والصِّفات } البشريّة فبقيَ روحاً فقط ، يسمع نداء في باطنه : اركض برجلك هاذا مغتسل بارد وشراب . كما قيل لأَيّوب عليه الصَّلاة والسَّلام[1] ، { فيمطر } الله عزَّ وجلَّ علىٰ قلبه بحار رحمته ورأفته ولطفه ومنَّته ، { ويحيّيه } بروحه { ويطيّبه } بمعرفته ودقائق علومه ،

---

(١) وهو مصداق قول الله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَاذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [سورة ص ٣٨/ ٤٢] .

{ ويفتح } عليه أَبواب نعمه ودلاله ، { ويُطلق إِليه الأَيدي } بالبذل والعطاء والخدمة في سائر الأَحوال والأَلسن بالحمد والثَّناء ، والذِّكر الطَّيِّب في جميع المحال ، والأَرجل بالتِّرحال ، { ويذلِّل } له الرِّقاب { ويسخَّر } له الملوك والأَرباب ، { ويسبغ عليه } نعمه باطنة وظاهرة ، يتولىٰ تربية ظاهره بخلقه ونعمه ، وٱستأثر تربية باطنه بلطفه وكرمه ، { ويديم } له ذالك إِلىٰ اللِّقاء ، ثمَّ يُدخله فيما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر ، كما قال جلَّ وعلا : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانوا يَعْمَلون ﴾ [سورة السَّجدة : ٣٢/ ١٧] .

في الشَّهد والحنظل دوار !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : النَّفس لها حالتان لا ثالث لهما . حالة عافية ، وحالة بلاء .

فإذا كانت في بلاء فالجزع والشَّكوىٰ والسّخط والاعتراض والتّهمة للحقِّ عزَّ وجلَّ ، لا صبر ولا رضىٰ ولا موافقة ، / بل سوء الأَدب والشّرك بالخلقِّ والأَسباب والكفر . ٤١/أ

وإِذا كانت في عافية فالأَشر والبطر وٱتِّباع الشَّهوات واللَّذّات ، كلَّما نالت شهوة طلبت أُخرىٰ ، { وٱستزرأت }[1] ما عندها من النَّعيم من مأكول ومشروب وملبوسٍ ومنكوح ومكسوب ومركوب ، فتخرج { لكلِّ واحدة } من هذه النِّعم عيوباً ونقصاناً ، وتطلب أَعلىٰ منها وأَسنىٰ ممّا

(١) ٱستهزأت .

{ لم } يُقسم لها ، وتُعرِض عمَا قُسِمَ لها فتوقع الإنسان في تعب طويل ولا ترضىٰ بما في يديها وما قسم لها ، فترتكب الغمرات وتخوض المهالك في تعب طويل لا غاية { له } ولا منتهىٰ في الدُّنيا ، ثمَّ في العقبىٰ كما قيل : إنَّ من أَشد العقوبات طلب ما لا يقسم .

فإذا كانت في بلاء لا تتمنّىٰ سوىٰ ٱنكشافه وتنسىٰ كلَّ نعيم وشهوة ولذّة ، ولا تطلب شيئاً منها ، فإذا عوفيتْ منه رجعتْ إلىٰ رعونتها وأَشرها وبطرها وإعراضها عن طاعة ربِّها وٱنهماكها في معاصيه ، وتنسىٰ ما كانت فيه من أَنواع البلاء ، وما حلَّ بها من الويل ، فتردُّ إلىٰ أَشدِّ ما كانت عليه من أَنواع البلاء والضُّرِّ عقوبة لها بما قد ٱجترمت وركبت من العظائم ، فطماً لها وكفّاً عن المعاصي في المستقبل ، إذ لا { تصلح } لها العافية والنِّعمة ، بل حفظها في البلاء والبؤس .

فلو أَحسنت الأَدب عند ٱنكشاف البليّة ولازمت الطّاعة والشُّكر والرِّضا بالمقسوم لكان خيراً لها دنيا وأُخرىٰ ، فكانت تجد / زيادة في النَّعيم والعافية والرِّضا من الله عزَّ وجلَّ ، والطِّيبة والتَّوفيق واللُّطف . ٤١/ب

فمن أَراد السَّلامة في الدُّنيا والآخرة فعليه بالصَّبر والرِّضا ، وترك الشَّكوىٰ إلىٰ الخلق ، وإنزال حوائجه بربِّه عزَّ وجلَّ ، ولزوم طاعته ، وٱنتظار الفرج منه عزَّ وجلَّ والانقطاع إليه عزَّ وجلَّ ، [إذ] هو خير من غيره ومن جميع خلقه ، حرمانه عطاء ، وعقوبته نعماء ، وبلاؤه دواء ، ووعده نقد نسيئتُه[1] ، وحالة قوله فعل ، إنَّما قوله وفعله : ﴿ .. إذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكون ﴾ [سورة يس : ٣٦/ ٨٢] .

كلُّ أَفعاله حسنةٌ وحكمة ومصلحة ، غير أَنَّه عزَّ وجلَّ طوىٰ علم

(١) أَي أَنَّ وعد الله تعالىٰ نافذ وإن أَجَّلَهُ .

المصالح عن عباده وتفرَّد به ، فالأَولىٰ للعبد واللاَّئق بحالة الرِّضا والتَّسليم ، والاشتغال بالعبوديَّة من أَداء الأَوامر وٱجتناب النَّواهي والتَّسليم في القدر ، وترك الاشتغال بالرُّبوبيَّة الَّتي هي علَّة الأَقدار ومجاريها وأُصولها ، والسُّكوت عن لم وكيف ومتىٰ ، والتُّهمة للحقِّ عزَّ وجلَّ في جميع حركاته وسكناته .

وتستند هاذه الجملة إلىٰ حديث عبد الله بن عبّاس رضي الله { تعالىٰ } عنهما قال : بينما أَنا رديف رسول الله صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم إذ قال لي يا غلام : « ٱحْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، ٱحْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ ، وَإذا سَأَلْتَ فاسْأَلِ اللهَ ، وَإذا ٱسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بِاللهِ ، جَفَّ القَلَمُ بِما هُوَ كائِنٌ ، فَلَوْ جَهِدَ العِبادُ أَنْ يَنْفَعوكَ بِشَيءٍ لَمْ / يَقْضِهِ اللهُ لَكَ لَمْ يَقْدِروا عَلَيْهِ ، وَلَوْ جَهِدَ العِبادُ أَنْ يَضُرّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِروا عَلَيْهِ ، فَإِنْ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تُعامِلَ اللهَ بِالصِّدْقِ في اليَقينِ فاعْمَلْ ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فإِنَّ في الصَّبْرِ عَلىٰ ما تَكْرَهُ خَيْراً كَثيراً ، وَٱعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَالفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا »[١] .

٤٢/أ

فينبغي لكلِّ مؤمن أَن يجعل هاذا الحديث { مرآة } لقلبه وشعاره ودثاره وحديثه ، فيعمل به في جميع حركاته وسكناته ، حتّىٰ يسلَمَ في الدُّنيا والآخرة ويجد العزَّة فيهما ، برحمة الله عزَّ وجلَّ .

إذا سألت فاسأل الله

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ما سأَل النّاس من سأَل إلاّ

---

(١) أَخرجه أَحمد في « مسنده » ج١/ ٣٠٧ ، عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما . وهو حديث صحيح .

لجهله بالله عزَّ وجلَّ ، وضعف إيمانه ومعرفته ويقينه ، وقلَّة صبره ، وما تعفَّف من تعفَّف عن ذالك إلاّ { لوفور } علمه بالله عزَّ وجلَّ ، وقوَّة إيمانه ويقينه ، وتَزايُد معرفته بربِّه عزَّ وجلَّ في كلِّ { يوم } ولحظة ، وحيائِه منه عزَّ وجلَّ .

طِرْ إليه بجناحي الخوف والرَّجاء

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : إنَّما لم يستجب للعارف كلَّما يسأل ربَّه عزَّ وجلَّ ويوفي له بكلِّ وعد لئلا يغلب عليه الرَّجاء فيهلك ، لأَنَّ ما من حالة ومقام إلاّ ولذالك خوف ورجاء ، هما كجناحي طائر لا يتمُّ الإيمان إلاّ بهما[1] ، وكذالك الحال والمقام ، غير أَنَّ خوف كلِّ حالة ورجاءها بما يليق بها .

فالعارف مقرَّب ، وحالته ومقامه أَنْ لا يريد شيئاً سوىٰ الله عزَّ وجلَّ ، ولا يركن ولا يطمئن إلىٰ غيره { عزَّ وجلَّ } ، ولا يستأنس بغيره { عزَّ وجلَّ } ، فطلبه لإجابة سؤاله والوفاء بعهده / غير ما هو بصدده ولائق ٤٢/ب بحاله ، ففي ذالك أَمران اثنان :

---

(١) الخوف والرَّجاء كجناحي الطّائر إذا ٱستويا ٱستوىٰ الطَّير ، وتمَّ طيرانُه ، وإذا نَقَصَ أَحدُهما ، وقع فيه النَّقص ، وإذا ذهبا صار الطَّائر في حدِّ الموت ، وقد مدح الله تعالىٰ أَهل الخوف والرَّجاء بقوله : ﴿ أَمَّن هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجداً أَو قائماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [سورة الزُّمر٣٩ / ٩] وقال أَيضاً : ﴿ تَتَجافىٰ جُنوبُهُم عَن المَضاجِعِ يَدْعونَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ [سورة السَّجده ٣٢/ ١٦] .
فالرَّجاء يَستلزم الخوف ، ولولا ذالك لكان أَمناً ، والخوف يستلزم الرَّجاء ، ولولا ذالك لكان قنوطاً ويأساً .

أَحدهما لئلا يغلب عليه الرَّجاء والغرَّة بمكر ربّه عزَّ وجلَّ ، فيغفل عن القيام بأَدبه فيهلك .

والآخر شركه بربّه عزَّ وجلَّ شيء سواه ، إِذ لا معصوم في العالم في الظّاهر بعد الأَنبياء عليهم [الصَّلاة] والسَّلام .

ولا يجيبه ولا يوفي له كيلا يسأل عادة ويريد طبعاً لا ٱمتثالاً للأَمر ، لِمَا في ذالك من الشِّرك ، والشِّرك كبيرة في الأَحوال كلِّها والأَقدام جميعها والمقامات بأَسرها .

وإِذا كان السّؤال بأَمر فذالك ممّا { يزيده } قرباً كالصَّلاة والصَّوم وغيرهما من الفرائض والنَّوافل ، لأَنَّه يكون في ذالك ممتثلاً في الأَوامر .

حبيبٌ على ما كان منه حبيبُ !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ٱعلم أَنَّ النّاس رجلان : منعم عليه ، ومبتلىً بما قضىٰ ربّه عليه .

فالمنعم { عليه } لا يخلوا من النّغصة والتّكدُّر فيما أُنعم عليه ، فهو أَنعم ما يكون من ذالك إِذا جاء القدر بما يكدره عليه ، من أَنواع الرَّزايا والبلايا من الأَمراض والأَوجاع والمصائب في النَّفس والمال والأَهل والأَولاد فيتنغَّص بذالك ، فكأَنَّه لم يُنعم عليه قطُّ ، وينسىٰ ذالك النَّعيم وحلاوته ، وإِنْ كان الغنىٰ قائماً بالمال والجاه والعبيد والإِماء والأَمن من الأَعداء ، فهو في حال النَّعماء كأن لا بلاء في الوجود ، وفي { حال } البلاء كأن لا نعيم في الوجود ، كلُّ ذالك لجهله بمولاه { عزَّ وجلَّ } .

٤٣/أ فلو علم أَنَّ مولاه { عزَّ وجلَّ } فعّال / لِما يُريد ، يغيّر ويُبدِّل ، ويُحْلي ويمر ، ويُغني ويُفقر ، ويَرفع ويُخفض ، ويُعزُّ ويُذلُّ ، ويُحيي ويُميت ،

ويُقدِّم ويُؤخِّر ، لَما ٱطمأن إِلىٰ ما به من النَّعيم ، وَلَما ٱغترَّ به ، وَلَما أَيس من الفرج في حالة البلاء ، ولِجهله أَيضاً بالدُّنيا { ٱطمأن إِليها ، وطلب فيها صفاءً لا يشوبه كدر ، ونسيَ أَنَّها } دار بلاء وتنغيص ، وتكاليف { وتكدير } ، وأَنَّ أَصلها بلاء وطارفها نعماء[1] ، فهي كشجرة الصَّبر أَوَّلُ ثمرتها مُرَّةٌ وآخرها شهد حلو ، لا يصل المرء إِلىٰ حلاوتها حتّىٰ يتجرَّع مرارتها ، فلن يبلغ الشَّهدَ إِلاّ بالصَّبر علىٰ المرِّ .

فمن صبر علىٰ بلائها حلَّ له نعيمها ، إِنَّما يُعطىٰ الأَجير أَجره بعد عرق جبينه[2] ، وتعب جسده ، وكرب روحه ، وضيق صدره . وذهاب قوَّته ، وإِذلال نفسه ، وكسر هواه في خدمة مخلوق مثله ، فلمّا تجرَّع هاذه المرائر { كلّها } أَعقبت له طيب طعام وإِدام وفاكهة ولباس وراحة وسرور ولو أَقلَّ قليل .

فالدُّنيا أَوَّلها مرَّة كالصَّحفة العليا من عسل في ظرف مشوبة بمرارة ، فلا يصل الآكل إِلىٰ قرار الظَّرف وتناول الخالص منه إِلاَّ بعد تناول الصَّحفة العليا ، فإِذا صبر العبد علىٰ أَداء أَوامر الله عزَّ وجلَّ وٱنتهاء نواهيه ، والتَّسليم والتَّفويض فيما يجري به القَدَر ، وتجرَّع مرائر ذالك كلِّه وتحمَّل أَثقاله ، وخالف هواه وترك مراده ، أَعقبه الله عزَّ وجلَّ بذالك طيب عيش في آخر عمره والدَّلال والرَّاحة والعزَّة / ، ويتولاَّه ويغذّيه كما يغذّي ٤٣/ب الطِّفل الرَّضيع من غير { تكلُّف } منه وتحمُّل مؤنة وتبعة في الدُّنيا والآخرة ، كما يتلذَّذ آكل المرِّ من الصَّحفة العليا من العسل بأكله من قرار

---

(١) أُمور الدُّنيا المستحدثة وغير الثّابتة علىٰ حال النَّماء .

(٢) وهاذا مصداق قول النَّبيّ ﷺ ، الَّذي أَخرجه ابن ماجة في « سننه » برقم ٢٤٤٣ ، عن ابن عمر رضيَ الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَعطوا الأَجيرَ أَجْرَهُ ، قَبْلَ أَنْ يَجُفَّ عَرَقُهُ » .

الظَّرف . فينبغي للعبد المنعَم عليه أَلاّ يأمن مكر الله عزَّ وجلَّ ، فيغترَّ بالنِّعمة ويقطع بداومها ، ويغفل عن شكرها ويرخي قيدها بتركه لشكرها ، قال النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم وعلى آله وسلَّم : « النِّعْمَةُ وَحْشِيَّةٌ فَقَيِّدوها بِالشُّكْرِ »[1] .

فشكر نعمة المال الاعتراف بها للمنعِم المتفضِّل وهو الله عزَّ وجلَّ ، والتَّحدُّث بها لنفسه في سائر الأَحوال ، ورؤية فضله ومنَّته عزَّ وعلا وجلَّ ، وأَلاّ يتملَّك عليه ولا يتجاوز حدَّه فيه ، ولا يترك أَمره فيه ، ثمَّ بأَداء حقوقه من الزَّكاة وكفّارة الذُّنوب والنُّذور والصَّدقة وإِغاثة الملهوف ، وٱفتقاد أَرباب الحاجات وأَهلها في الشَّدائد عند تقلُّب الأَحوال وتبدُّل الحسنات بالسَّيِّئات ، أَعني ساعات النِّعم والرَّخاء بالبأساء والضَّرّاء .

وشكر نعمة العافية في الجوارح والأَعضاء بالاستعانة بها { علىٰ } الطّاعات والكفِّ عن المحارم والسَّيِّئات ، والمعاصي والآثام ، فذالك قيد النِّعمة عن الرِّحلة والذَّهاب ، وسقي شجرتها ، وتنمية أَغصانها وأَوراقها ، وتحسين ثمرتها ، وحلاوة طعمها ، وسلامة عاقبتها / ، ٤٤/أ ولذاذة مضغها ، وسهولة بلعها ، وتعقب عافيتها وريعها في الجسد ، ثمَّ ظهور بركتها علىٰ الجوارح من أَنواع الطّاعات والقُربات والأَذكار ، ثمَّ دخول العبد بعد ذالك في الآخرة في رحمة الله عزَّ وجلَّ والخلود في الجنّات مع النَّبيّين والصِّدّيقين والشُّهداء والصّالحين وحسن أُولائك

---

(١) لم أَعثر عليه فيما لدي من المصادر ، لاكن وجدت عند البيهقي في « الآداب » برقم ٢٥٧ ، عن يحيىٰ بن عبد الله ، عن النَّبي ﷺ : « مَنْ أُنزلت إِليهِ نِعْمَةٌ فَلْيَشْكُره » . وأخرج البيهقي عن عمر بن عبد العزيز أَنَّه قال : قيدوا نِعَمَ الله عزَّ وجلَّ بالشُّكر لله عزَّ وجلَّ ، وشكر الله ترك معصيته .

رفيقاً ، فإنْ لم يفعل { ذالك } وٱغترّ بما ظهر من زينتها و{ ما } ذاق من لذاذتها ، وٱطمأن إلىٰ بريق سرابها ، وما لاح من برقها ، وما هبَّ من نسيم أَوَّل نهار قبضها ، ونعومة جلود حيّاتِها وعقاربها ، وغفل { وعميَ } عن سمومها القاتلة المودعة في أَعماقها { ومكامنها } ومصائدها المنصوبة لأَخذه وحبسه وهلاكه ، فليهنأ بالرَّدىٰ وليستبشر بالعطب والفقر العاجل مع الذُّلّ والهوان في الدُّنيا والعذاب الآجل في النّار [واللَّظىٰ] .

وأَمّا المبتلىٰ فتارة يُبتلىٰ عقوبةً ومقابلة لجريمة ٱرتكبها ومعصية ٱقترفها ، وأُخرىٰ يُبتلىٰ تكفيراً وتمحيصاً ، وأُخرىٰ يُبتلىٰ لارتفاع الدَّرجات وتبليغ المنازل العاليات في الآخرة ، ليلحق بأَولي العلم من أهل الحالات والمقامات ، { ممَّن } سبقت { لهم } عناية ربِّ الخليقة والبريّات ، وسيَّرهم مولاهم في ميادين البليّات علىٰ مطايا الرِّفق والأَلطاف ، وروَّحهم بنسيم النَّظرات { واللَّمحات } واللَّحظات / في الحركات والسَّكنات ، إذ لم يكن { ٱبتلاهم للإهلاك } والإهواء في الدّركات ، ولاكن ٱختبرهم بها للاصطفاء والاختيار ، وٱستخرج بها حقيقة الإيمان ، وصفّاها وميَّزها من الشِّرك والدَّعاوىٰ والنِّفاق ، ويحلّهم بها أَنواع العلوم والأَسرار والأَنوار ، فجعلهم من { الخُلَّصِ الخواصِّ } ، ٱئتمنهم علىٰ أَسراره ، وٱرتضاهم لمجالسته دنيا وأُخرىٰ ، في الدُّنيا بقلوبهم ، وفي الآخرة بأَجسادهم .

44/ب

قال صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « الفُقَراءُ الصُّبَرُ جُلَساءُ الرَّحمانِ يَوْمَ القِيَامَةِ »(1) فكانت البلايا مطهِّرة لقلوبهم من

---

(1) قطعة من حديث . أَخرجه الدَّيلمي في « الفردوس » برقم ٤٩٩٣ ، عن عمر بن =

درن الشِّرك ، والتَّعلُّق بالخلق والأَسباب والأَماني والإرادات ، وذوّابة لها ، وسباكة من الدَّعاوي والهوسات ، وطلب الأَعواض بالطّاعات من الدَّرجات والمنازل العليا في الآخرة في الفردوس والجنّات .

فعلامة الابتلاء ـ علىٰ وجه المقابلة والعقوبات ـ عدم الصَّبر عند { وجودها } ، والجزع والشَّكوىٰ إِلىٰ الخليقة والبريّات .

وعلامة الابتلاء ـ تكفيراً وتمحيصاً للخطيئات ـ وجود الصَّبر الجميل من غير شكوىٰ ، وإِظهار الجزع إِلىٰ الأَصدقاء والجيران ، والتَّضجُّر بأَداء الأَوامر والطّاعات .

وعلامة الابتلاء ـ لارتفاع الدَّرجات ـ وجود الرِّضا والموافقة ، وطمأنينة النَّفس والسُّكون لفعل إِلٰه الأَرض والسَّماوات / ، والفناء فيها إِلىٰ حين { الانكشاف } بمرور الأَيّام والسّاعات . ٤٥/أ

اِذكره تكفىٰ ما أَغمك

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه في قول النَّبيِّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم عن ربّه عزَّ وجلَّ : « مَنْ شَغَلَهُ ذِكْري مِنْ مُسَاءَلَتي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ما أُعطي السّائِلينَ »[1] .

وذالك أَنَّ المؤمن إِذا أَراد الله عزَّ وجلَّ ٱصطفاءه وٱجتباءه ، سلك به

= الخطّاب قال : قال رسول الله ﷺ : « لِكُلِّ شيءٍ مِفْتاحٌ ، وَمِفْتاحُ الجَنَّةِ حُبُّ المَساكينَ ، والفُقَراء الصُّبَّرُ هُمْ جُلَساءُ اللهِ يَوْمَ القِيامَةِ » . وهو حديث موضوع .

(١) قطعة من حديث . أَخرجه التِّرمذيُّ في « الجامع الصَّحيح » برقم ٢٩٢٦ ، عن أَبي سعيد رضيَ الله عنه . وتتمّته : « . . وَفَضْلُ كَلامِ اللهِ عَلىٰ سائِرِ الكَلامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلىٰ خَلْقِهِ » . وهو حديث حسن غريب .

في الأَحوال وٱمتحنه بأَنواع المحن والبلايا والمصائب ، فيفقره بعد الغنىٰ ، ويضطره إلىٰ مساءَلة الخلق في الرِّزق عند سدِّ جهاته عليه ، ثمَّ يصونه { عن } مساءَلتهم ، فيضطره إلىٰ القرض منهم ، ثمَّ يصونه عن القرض ، فيضطره إلىٰ الكسب ويسهِّله عليه { وييسِّره له } ، فيأكل بالكسب الَّذي هو السُّنَّة ، ثمَّ يعسِّره عليه ويلهمه بالسُّؤال للخلق ، ويأمره به بأَمر باطن يعلمه ويعرفه ويجعل عبادته فيه ومعصيته في تركه ، ليزول بذالك هواه وتنكسر نفسه ، وهي حالة الرّياضة ، فيكون سؤاله علىٰ وجه { الإخبار } لا علىٰ وجه الشِّرك بالجبّار ، ثمَّ يصونه عن ذالك ويأمره بالقرض منهم أَمراً جزماً لا { يمكنه } تركه كالسُّؤال من قبل ، ثمَّ ينقله من ذالك ويقطعه عن الخلق ومعاملتهم ، فيجعل رزقه في السُّؤال لله عزَّ وجلَّ فيسأله جميع ما يحتاج { إليه } ، فيعطيه عزَّ وجلَّ ، ولا يعطيه إنْ سكت وأَعرض عن السّؤال ، ثمَّ ينقله من السّؤال باللِّسان إلىٰ السّؤال بالقلب ، فيسأله بقلبه جميع ما يحتاج / { إليه } فيعطيه ، حتّىٰ لو سأَله بلسانه لم ٤٥/ب. يعطه ، أَو سأَل الخلق لم يعطوه .

ثمَّ { يغنيه } عنه وعن السّؤال جملة ، ظاهراً وباطناً ، فيباديه بجميع ما يصلحه ، ويقوِّم به أَوَدُهُ[1] من المأكول والمشروب والملبوس وجميع مصالح البشر ، من غير أَنْ يكون هو فيها أَو يخطر بباله ، فيتولاّه عزَّ وجلَّ ، وهو قوله { عزَّ وجلَّ } : ﴿ إِنَّ وَلِّيَ ٱللهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّىٰ ٱلصّالِحين ﴾ [سورة الأَعراف ٧/ ١٩٦] .

فيتحقَّق { حينئذٍ } قوله { عزَّ وجلَّ } : « مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مُساءَلَتي أَعْطَيتُهُ أَفْضَلَ ما أُعطي السّائِلينَ » .

---

(١) قوَّته ، وهي كناية عمّا يحتاجه في الحياة .

وهي حالة الفناء الَّتي هي غاية أَحوال الأَولياء والأَبدال ، ثمَّ قد يَرِدُ إليه التَّكوين ، فيكوِّن جميع ما يحتاج إليه بإذن الله عزَّ وجلَّ ، وهو قوله عزَّ وجلَّ في بعض كتبه { المنزلة } (يا بنَ آدم أَنا الله الَّذي لا إِلٰه إلاّ أَنا أَقولُ للشيء كن فيكون ، أَطعني { أَجعلك } تقول للشيء كن فيكون) .

صوى على درب الهوى

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : سأَلني رجل شيخ في المنام فقال لي : أَيُّ شيء { يقرِّب } العبد إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ؟

فقلت : لذالك ٱبتداء وٱنتهاء .

فابتداؤه الورع ، وٱنتهاؤه الرِّضا والتَّسليم والتَّوكُّل .

لو صحّ منك الهوىٰ أُرشدت للْعَمَلِ

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ينبغي للمؤمن أَنْ يشتغل أَوَّلاً بالفرائض ، فإذا فرغ { منها } ٱشتغل بالسُّنن ، ثمَّ يشتغل بالنَّوافل والفضائل فما لم يفرغ من الفرائض .

فالاشتغال بالسُّنن حمق ورعونة ، فإنْ ٱشتغل بالسُّنن والنَّوافل قبل
٤٦/أ الفرائض / لم يُقبل منه وأُهين .

فمَثَلُه كمثل رجلٌ يدعوه الملِك إلىٰ خدمته فلا يأتي إليه ويقف في خدمة الأَمير الَّذي هو غلام الملِك وخادمه وتحت يده وولايته .

عن عليّ بن أَبي طالب كرَّم الله وجهه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « إنّ مصلّ النَّوافِلِ وَعَلَيْهِ

فَريضَةٌ كَمَثَلِ ٱمرأة حَمَلَتْ ، فَلَمّا دَنا نَفاسُها أَسْقَطَتْ ، فَلا هيَ ذَاتُ حَمْلٍ وَلا هيَ ذاتُ وَلَدٍ ، كَذالِكَ المُصَلّي لا يَقْبَلُ اللهُ لَهُ نافِلَةً حَتَّىٰ يُؤَدّي الفَريضَةَ »[1] ، [ومثل المصلّي كمثل التّاجر لا يخلُص له ربحه حتّىٰ يأخذ رأس ماله] .

وكذالك من ترك السُّنَّة وٱشتغل بالنَّوافل الَّتي لم ترتب مع الفرائض ، ولم يُنَصُّ عليها ، ولم يؤكَّد أَمرها .

فمن الفرائض ترك الحرام والشِّرك بالله عزَّ وجلَّ خلقه ، والاعتراض عليه في قَدَرِه وقضائه ، وإجابته الخلق وطاعتهم ، والإعراض عن أَمر الله وطاعته ، قال النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « لا طاعَةَ لِمَخْلوقٍ في مَعْصِيَةِ { الخالِقِ } »[2] .

لا كحل للعاشق إلّا السُّهـــاد !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : من ٱختار النَّوم علىٰ السَّهر الَّذي هو سبب اليقظة فقد ٱختار الأَنقص والأَدنىٰ واللُّحوق بالموت والغفلة عن جميع المصالح ، لأَنَّ النَّوم أَخو الموت ، ولهاذا لا يجوز النَّوم علىٰ الله عزَّ وجلَّ لِما ٱنتفىٰ { عزَّ وجلَّ عن } النَّقائص أَجمع ، وكذالك الملائكة لمّا قربوا منه عزَّ وجلَّ نفىٰ عنهم النَّوم ، وكذالك أَهل

(١) لم أَعثر عليه فيما لدي من المصادر .

(٢) أَخرجه أَحمد في « مسنده » ج١/١٣١ ، عن عليّ رضيَ الله عنه . وأَخرجه ابن أَبي شيبة في « المصنّف » ج١٢/٥٤٦ ، عن الحسن رضيَ الله عنه ، وهو حديث صحيح .

٤٦/ب الجنَّة لمّا كانوا في أَرفع المواضع / وأَطهرها وأَنفسِها وأَكرمِها نفىٰ النَّوم عنهم لكونه نقصاً في حالتهم .

فالخير كلُّ الخير في اليقظة ، والشَّرُّ كلُّ الشَّرِّ في النَّوم والغفلة عن المصالح .

فمن أَكل بهواه أَكل كثيراً ، { فشرب كثيراً } ، فنام كثيراً ، { فندم كثيراً طويلاً } ، وفاته خير كثير .

ومن أَكل قليلاً من الحرام { كان كمن أَكل كثيراً } من المباح بهواه ، لأَنَّ الحرام يغطّي الإيمان ويُظلِمُه[1] ـ كالخمر يُظلم العقل ويغطيه ـ ، فإِذا أَظلم الإيمان فلا صلاة ولا عبادة ولا إخلاص .

ومن أَكل من الحلال كثيراً بالأَمر كان كمن أَكل منه قليلاً في النَّشاط في العبادة والقوَّة .

فالحلال نور في نور ، والحرام ظلمة في ظلمة ، لا خير فيه .

فأَكلُ الحلال بهواه بغير الأَمر ، { وأَكل } الحرام { في الجملة مستجلبات } للنَّوم ، فلا خير فيه .

هوىٰ كُلِّ نفسٍ حيث حلَّ حبيبُها

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : لا يخلوا أَمرك من قسمين :

---

(١) قال سهل التُّسْتَريّ : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتّىٰ يكون فيه أَربع خصال : أَداء الفرائض بالسُّنَّة ، وأَكل الحلال بالورع ، وأَجتناب النَّهي من الظَّاهر والباطن ، والصَّبر علىٰ ذالك إلىٰ الموت .

إمّا أَنْ تكون غائباً عن القُرب من الله عزَّ وجلَّ ، { أَو } قريباً منه واصلاً إليه .

فإِنْ كنت غائباً عنه فما قعودك وتوانيك عن الحظِّ الوافر ، والنَّعيم والعزِّ الدّائم ، { والكفاية } الكبرىٰ ، والسَّلامة والغنىٰ والدَّلال في الدُّنيا والأُخرىٰ ؟

فقم وأَسرع في الطَّيران إِليه عزَّ وجلَّ { بجناحين } ، أَحدهما : ترك اللَّذّات والشَّهوات الحرام منها والمباح ، والرّاحات أَجمع . والآخر : ٱحتمال الأَذىٰ والمكارة وركوب العزيمة والأَشدُ ، والخروج من الخلق والهوىٰ والإِرادات والمنىٰ / دنيا وأُخرىٰ ، حتّىٰ تظفر بالوصول والقُرب . ٤٧/ أ

فتجد عند ذالك جميع ما تتمنّىٰ ، وتحصل لك الكرامة العظمىٰ والعِزَّة الكبرىٰ .

وإِنْ كنت من المقرَّبين الواصلين إِليه عزَّ وجلَّ ، ممَّن أَدركتهم العناية ، وشملتهم الرِّعايَة ، وجذبتهم المحبَّة ، ونالتهم الرَّحمة والرّأفة ؛ فأَحسن الأَدب ، ولا تغترَّ بما أَنت فيه ، فتقصِّر في الخدمة ، ولا تُسيء الأَدب في الخدمة ، ولا تخلُد إِلىٰ الرُّعونة الأَصليَّة من الجهل والظُّلم والعجلة في قوله تعالىٰ : ﴿ وَحَمَلَها الإنسان إِنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولا ﴾ [سورة الأَحزاب : ٣٣/ ٧٢] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ . . وَكانَ الإِنسانُ عَجولا ﴾ [سورة الإِسراء : ١٧/ ١١] .

وٱحفظ قلبك من الالتفات إِلىٰ ما قد تركته من الخلق والهوىٰ { والإِرادات ، والتَّجبُّر } والتَّدبير ، وترك الصَّبر والموافقة عند نزول البلاء ، وٱستطرح بين يدي الله عزَّ وجلَّ كالكرة بين يدي الفارس يقلِّبها

حقَّهما ، لأنَّهما يطالبانه عزَّ وجلَّ عند سؤال المؤمن بالإجابة ، وقد تحصل الإجابة { ولا } يحصل النَّقد والنَّفاذ لتعويق القدر ، لا علىٰ وجه عدم الإجابة والحرمان والصَّدِّ .

فليتأدَّب العبد عند نزول البلاء ، وليفتِّش عن ذنوبه في ترك الأَوامر وٱرتكاب المناهي ما ظهر منها وما بطن / ، والمنازعة في القدر إذ الغالب عليه ، إنّمَا يبتلي { لذالك } مقابلة ، فإِنْ ٱنكشف البلاء ، وإِلاّ فليخلد إِلىٰ البكاء والتَّضرُّع والاعتذار ، ويديم السّؤال لجواز أَنْ يكون ٱبتلاه ليسأَله ولا يتَّهمه لتأخير الإجابة لِما بيّنا . ٤٨/ب

شكرُ المولىٰ هُوَ الأُولىٰ

{ قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ٱطلبوا من الله عزَّ وجلَّ الرِّضا بقضائه والغنىٰ في فعله } ، لأَنَّه هو الرّاحة الكبرىٰ والجنَّة { العاجلة المفقودة } في الدُّنيا ، وهو باب الله الأَكبر ، { وسبب } محبَّة الله لعبده المؤمن ، فمن أَحبَّه الله لم يعذِّبه في الدُّنيا ولا في الآخرة ، { وبه } اللُّحوق بالله عزَّ وجلَّ والوصول إِليه والأُنس به .

{ فلا } تشتغلوا بطلب الحظوظ ، وأَقسامٍ لم تُقسم أَو قُسِمَت ، فإِنْ كانت لم تُقسم فالاشتغال بطلبها حمق ورعونة وجهل ، وهو أَشدُّ العقوبات ، كما قيل : من أَشدِّ العقوبات طلب ما لم يُقْسَم .

وإِنْ كانت مقسومة ففي الاشتغال بها شَرَهٌ وحرص وشرك في باب العبوديّة والمحبَّة والحقيقة ، لأَنَّ الاشتغال بغير الله عزَّ وجلَّ شرك ، وطالب الحظِّ ليس بصادق في محبَّته وولايته فمن ٱختار { مع محبوبه } غيره فهو كذّاب ، وطالب العوض علىٰ عمله غير مخلص ، وإِنَّما

المخلص من عبد الله ليعطي الرُّبوبيَّة حقَّها يعبده للملَكيَّة والحَقيَّة ، لأَنَّ الحقَّ عزَّ وجلَّ يملكه ويستحقُّ عليه العمل والطّاعة { له } ، إِذ جميعه بحركاته وسكناته وسائر أَكسابه والعبد وما مَلَكَ لمولاه .

كيف وقد بيّنا في غير / موضع أَنَّ العبادات بأَسرها نعمة من الله عزَّ ٤٩/أ وجلَّ وفضل منه علىٰ عبده ، إِذ وفَّقه لها وأَقدره عليها ؟

فاشتغاله بالشُّكر لربّه { عزَّ وجلَّ } خيرٌ وأَولىٰ من طلبه منه الأَعواض والجزاء عليها .

ثمَّ كيف يشتغل بطلب الحظوط وقد يرىٰ خلقاً كثيراً كلَّما كثرت الحظوظ عندهم وتواترت وتتابعت اللَّذّات والنِّعم والأَقسام إِليهم ، زاد تَسخّطهم علىٰ ربّهم { عزَّ وجلَّ } وتضجّرهم ، وكفرهم بالنِّعم ، وكثرة همومهم وغمومهم وفقرهم إِلىٰ أَقسام لم تُقسم لهم غير ما عندهم ، وحقرت وصغرت وقبحت أَقسامهم عندهم ، وعظمت وكبرت وحسنت أَقسام غيرهم في قلوبهم وأَعينهم ، فشرعوا في طلبها وهي غير مقسومة لهم ، فذهبت أَعمارهم وٱنحلَّت قواهم ، وقوىٰ وكبر سنُّهم وفنيت أَموالهم ، وتعبت أَجسادهم ، وعرقت جباههم ، وٱسودَّت صحائفهم بكثرة آثامهم ، وٱرتكاب عظائم الذُّنوب في طلبها ، وترك أَوامر ربِّهم ؟

فلم ينالوها ، وخرجوا من الدُّنيا مفاليس لا إِلىٰ هاؤلاء ولا إِلىٰ هاؤلاء ، { ولم } يشكروا ربّهم فيما قَسَمَ لهم من أَقسامهم ، فاستعانوا علىٰ طاعته ، ولا نالوا ما طلبوا من أَقسام غيرهم ، بل ضيّعوا دنياهم وآخرتهم ، فهم أَشرُّ الخليقة وأَجهلهم وأَحمقهم وأَخسّهم عقولاً وبصيرةً .

فلو أَنّهم رضوا بالقضاء ، وقنعوا بالعطاء ، وأَحسنوا طاعة المولىٰ ،

٤٩/ب لأَتَتْهُم أَقسامهم من الدُّنيا / من غير تعب ولا عناء ، ثمَّ نقلوا إِلىٰ جوار العليّ الأَعلىٰ ، فوجدوا عنده كلَّ مراد ومنىٰ .

جعلنا الله وإِيّاكم ممَّن رضيَ بالقضاء ، وجعل سؤاله ذالك والفناء وحفظ الحال والتَّوفيق لِما يحبُّه ويرضاه .

ٱرحل إِليه فثمَّ ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : من أَراد الآخرة فعليه بالزُّهد في الدُّنيا ، ومن أَراد الله { عزَّ وجلَّ } فعليه بالزُّهد في الآخرة ، فيترك دنياه لآخرته وآخرته لربّه .

فما دام في قلبه شهوة من شهوات الدُّنيا ، أَو لذَّة من لذّاتها ، أَو طلب راحة من راحتها من سائر الأَشياء من مأكول أَو مشروب وملبوس ومنكوح ومسكون ومركوب ، وولاية ورياسة ، وطبقة في علم من فنون العلم من الفقه فوق العبادات الخمس ، ورواية الحديث ، وقراءة القرآن بروايات ، والنَّحو واللُّغة والفصاحة والبلاغة ، وزوال الفقر ووجود الغنىٰ ، وذهاب البليّة ومجيء العافية ، وفي الجملة ٱنكشاف الضُّرِّ ومجيء النَّفع فليس بزاهد حقّاً ؛ لأَنَّ كلَّ واحد من هاذه الأَشياء فيه لذَّة النَّفس ، وموافقة الهوىٰ وراحة للطَّبع { وحبٌّ } له ، وكلُّ ذالك من الدُّنيا وممّا يحبِّب البقاء فيها ويحصل به السُّكون والطّمأنينة إِليها .

فينبغي أَنْ يجاهد الزّاهد في إِخراج جميع ذالك عن القلب ، ويأخذ نفسه بإِزالة ذالك وقلعه ، والرِّضا بالعدم والإِفلاس والفقر الدّائم ، فلا ٥٠/أ يبقىٰ من ذالك مقدار مصِّ نواة ، ليخلص زهده / في الدُّنيا .

فإِذا تمَّ له ذالك زالت الهموم والأَحزان من القلب ، والكرب عن الأَحشاء ، وجاءت الرّاحات والطّيب والأُنس بالله عزَّ وجلَّ كما قال النَّبيّ

صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلى آله وأَصحابه وسلَّم : « الزُّهْدُ في الدُّنيا يُريحُ القَلْبَ وَالجَسَدَ »[1] .

فما دام في قلبه شيء من ذالك فالهموم والغموم والخوف والوجل قائم في القلب ، { والخذلان } لازم له ، والحجاب عن الله عزَّ وجلَّ وعن قربه متكاثف متراكم ، فلا ينكشف جميع ذالك إلاّ { بزوال } حبِّ الدُّنيا علىٰ الكمال وقطع العلائق بأَسرها .

ثمَّ يزهد في الآخرة ، فلا يطلب الدَّرجات والمنازل العاليات والحور { العين } والولدان والدّور والقصور والبساتين والمراكب ، والحُلل والحلّي والمآكل والمشارب وغير ذالك ممّا أَعدّه الله تعالىٰ لعباده المؤمنين ، فلا يطلب علىٰ عمله جزاء وأَجراً من الله عزَّ وجلَّ أَلبتة دنيا وأُخرىٰ .

فحينئذٍ يجد الله عزَّ وجلَّ فيوفّيه حسابه تفضُّلاً منه ورحمة ، فيقرِّبه ويدنيه ويلطف به ويتعرَّف إِليه بأَنواع أَلطافه وبرِّه ، كما هو دأبه عزَّ وجلَّ مع رسله وأَنبيائه وأَوليائه وخواصّه وأَحبابه وأُولي العلم به عزَّ وجلَّ ، فيكون العبد كلَّ يوم في مزيد من أَمره { مدَّة } حياته ، ثمَّ ينقل إِلىٰ دار الآخرة { إِلىٰ } ما لا عين رأَت ولا أُذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر ، ممّا تضيق عنه الأَفهام وتقصر عن وصفه العبارات/ . ٥٠/ب

اِتركْ نفسكَ وتعالَ !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : تَترك الحظوظ ثلاث مرّات :

---

(١) أَخرجه المنذري في « التَّرغيب والتَّرهيب » برقم ٤٦٩٧ ، عن أَبي هريرة رضيَ الله عنه ، وأَخرجه الطبراني في « الأَوسط » . وهو حديث ضعيف .

الأُولىٰ : يكون العبد ماراً في غشواه متخبِّطاً فيه ، منصرفاً بطبعه في جميع أَحواله من غير تعبُّد لربِّه { عزَّ وجلَّ } ولا متمسِّكاً { بزمامٍ } من الشَّرع يردُّه ، ولا حدٌّ من حدود ينتهي إِليه من حكمه ، فبينما هو علىٰ ذالك ينظر الله إِليه نظر عين الرَّحمة ، فيبعث { الله عزَّ وجلَّ } إِليه واعظاً من خلقه ، من عباده الصّالحين ، ويثنيَه بواعظ من نفسه ، { فيتضافر } الواعظان علىٰ نفسه وطبعه ، فتعمل الموعظة عملها ، فيتبين عندها عيب ما هي فيه من ركوب مطيّة الطَّبع والمخالفات ، فتميل إِلىٰ الشَّرع في جميع تصرُّفاتها فيصير العبد مسلماً قائماً مع الشَّرع فانياً عن الطّبع ، فيترك حرام الدُّنيا { وشبهها } ومنن الخلق ، فيأخذ مباح الحقِّ عزَّ وجلَّ وحلال الشَّرع في مأكله ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه وجميع أَحواله ما لا بدَّ منه ، لتنحفظ البنية { ويقوىٰ } علىٰ طاعة الرَّبِّ عزَّ وجلَّ ، وليستوفي قَسْمَه المقسوم له الَّذي لا يتجاوزه .

ولا سبيل إِلىٰ الخروج من الدُّنيا قبل تناوله { والتَّلبُّس } به وٱستيفائه ، فيسير علىٰ مطيّة المباح والحلال بالشَّرع في جميع أَحواله إِلىٰ أَنْ تَنتهي به هاذه المطيّة إِلىٰ عتبة الولاية والدُّخول في زمرة المحقِّقين الخواصِّ أَهل العزيمة مريدي الحقِّ عزَّ وجلَّ ، فيأكل بالأَمر ، فحينئذٍ/ ٥١/أ { يسمع } النِّداء من قبل الحقِّ عزَّ وجلَّ من باطنه : ٱترك نفسك وتعال ، ٱترك الحظوظ والخلق إِنْ أَردت الخالق ، وٱخلع نعل دُنياك وآخرتك ، وتجرَّد عن الأَكوان والموجودات وما سيُوجَد والأَماني بأَسرها ، وتعرَّ عن الجميع ، وٱفن عن الكلِّ ، وتطيَّب بالتَّوحيد ، وٱترك الشِّرك { وصدِّق } الإِرادة ، ثمَّ ٱدخل وَطَإِ البساط بالأَدب مطرقاً ، لا تنظر يميناً إِلىٰ الآخرة ولا شمالاً إِلىٰ الدُّنيا ، ولا إِلىٰ الخلق ولا [إِلىٰ] الحظوظ .

فإِذا حلَّ في هاذا المقام وتحقَّق الوصول جاءته الخِلع من قِبَل الحقِّ

عزَّ وجلَّ ، وغشيَته أَنواع المعارف والعلوم وأَنواع الفضل ، فيُقال له تلبَّس بالنِّعم والفضل ولا تسيء الأَدب بالرَّدِّ وترك التَّلبُّس ، لأَنَّ في ردِّ نِعم المِلك ٱفتئاتاً علىٰ المِلك وٱستخفافاً بالحضرة ، فحينئذٍ يتلبَّس بالفضل والقسم بالله عزَّ وجلَّ من غير أَنْ يكون هو فيه ، ومن قبل كان يتلبَّس بهواه ونفسه ، فكلَّما حلَّ منزلاً تغيَّرت لقمته ، فله أَربع حالات في تناول الحظوظ والأقسام :

الأُولىٰ بالطبع وهو الحرام . والثّانية بالشَّرع وهو المباح والحلال . والثّالثة بالأَمر وهي حالة الولاية وترك الهوىٰ . والرّابعة بالفضل وهي حالة زوال الإرادة وحصول البدليّة، وكونه مراداً قائماً مع القدر الَّذي هو فعل الحقّ عزَّ وجلَّ، وهي حالة العلم والاتِّصاف بالصَّلاح، فلا يسمّىٰ صالحاً علىٰ الحقيقة إلاّ من أُوصِلَ إلىٰ هاذا المقام، وهو قوله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ وَلِّيَ ٱللهُ ٱلَّذي نَزَّلَ ٱلكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلىٰ ٱلصّالِحين﴾ [سورة الأَعراف ٧/ ٦].

فهو العبد الَّذي كُفَّت يده عن جلب مصالحه ومنافعه وعن ردِّ مضاره ومفاسده ، كالطفل الرَّضيع مع الظِّئر ، والميت الغسيل مع الغاسل ، فتتولّى يد القدرة تربيته من غير أَنْ يكون له ٱختيار وتدبير ، فانٍ عن جميع ذالك لا حالاً ولا مقاماً ولا إرادة ، بل القيام مع القدرة ، تارة يبسط وتارة يقبض ، وتارة يغنىٰ وأُخرىٰ يفقر ، ولا يختار ولا يطلب ولا يتمنّىٰ زوال ذالك وتغييره ، بل الرِّضا الدّائم والموافقة الأَبديّة ، فهو آخر ما ينتهي إِليه أَحوال الأَولياء والأَبدال .

أُخرج الهوىٰ من صدرك تُحَلَّ القيودُ من رِجلك

وقال رضيَ الله [تعالىٰ] عنه [وأَرضاه] : إِذا فنيَ العبد عن

الخلق والهوىٰ والنَّفس والإرادة والأَماني دنيا وأُخرىٰ ، ولم يُرِدْ إلاّ الله عزَّ وجلَّ وخرج الكلُّ عن قلبه ، فوصل إلىٰ الحقِّ عزَّ وجلَّ ، واْصطفاه واْجتباه ، [وأَحبَّه] وحبَّبه إلىٰ خلقه ، وجعله نجيَّهُ وتحتَ قُربه ، وتنعَّم بفضله وتقلَّب في نِعَمه ، وفتح عليه أَبواب رحمته ، ووعده أَلاّ يُغلقها عنه أَبداً ، فيختار العبد حينئذٍ الله باختيار الحقِّ عزَّ وجلَّ ، ويريد بإرادته ، ويدبِّر بتدبيره عزَّ وجلَّ ، ويشاء بمشيئته عزَّ وجلَّ ، ويرضىٰ برضاه عزَّ وجلَّ ، ويمتثل أَمره دون غيره ، فلا يرىٰ لغيره عزَّ وجلَّ وجوداً ولا فعلاً .

فحينئذٍ { يجوز أَنْ يَعِده } الله عزَّ وجلَّ بوعد ثمَّ لا يظهر للعبد وفاء بذالك ، ولا يبلغه { ما } قد توهَّمه من ذالك ، لأَنَّ الغيريَّة قد زالت بزوال الهوىٰ والإرادة وطلب الحظوظ ، فصار في نفسه { فعلاً لله } عزَّ وجلَّ وإرادته ومراداً له عزَّ وجلَّ فلا يضاف إليه وعد { وخلف } ، لأَنَّ هاذه صفة من له هوىٰ وإرادة ، فيصير الوعد حينئذٍ في حقِّه مع الله عزَّ وجلَّ كرجل عزم علىٰ فعل شيء في نفسه ونواه ثمَّ صرفه إلىٰ غيره ، كالنّاسخ والمنسوخ فيما أَوحىٰ الله تعالىٰ { إلىٰ } نبيّنا محمّد { المصطفىٰ } صلّى الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ ما نَنسَخْ مِن آيَةٍ أَوْ نُنسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ﴾ [سورة البقرة ٢/١٠٦] ، لمّا كان النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم منزوع الهوىٰ والإرادة ، وسوىٰ المواضع الَّتي ذكرها الله عزَّ وجلَّ في القرآن من الأَسر يوم بدر وغيره وهو مراد الحقِّ عزَّ وجلَّ ومحبوبه ؛ لم يتركه علىٰ حالة واحدة وعلىٰ شيء واحد ووعد واحد ، بل نقله إلىٰ { القدرة } ، فأَطلق عنان القدرة إليه ، فصرَّفه في

القدرة وقلَّبه فيها ، ونبَّهه بقوله تعالىٰ : ﴿ .. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدير ﴾ [سورة البقرة ٢/١٠٦] .

يعني أَنَّك في بحر القدرة تقلِّبك أَمواجه تارة كذا وتارة كذا .

فمتنهى أَمر الولي ٱبتداء أَمر النَّبيِّ مابعد الولاية والبدليَّة إِلاّ النُّبوَّة .

القضاءُ غالبٌ والأجل طالب

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : الأَحوال قبض كلُّها ، لأَنَّه يؤمر/ الولي بحفظها ، وكلَّما يؤمر بحفظه فهو قبض ، والقيَام مع ٥١/ب { القدرة } بسط كلّه ، لأَنَّه ليس هناك شيء يؤمر بحفظه سوىٰ كونه موجوداً في القدر ، فعليه أَلاّ ينازع في القدر بل يوافق ولا ينازع في جميع ما يجري عليه ممّا يُحلي ويُمِرُّ ، والأَحوال { محدودة وقد أُمر } بحفظ حدودها ، والفعل الَّذي هو القدر غير { محدود } فيحفظ { هو فيه } .

وعلامة أَنَّ العبد دخل في مقام القدر والفعل والبسط أَنَّه يؤمر بالسّؤال في الحظوظ بعد أَنْ أُمر بتركها والزُّهد فيها ، لأَنَّه لَمّا خلا باطنه من الحظوظ { أَجمع } ، ولم يبق فيه غير الرَّبِّ عزَّ وجلَّ بوسط فأُمر بالسّؤال والتَّشهي وطلب الأَشياء الَّتي هي قَسْمُه ، ولا بدَّ { له } من تناولها والتَّوصُّل إِليه بسؤاله ، لتتحقَّق كرامته عند الله عزَّ وجلَّ ومنزلته ، وٱمتنان الحقِّ عزَّ وجلَّ عليه بإِجابته إِلىٰ ذالك .

فالإِطلاق بالسّؤال في إِعطاء الحظوظ من أَكبر علامات البسط بعد القبض ، والإِخراج من الأَحوال والمقامات والتَّكلُّف في حفظ الحدود .

فإِنْ قيل : هاذا يدلُّ علىٰ زوال التَّكليف والقول بالزَّندقة والخروج

من الإسلام ، ورد قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقين ﴾ [سورة الحِجر ١٥/ ٩٩] قيل لا يدلُّ علىٰ ذالك ولا يؤدّي إليه ، بل الله أَكرم ، ووليُّه أَعزُّ عليه من أَنْ يدخله في مقام النَّقص { والقبيح } في شرعه ودينه ، بل يعصمه من جميع { ما ذكرت لك } ، ويصرفه / عنه ، أَو يحفظه وينبِّهه ويسدِّده لحفظ الحدود ، ٥٢/أ { فتحصل } العصمة { وتنحفظ } الحدود من غير تكلُّفٍ منه ومشقَّة ، وهو عن ذالك في غيبة في القُرب من ربّه عزَّ وجلَّ . قال عزَّ وجلَّ : ﴿ كَذالِكَ لِنصرف عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلِصين ﴾ [سورة يوسف ١٢/ ٢٤] وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطان ﴾ [سورة الحِجر ١٥/ ٤٢] وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِلاّ عِبادَ اللهِ ٱلْمُخْلَصين ﴾ [سورة الصّافّات ٣٧/ ٤٠] .

يا مسكين هو محمول الرَّبِّ عزَّ وجلَّ ومراده ، وهو يربّيه في حجر قربه ولطفه ، أَنّىٰ يصل الشَّيطان إِليه وتتطرَّق القبائح والمكارة في الشَّرع نحوه ؟

أُبعدت النَّجعة وأعظمت الفرية وقلت قولاً فظيعاً عظيماً تبّاً لهاذه الهمم الخسيسة الدَّنيَّة والعقول النّاقصة البعيدة والآراء الفاسدة { المختلَّة } ، أَعاذنا الله والإخوان من الضَّلالات المختلفة بقدرته الشّاملة وأَلطافه الكاملة ورحمته الواسعة ، وسترنا بأَستاره التّامَّة المانعة الحامية ، وربّانا بنعمه السّابغة وفضائله الدّائمة بمنِّه وكرمه .

لا نُورَ إلاّ من مشكاة !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : تعامَ عن الجهات كلِّها ولا تبصص علىٰ شيء منها ، فما دمت تنظر إِلىٰ واحدة منها لا يفتح

لك جهة فضل الله عزَّ وجلَّ وقربه ، فسدَّ الجهات { جميعها } بتوحيدك ، { وآمحها بيقينك } ، ثمَّ فنائك ومحوك وعلمك ، فحينئذٍ يفتح في عين قلبك/ { جهة الجهات وهي } جهة فضل الله العظيم ، ٥٢/ب فتراها بعيني رأسك إذ ذاك بشعاع نور قلبك وإيمانك ويقينك عليك ، فيظهر عند ذالك النّور من باطنك علىٰ ظاهرك كنور الشَّمعة الَّتي في البيت المظلم في ليلة ظلماء ، يظهر من كوىٰ البيت ومنافذه فيشرق ظاهر البيت بنور باطنه ، فتسكن النَّفس والجوارح إلىٰ وعد الله عزَّ وجلَّ وعطائه عن عطاء غيره ووعد غيره عزَّ وجلَّ .

فارحم نفسك ولا تظلم { قلبك } ولا { تلقيهما } في ظلمات جهلك ورعونتك ، فتنظر إلىٰ الجهات وإلىٰ الخلق والحول والقوَّة والكسب والأسباب ، فتتّكل عليها ، { فَتنسَدُّ } عنك الجهات ولا يفتح لك جهة فضل الله عزَّ وجلَّ عقوبة ومقابلة لشركك بالنَّظر إلىٰ غيره عزَّ وجلَّ ، فإذا وجدته عزَّ وجلَّ ونظرت إلىٰ فضله ورجوته دون غيره وتعاميت عمّا سواه ، قرَّبك وأَدناك ، ورحمك وربّاك ، وأَطعمك وشهّاك ، وداواك وعافاك ، وأَعطاك وأَغناك ، وبصَّرك ووالاك ، ثمَّ محاك عن الخلق وعن نفسك وأَفناك ، فلا ترىٰ بعد ذالك لا فقرك ولا غناك .

الشُّكر لشوارد النِّعم أوثق عِقالٍ

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : لا تخلو حالتك إمّا أَنْ تكون بليّة أَو نعمة ، فإنْ كانت بليّةً فتُطالَب فيها بالتَّصبُّر ، وهو الأَدنىٰ ، والصَّبر وهو الأَعلىٰ منه ، ثمَّ الرِّضا والموافقة ، ثمَّ الفناء

٥٣/أ وهو للأَبدال والعارفين ، أَهل العلم بالله عزَّ وجلَّ/ .

{ فإِنْ } كانت نعمةً فتُطالَب فيها بالشُّكر عليها . والشُّكر باللِّسان والقلب والجوارح .

أَمّا باللِّسان { فالاعتراف } بالنِّعمة أَنَّها من الله عزَّ وجلَّ ، وترك إِضافتها إِلىٰ الخلق ، { ولا تضفها } إِلىٰ نفسك وحولك وقوّتك { وحركاتك } وكسبك ، ولا إِلىٰ غيرك من الَّذين جرت علىٰ أَيديهم ، لأَنَّك وإِيّاهم أَسباب { وآلة } وأَداة لها ، قاسمها ومجريها وموجدها والفاعل فيها والمسبِّب لها هو الله عزَّ وجلَّ ، { والقاسم والمجري والموجد هو عزَّ وجلَّ } ، فهو أَحقُّ بالشُّكر من غيره .

{ لا تنظر } إِلىٰ الغلام الحمّال للهدية ، إِنَّما النَّظر إِلىٰ الأُستاذ المنفِّذ المنعم بها .

قال الله تعالىٰ في حقِّ من عُدِمَ هاذا النَّظر : ﴿ يَعْلَمونَ ظاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيا وَهُمْ عَنِ ٱلآخِرَةِ هُمْ غافِلون ﴾ [سورة الرُّوم ٧/٣٠] .

فمن نظر إِلىٰ الظّاهر والسَّبب ولم يجاوزهما علمه ومعرفته فهو الجاهل النّاقص قاصر العقل ، إِنَّما سمِّيَ العاقل عاقلاً لنظره في العواقب .

وأَمّا الشُّكر بالقلب ، فبالاعتقاد الدّائم ، والعقد الوثيق الشَّديد { المنبرم } .

إِنَّ جميع ما بك من { النِّعم } والمنافع واللَّذّات في الظّاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عزَّ وجلَّ لا من غيره ، ويكون { شكرك } بلسانك معبّراً عمّا في قلبك . وقد قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ . . ﴾ [سورة النَّحل ٥٣/١٦] وقال

تعالىٰ : ﴿ . .وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَة ﴾ [سورة لقمان ٣١/ ٢٠] ،/ وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصوها ﴾ ٥٣/ب [سورة النّحل ١٦/ ١٨] .

فمع هاذا لا يبقىٰ { للمؤمن من } منعم سوىٰ الله عزَّ وجلَّ .

وأَمَّا الشُّكر بالجوارح فبأَنْ تحركها وتستعملها في طاعة الله عزَّ وجلَّ دون غيره من الخلق ، فلا تجيب أَحداً من الخلق فيما فيه إِعراض عن الله عزَّ وجلَّ ، وهاذا يعمُّ النَّفس والهوىٰ والإِرادة والأَماني وسائر الخليقة ، تجعل طاعة الله عزَّ وجلَّ أَصلاً ومتبوعاً وإِماماً ، وما سواها فرعاً وتابعاً { ومأموماً } ، فإِنْ فعلت غير ذالك كنت جائراً ظالماً حاكماً بغير حكم الله عزَّ وجلَّ الموضوع لعباده المؤمنين ، وسالكاً غير سبيل الصّالحين . قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ . .وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فأُولائِكَ هُمُ الكافِرون ﴾ [سورة المائدة ٥/ ٤٤] ، وفي آية { أُخرىٰ } : ﴿ . . وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولائِكَ هُمُ الظّالِمون ﴾ [سورة المائدة ٥/ ٤٥] ، وفي أُخرىٰ : ﴿ . . { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فأُولائِكَ } هُمُ الفاسِقون ﴾ [سورة المائدة ٥/ ٤٧] .

فيكون ٱنتهاؤك إِلىٰ النّار الَّتي وقودها النّاس والحجارة ، وأَنت لا تصبر علىٰ حمىٰ ساعة في الدُّنيا وأَقلُّ شظيَّةٍ وشرارةٍ من النّار فيها ، فكيف تصبر علىٰ الخلود في الهاوية مع أَهلها .

النَّجاة النَّجاة ، الوحا الوحا ، الله الله .

ٱحفظ الحالتين وشروطهما ، فإِنَّك لا تخلو في جميع عمرك من أَحديهما ؛ إِمّا البليّة ، وإِمّا النِّعمة .

فأَعطي كلَّ حالة حظَّها وحقَّها من الصَّبر والشُّكر علىٰ ما بيّنت لك .

فلا تشكونَّ في حالة البليّة إلىٰ أَحد من خلق الله { تعالىٰ } ، ٥٤/أولا تظهِرن الضَّجر لأَحدٍ ، ولا تتَّهمنَّ ربَّك/ { عزَّ وجلَّ } في باطنك .

ولا تَشُكَّنَّ في حكمته ، { وٱختياره } الأَصلح لك في دنياك وآخرتك ، فلا تذهبن بهمَّتك إلىٰ أَحد من خلقه في معافاتك ، فذالك إشراك منك به عزَّ وجلَّ ، لا يملك معه عزَّ وجلَّ في ملكه أَحد شيئاً ، لا ضار ولا نافع ، ولا رافع ولا جالب ، { ولا مسقم } ولا مبلي ولا معافي ، ولا مبرئ غيره عزَّ وجلَّ .

فلا تشتغلنَّ بالخلق في الظّاهر ولا في الباطن ، فإِنَّهم لن يُغنوا عنك من الله شيئاً ، بل ٱلزم الصَّبر والرِّضا والموافقة والفناء في فعله عزَّ وجلَّ ، فإِنْ حُرِمتَ ذالك كلَّه فعليك بالاستغاثة إِليه عزَّ وجلَّ ، والتَّضرُّع والاعتراف بالذُّنوب والتَّظلُّم من شؤم النَّفس { ومن } نزاهة الحقِّ عزَّ وجلَّ ، والاعتراف له بالتَّوحيد { والنِّعم } ، والتَّبرّي من الشِّرك ، وطلب الصَّبر والرِّضا والموافقة إِلىٰ حين يبلغ الكتاب أَجله . فتزول البليَّة وتنكشف الكربة ، وتأتي النِّعمة والسَّعة والفرحة والسُّرور ـ كما كان في حقِّ نبي الله أَيّوب عليه السَّلام ـ كما يذهب سواد اللَّيل { المظلم } ويأتي بياض النَّهار ، ويذهب برد الشِّتاء ويأتي نسيم الصَّيف وطيبه ، { لأَنَّه لكلِّ شيءٍ } ضدّاً وخلافاً وغاية ومراداً ومنتهىٰ .

فالصَّبر مفتاحه وٱبتداؤه وٱنتهاؤه وجماله . كما جاء في الخبر :

« الصَّبْرُ مِنَ الإيمانِ كالرّأسِ مِنَ الجَسَدِ »[1] . وفي لفظ { آخر } : « الصَّبْرُ الإيمانُ كُلُّهُ »[2] .

وقد يكون / الشُّكر هو التَّلبُّس بالنِّعم ، وهي { أَقسامك } المقسومة لك ، فشكرك التَّلبُّس بها في حال فنائك وزوال الهوىٰ والحمية والحفظ ، وهاذه حالة { الأَبدال } وهي المنتهىٰ . ٥٤/ب

{ اعتبر } ما ذكرت لك ترشد إِنْ شاء الله تعالىٰ .

مواقع أقدار الله خير لك من آمالك

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : البداية هي الخروج من المعهود إِلىٰ المشروع ثمَّ { إِلىٰ } المقدور ، ثمَّ الرُّجوع إِلىٰ المعهود بشرط حفظ الحدود ، فتخرج من معهودك من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والمسكون بالطَّبع والعادة إِلىٰ أَمر الشَّرع ونهيه ، فتتَّبعَ كتاب الله وسُنَّة رسول الله صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ . . وَما آتاكُمُ الرَّسولُ فَخُذوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهوا ﴾ [سورة الحشر ٥٩/ ٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ . . ﴾ [سورة آل عمران ٣/ ٣١] .

فتفنىٰ عن هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك ، فلا يكون

---

(١) تقدَّم تخريجه ، ص١٠٩ وهو حديث ضعيف .

(٢) لم أَجده بهاذا اللَّفظ فيما لدي من المصادر . أَخرج القُضاعي في « الشِّهاب » برقم ١٥٨ ، عن عبد الله بن مسعود رضيَ الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمانِ واليَقينُ الإيمان كُلُّهُ » . وهو حديث موقوف علىٰ ابن مسعود .

في باطنك غير توحيد الله { تعالىٰ } ، وفي ظاهرك غير طاعة الله وعبادته ممّا أَمر ونهىٰ ، فيكون هاذا دأبك وشعارك ودثارك في حركتك وسكونك ، في ليلك ونهارك ، وسفرك وحضرك ، وشدَّتك ورخائك ، وصحَّتك وسقمك ، وأَحوالك كلِّها .

ثمَّ تُحمل إلىٰ وادي القدر { فيتصرَّف } فيك القدر ، فتفنىٰ عن جِدِّك وٱجتهادك وحولك وقوَّتك ، فتساق إليك / الأَقسام الَّتي جفَّ بها القلم وسبق بها العلم ، فتلبَّس بها وتعطىٰ منها الحفظ والسَّلامة ، فتحفظ فيها الحدود ، وتحصل فيها الموافقة لفعل المولىٰ ، { ولا تنخرق } قاعدة الشَّرع إلىٰ الزَّندقة وإباحة المحرَّم . قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظون ﴾ [سورة الحِجر ١٥/ ٩] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ كَذالِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السّوءَ والفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصين ﴾ [سورة يوسُف ١٢/ ٢٤] .

١/٥٥

{ فيستصحب } الحفظ والحميَة إلىٰ حين اللِّقاء برحمة الله عزَّ وجلَّ ، وإِنَّما هي أَقسامك معدَّة لك ، { حبست } عنك في حال سيرك في طريقك وسلوكك فيافي الطَّبع ومفاوز الهوىٰ والمعهود ، لأَنَّها أَثقال وأَحمال { فأُزيحت } عنك . لئلا يثقلك فتضعفك وتثبطك عن مقعدك ومطلوبك إلىٰ حين الوصول إلىٰ عتبة الفناء ، وهو الوصول إلىٰ قُرب الحقِّ عزَّ وجلَّ والمعرفة به عزَّ وجلَّ ، والاختصاص بالأَسرار والعلوم اللَّدنيَّة ، والدُّخول في بحار الأَنوار ، حيث لا تضرُّ ظلمة الطَّبائع الأَنوار .

فالطَّبع باقٍ إلىٰ أَنْ تفارق الرُّوح الجسد لاستيفاء الأَقسام ، إذ لو زال الطَّبع من الآدمي لالتحق بالملائكة وٱنخرم النِّظام وبطلت الحكمة ، فبقيَ الطَّبع فيك ليستوفي به الأَقسام والحظوظ ، فيكون

ذالك وظائفاً لا أَصليّاً ، كما قال النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ/ آله وأَصحابه وسلَّم : « حُبِّبَ إِليَّ مِنْ دُنْياكُمْ ثَلاثٌ : الطِّيْبُ ، والنِّساءُ ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاةِ »[1] . ٥٥/ب

فلمّا فنى النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم عن الدُّنيا وما فيها ، رُدَّت إِليه صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم أَقسامه المحبوسة عنه في حال مسيره إِلىٰ ربِّه عزَّ وجلَّ ، فاستوفاها موافقة لربِّه عزَّ وجلَّ ورضىٰ بفعله { عزَّ وجلَّ } وممتثلاً لأَمره ، تقدَّست أَسماؤه وعمَّت { رحمته } ، وشمل فضله لأَوليائه وأَنبيائه .

فهاكذا الولي في هاذا الباب تَرِدُ إِليه أَقسامه وحظوظه بعد الفناء مع حفظ الحدود ، فهو الرُّجوع من النِّهاية إِلىٰ البداية .

لكلِّ ملكٍ حمىً فاحذر حمى الرَّحمان

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : كلُّ مؤمن مكلَّف بالتوقُّف { والتَّفتيش } عند حضور الأَقسام ، عن التَّناول والأَخذ ، حتّىٰ يشهد له الحكم بالإِباحة ، والعلم بالقسم ، { قال النَّبيُّ صلّىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم } : « المؤمن فتّاش ، والمنافق لقّاف ، والْمُؤمِنُ وَقّافٌ »[2] ، وقال النَّبيُّ صلّىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله

---

(١) تقدَّم تخريجه ، ص ٥٧ وهو حديث حسن صحيح .

(٢) لم أَجده بهاذا اللَّفظ . أَخرج الديلمي في « الفردوس » برقم ٦٥٤٤ ، عن أَنس بن مالك رضيَ الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمِنُ كَيّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ وَقّافٌ مثبّتٌ لا يَعْجَلُ ، عالِمٌ وَرِعٌ ، والمُنافِقُ هَمْزَةٌ لَمْزَةٌ حطمةٌ لا يَقِفُ عِنْدَ شُبْهَةٍ ولا عِنْدَ حَرَّامٍ ، =

وأَصحابه وسلَّم : « دَعْ ما يُريبُكَ إِلىٰ ما لا يُريبُكَ » [1] .

فالمؤمن يقف عند كلِّ قسم { من } مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح وسائر الأَشياء الَّتي تفتح له ، فلا يأخذ حتّىٰ يحكم { له } بجواز الأَخذ والتناول { والحكم } إذا كان في حالة التَّقوىٰ ، أَو حتّىٰ يحكم { له } بذالك الأَمر إذا كان في حالة الولاية ، أَو حتّىٰ يحكم له العلم إذ كان في / حالة البدليّة والغوثيّة ، أَو الفعل الَّذي هو القدر المحض وهو حالة الفناء . ٥٦/أ

ثمَّ تأتيه حالة أُخرىٰ يتناول { كلَّما } يأتيه ويفتح له علىٰ الإِطلاق ، ما لم يعترض عليه الحكم أَو الأَمر أَو العلم ، فإذا ٱعترض أَحد هاذه الأَشياء ٱمتنع من التَّناول وتركَهُ ، فهي ضِدُّ الأُولىٰ .

ففي الأُولىٰ الغالب عليه التَّوقُّف والتَّثبيت ، وفي الثّانية الغالب عليه التَّناول والأَخذ والتَّلبُّس بالمفتوح ، ثمَّ تأتي الحالة الثّالثة ؛ فالتَّناول المحض والتَّلبُّس بما يفتح من النِّعم من غير ٱعتراض أَحد الأَشياء الثَّلاثة ، وهي حقيقة الفناء . فيكون المؤمن فيها محفوظاً من الآفات ، وخرق حدود الشَّرع ، مصاناً مصروفاً عنه الأَسواء . كما قال الله تعالىٰ : ﴿ . . كَذالِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السّوءَ وَالفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصين ﴾ [سورة يوسُف ١٢/ ٢٤] .

فيصير العبد مع الحفظ من خرق الحدود كالمفوَّض إِليه ،

= كحاطِبِ اللَّيلِ لا يُبالي مِنْ أَينَ كَسَبَ وفيما أَنْفَقَ » . وهو حديث ضعيف .
والمؤمن وقّاف متثبت عالم ورع إذا ذكِّر تذكَّر وإذا علم تعلَّم ، والمنافق همزة لمزة حطمة لا يقف عند شبهة ولا يرعوي عن محرَّم ، كحاطب اللَّيل لا يبالي من أَين كسب وفيما أَنفق .

(١) تقدَّم تخريجه ، ص ٨٨ ، وهو حديث صحيح .

المأذون له ، والمطلق له في { الإباحات } ، المُيَسَّر له الخير .

فجميع ما يأتيه قسمه { المصفّىٰ } له من الآفات والكدورات والتَّبعات في الدُّنيا والآخرة ، والموافق لإرادة الحقِّ عزَّ وجلَّ ورضاه وفعله ، ولا حالة فوقها وهي الغاية ، وهي لسادة الأَولياء الكبار الخُلَّصِ أَصحاب الأَسرار ، الَّذين أَشرفوا علىٰ عتبة أَحوال الأَنبياء صلوات الله عليهم أَجمعين .

وهل بعدَ الحبيبِ مطلبُ ؟

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ما أَكثر ما تقول قَرُبَ فلان بعزَّةٍ/ وبُعِدتُ ، وأُعطيَ فلان وحُرِمتُ ، وأُغنيَ فلان وأُفقِرْتُ ، ٥٦/ب وعُوفيَ فلان وأُسقِمتُ ، وعُظِّمَ فلان وحقِّرْتُ ، وحُمِدَ فلان وذُمِمْتُ ، { وصوِّبَ فلان وصُدِّق } وكذِّبت .

أَما تعلم أَنَّه الواحد ، وأَنَّ الواحد يحبُّ الوحدانيَّة في المحبَّة ، ويحبُّ الواحد في محبَّته ؟

إذا قرَّبك بطريق غيره نقصت محبَّتك له عزَّ وجلَّ وتشعَّبت ، فربَّما داخلك الميل إِلىٰ من ظهرت المواصلة والنِّعمة علىٰ يديه ، فتنقص محبَّة الله في قلبك ، وهو عزَّ وجلَّ غيور لا يحبُّ شريكاً ، فكفّ أَيدي الغير عنك بالمواصلة ، ولسانه عن حمدك وثنائك ، ورجليه عن السَّعي إليك كيلا يشتغل به عنه عزَّ وجلَّ ، أَما سمعت قول النَّبيّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم :

« جُبِلَتْ ٱلقُلوبُ عَلىٰ حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْها ، وَبُغْضِ مَنْ أَساءَ إِلَيْها »[1] .

فهو عزَّ وجلَّ يكفُّ الخلق عن الإحسان إليك من كلِّ وجه وسبب ، حتّىٰ { توحِّده وتحبَّه } ، وتصير له من كلِّ وجه بظاهرك وباطنك ، { في } حركاتك وسكناتك ، فلا ترىٰ الخير إلاّ منه ، ولا الشَّرَّ إلاّ منه عزَّ وجلَّ . وتفنىٰ عن الخلق عن النَّفس والهوىٰ والإرادات والمُنىٰ ، وعن جميع ما سوىٰ المولىٰ . ثمَّ يطلق الأَيدي إليك بالبسط والبذل والعطاء ، والأَلسن بالحمد والثَّناء ، { فيدلِّلُك } أَبداً في الدُّنيا ثمَّ في العقبىٰ .

فلا تُسيء الأَدب ، ٱنظر إِلىٰ من ينظر/ إليك ، وأَقبل علىٰ من { هو مقبل } عليك ، { وأَحبب } من يحبُّك ، وٱستجب من يدعوك { إليه } ، وأَعط يدك من { ينشلك من سقطتك } ، ويخرجك من ظلمات جهلك ، وينجّيك من هلكتك ، ويغسِّلك من أَنجاسك ، وينظِّفك من أَوساخك ، ويخلِّصك من جيفتك ونتنك ، ومن هممك الرَّديَّة ، ونفسك الأَمّارة بالسّوء ، وأَقرانك الضُّلالِ المضلّين شيطانك وهواك ، وأَخلاّئك الجهّال قطّاع طريق الحقِّ عزّ وجلّ ، الحائلين بينك وبين كلِّ نفيس وثمين وعزيز . ٥٧/ أ

إِلىٰ متىٰ العادة ، إِلىٰ متىٰ الخلف ، إِلىٰ متىٰ الهوىٰ ، إِلىٰ متىٰ الرُّعونة، إِلىٰ متىٰ الدُّنيا، إِلىٰ متىٰ الآخرة، إِلىٰ متىٰ ما سوىٰ المولىٰ ؟

---

(١) أَخرجه أَبو نعيم في « الحلية » ج٤/ ١٢١ ، عن عبد الله بن مسعود رضيَ الله عنه مرفوعاً . وأَخرجه الخطيب البغدادي في « تاريخه » ج٧/ ٣٤٦ ، أَيضاً عن عبد الله بن مسعود رضيَ الله عنه . وهو حديث موضوع .

أَين أَنت من خالق الأَشياء ، المكوِّن { للأَكوان } ، والأَوّل والآخر ، والظّاهر والباطن ، المرجِعُ والمصدرُ إِليه ، وله القلوب وطمأنينة الأَرواح ، { ومحطُّ } الأَثقال ، والعطاء بلا { ٱمتنان } .

من شعب المعرفة

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : رأَيت في المنام كأَنّي أَقول يا مشركاً بربّه { عزَّ وجلَّ } في باطنه بنفسه ، وفي ظاهره بخلقه ، وفي عمله بإِرادته ، فقال رجل إِلىٰ { جانبي } : ما هاذا الكلام ؟ فقلت : هاذا نوع من المعرفة .

أمت نفسك حتى تحيا !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ضاق بي الأَمر يوماً ، فتحرّكت النَّفس تحت حملها وطلبت الرّاحة والمخرج والفرج .

فقيل لي : ماذا تريد ؟ فقلت : أُريد موتاً لا حياة فيه ، وحياة لا موت فيها ؟

فقيل لي : ماالموت/ الَّذي لا حياة فيه ، وما الحياة { الَّتي } ٥٧/ب لا موت فيها ؟

قلت : الموت الَّذي لا حياة فيه ، موتي عن جنسي من الخَلق ، فلا أَراهم في الضُّرِّ والنَّفع ، وموتي عن نفسي وهوائي وإِرادتي ومُناي في دنياي وأُخراي ، فلا أَحيا في جميع ذالك { ولا أُوجد } .

وأَمّا الحياة الَّتي لا موت فيها ، فحياتي بفعل ربّي عزَّ وجلَّ بلا

وجودي فيه ، والموت في ذالك وجودي معه عزَّ وجلَّ ، وكانت هاذه الإرادة { أَنفس إرادة } أَردتها منذ عقلت .

آية الحبِّ الرِّضىٰ !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : ما هاذا التَّسخُّط علىٰ ربِّك عزَّ وجلَّ لأَجل تأخير إجابة الدُّعاء ؟

تقول : حرَّم عليَّ السّؤال للخلق وأَوجب عليَّ السّؤال له عزَّ وجلَّ ، وأَنا أَدعوه وهو لا يجيبني ، فيقال لك : أَحرٌّ أَنت أَم عبدٌ ، فإِنْ قلت : أَنا حرٌّ ، فأَنت كافر ، وإِنْ قلت : أَنا عبد ، فيقال لك : أَمُتَّهِمٌ أَنت لمولاك عزَّ وجلَّ في تأخير إجابة دعائك ، وشاكٌّ في حكمته ورحمته بك وبجميع خلقه ، وعلمه بأَحوالهم ، أَم غير متَّهم له عزَّ وجلَّ ؟ .

فإِنْ كنتَ غير متَّهم له عزَّ وجلَّ ومقرٌّ بحكمته وإرادته ومصلحته لك في تأخير ذالك ، فعليك بالشُّكر له عزَّ وجلَّ ، لأَنَّه ٱختار لك الأَصلح والنِّعمة ، ودفع الفساد عنك .

وإِنْ كنت متَّهماً له في ذالك فأَنت كافر بتهمتك له ، لأَنَّك بذالك ناسبٌ له إلىٰ الظُّلم/ ، وهو عزَّ وجلَّ ليس بظلّام للعبيد ، ولا يقبل الظُّلم ، ويستحيل عليه أَنْ يظلم ، إِذ هو مالِكُكَ ومالِكُ كلِّ شيء ، والمالِك له التَّصرُّف في مُلكِه كيف يشاء ، فلا يطلقُ عليه ٱسم الظُّلم ، وإِنَّما الظّالم من يتصرَّف في مُلكِ غيره بغير إذنه .

٥٨/أ

فاسدُدْ عليك سبيل التَّسخُّط عليه عزَّ وجلَّ في فعله فيك ، بما يخالف طبعك وشهوة نفسك ، وإِنْ كان في الظّاهر مفسدة لك .

فعليك بالشُّكر والصَّبر والموافقة والرِّضا ، وترك التَّسخُّط والتُّهمة

والقيام مع رعونة النَّفس وهواها { الَّذي } يضلّ عن سبيل الله .

وعليك بدوام الدُّعاء وصدق الالتجاء ، وحسن الظَّنِّ بربِّك عزَّ وجلَّ ، وٱنتظار الفرج منه ، والتَّصديق بوعده ، والحياء منه ، والموافقة لأَمره ، وحفظ توحيده ، والمسارعة إِلىٰ أَداء أَوامره ، والتَّقاعد عن ٱرتكاب نهيه ، والتَّماوت عند نزول قدره بك وفعله فيك .

وإِنْ كان لا بدَّ أَنْ تتَّهم وتسيء الظَّنَّ ؛ فنفسك الأَمّارة بالسّوء العاصية لربِّها عزَّ وجلَّ أَولىٰ بهما ، ونسبتك الظُّلم إِليهاٰ { أَحرىٰ } من مولاك .

فاحذر موافقتها وموالاتها ، والرِّضا بفعلها وقولها في الأَحوال كلِّها ، لأَنَّها عدوَّة الله عزَّ وجلَّ وعدوَّتك ، وموالية لعدوّ الله وعدوّك الشَّيطان الرَّجيم ، هي خليفته وجاسوسته ومصافيته .

الله الله ثمَّ الله ، الحذر/ الحذر ، النَّجاة النَّجاة .   ٥٨/ ب

ٱتَّهمها أَبداً ، وٱنسب الظُّلم إِليها ، وٱقرأ عليها قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ ما يُفْعَلُ ٱلله بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكانَ ٱلله شاكِراً عَليماً ﴾ [سورة النِّساء ٤/ ١٤٧] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ { ذالِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ } وأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاّم لِلْعَبيد ﴾[سورة الحج ٢٢/ ١٠] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلله لا يَظْلِمُ ٱلنّاسَ شَيْئاً ولاكِنَّ ٱلنّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمون ﴾ [سورة يونُس : ١٠/ ٤٤] ، وغيرها من الآيات والأَخبار .

كُن خصماً لله عزَّ وجلَّ علىٰ نفسك ، ومجادلاً لها عنه عزَّ وجلَّ ، ومحارباً وسيّافاً { لربِّك عزَّ وجلَّ } ، وصاحب جنده وعسكره ، فإِنَّها أَعدىٰ عدوّ الله عزَّ وجلَّ[1] . قال الله عزَّ وجلَّ : (يا داود ٱهجر هواك ، فإِنَّه لا منازع ينازعني في ملكي غير الهوىٰ) .

---

(١) ورد عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما : أَعدىٰ عدوك نفسك الَّتي بين جنبيك .

تنزل الطير حيث ينثر الحب

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : لا تَقُلْ لا أَدعو الله عزَّ وجلَّ .

فإِنْ كان ما أَسألُه مقسوم فسيأتيني إِنْ سألته أَو لم أَسأله ، وإِنْ كان غير مقسموم فلا يعطيني بسؤالي .

بل ٱسْأَلهُ عزَّ وجلَّ جميع ما تريد وتحتاج إِليه من خير الدُّنيا والآخرة ، ما لم يكن فيه محرَّم ومفسدة ، لأَنَّ الله عزَّ وجلَّ أَمر بالسّؤال له وحثَّ عليه ، وقال { عزَّ وجلَّ } : ﴿ . . ٱدْعوني أَسْتَجِبْ لَكُم . . ﴾ [سورة غافر : ٤٠/ ٦٠] ، وقال { الله تعالىٰ } : ﴿ . . وٱسْئَلوا ٱللهَ مِن فَضْلِه . . ﴾ [سورة النِّساء ٤/ ٣٢] .

وقال النَّبيُّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « ٱسألوا اللهَ وَأَنْتُمْ موقِنونَ بِالإِجابَةِ »[1] .

وقال : « ٱسألوا اللهَ بِبُطونِ أَكُفِّكُمْ »[2] . وغير ذالك من الأَخبار .

---

(١) قطعة من حديث . أَخرجه أَحمد في « مسنده » ج٢/ ١٧٧ ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . وأَخرجه التِّرمذيُّ في « الجامع الصَّحيح » برقم ٣٤٧٩ ، عن أَبي هريرة رضيَ الله عنه . وتتمَّته : « . . وٱعْلَموا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجيبُ دُعاءً مِنْ قَلْبِ غافِلٍ لاهٍ » وهو حديث حسن صحيح .

(٢) قطعة من حديث . أَخرجه أَبو داود في « سننه » برقم ١٤٨٥ ، عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَسْتُروا الجُدُرَ ، مَنْ نَظَرَ في كِتابِ أَخيهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ فإِنَّما يَنْظُرُ في النّارِ ، سَلوا اللهَ بِبُطونِ أَكُفِّكُمْ ولا تسْأَلوه بِظُهورِها ، فإِذا فَرَغْتُمْ فامْسَحوا بِها وجوهَكُمْ » . وهو حديث ضعيف .

ولا تقل إنّي أَسأله فلا يعطيني فإذن لاأَسألُه، بل دُم { علىٰ } دعائه عزَّ وجلَّ .

فإنْ كان ذالك مقسوماً ساقه إليك بعد أَنْ تسأَله/ ، فيزيدك ذالك ٥٩/ أ إيماناً ويقيناً وتوحيداً ، وترك سؤال الخلق والرُّجوع إليه عزَّ وجلَّ في جميع أَحوالك وإنزال حوائجك به عزَّ وجلَّ .

وإنْ لم يكن مقسوماً لك أَعطاك الغنىٰ عنه في الباطن ، والرِّضا عنه عزَّ وجلَّ بالفقر ، فإنْ كان فقراً أَو مرضاً أَرضاك بهما ، وإنْ كان ديْناً قَلْبَ تَلْبَ صاحب الدَّينِ من سوء المطالَبة إلىٰ الرِّفق بك والتَّأخير والتَّسهيل إلىٰ حين ميسورك ، أَو إسقاطه عنك أَو نقصه ، فإنْ لم يسقط عنك ولم يترك منه في الدُّنيا ، أَعطاك عزَّ وجلَّ في الآخرة ثواباً جزيلاً بدل ما لم { يعطك } سؤلك في الدُّنيا ، لأَنَّه كريم غنيٌّ رحيم ، فلا يخيّب سائله في الدُّنيا والآخرة .

فلابدَّ من فائدة ونائلة إمّا عاجلاً وإمّا آجلاً .

وقد جاء في الحديث : « إنَّ المُؤْمِنَ يَرىٰ في صَحيفَتِهِ يَوْمَ القِيامَةِ حَسَناتٍ لَمْ يَعْمَلْها ، وَلَمْ يَدْرِ بِها ، فَيُقالُ لَهُ : أَتَعْرِفُها ؟ فَيَقولُ : ما أَعْرِفُها ، مِنْ أَينَ لي هاذِهِ ؟ فَيُقالُ لَهُ : إنَّها بَدَلَ مَسْأَلَتِكَ الَّتي سأَلْتَها في دارِ الدُّنيا »[1] .

وذالك أَنَّه { بسؤال الله } عزَّ وجلَّ يكون ذاكراً له وموحِّداً ، وواضعاً الشّيء في موضعه ، ومعطي الحقَّ أَهله ، ومتبرِّئاً من حوله وقوَّته ، وتاركاً { التّكبُّر } والتَّعظُّم والأَنفة ، وجميعُ ذالك أَعمال صالحة لها ثواب عند الله عزَّ وجلَّ .

---

(١) لم أعثر عليه فيما لدي من المصادر .

افطم نفسك قبل أن تفترسك

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : كلَّما جاهدت النَّفس وغلبتها وقتلتها بسيف المخالفة أَحياها / الله عزَّ وجلَّ ، ونازعتك وطلبت منك الشَّهوات واللَّذّات ، الجناح منها والمباح ، لتعود إِلىٰ المجاهدة والمسابقة ليُكتب لك ثواباً دائماً ، وهو معنىٰ قوله صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « رَجَعْنا مِنَ ٱلجِهادِ الأَصْغَرِ إِلىٰ الجِهادِ الأَكْبَرِ »[1] .

٥٩/ب

أَراد به صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم مجاهدة النَّفس لدوامها وٱستمرارها علىٰ اللّذّات وٱنهماكها في المعاصي ، وهو معنىٰ قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتّىٰ يَأْتِيَكَ ٱليَقين ﴾ [سورة الحِجر ١٥/ ٩٩] .

أَمرُ الله عزَّ وجلَّ لنبيّه { محمَّد } صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم بالعبادة ، وهي مخالفة النَّفس ، لأَنَّ العبادات كلّها تأباها النَّفس وتريد ضدَّها ، إِلىٰ أَنْ يأتيه اليقين ـ يعني : الموت ـ .

{ فإِنْ قال قائل } : كيف تأبىٰ نفس رسول الله صلّىٰ الله { تعالىٰ }

---

(١) أَخرج البيهقي في « الزّهد » برقم ٣٧٣ ، عن جابر بن عبد الله رضيَ الله عنه قال : قدم علىٰ رسول الله ﷺ قوم غزاة ، فقال ﷺ : « قدمتم خيرَ مقدم من الجهاد الأَصغر إلىٰ الجهاد الأَكبر » ، قيل : وما الجهاد الأَكبر ؟ قال : « مجاهدة العبد هواه » . وهو ضعيف الإسناد مخالفٌ تماماً لقول النَّبيّ ﷺ لمعاذ بن جبل رضيَ الله عنه قال : « أَلا أُخبرك برأس الأَمر كلِّه وعموده ، وذروة سنامه ؟ » قلت : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « رأس الأَمر الإِسلام ، وعموده الصَّلاة ، وذروة سنامه الجهاد » . وهاذا حديث حسن صحيح .

عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم العبادة وهو عليه الصَّلاة والسَّلام لا هوىٰ له ؟ قال الله تعالىٰ : ﴿ ومَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يوحىٰ ﴾ [سورة النَّجم : ٥٣/ ٣-٤] .

{ فنقول } : إِنَّه عزَّ وجلَّ خاطب نبيَّه بهاذا الخطاب ليتقرَّر به الشَّرع ، فيكون عامّاً بين أُمَّته إِلىٰ أَنْ تقوم السّاعة ، ثمَّ هو عزَّ وجلَّ أَعطىٰ نبيَّه القوَّة علىٰ النَّفس والهوىٰ ، كيلا يَضُرّاهُ ويحوجاه إِلىٰ المجاهدة والمحاربة ، بخلاف أُمَّته .

فإِذا دام المؤمن علىٰ هاذه المجاهدة إِلىٰ أَنْ يأتيه الموت ويلحق بربِّه عزَّ وجلَّ بسيف مسلول متلطِّخ بدم النَّفس والهوىٰ / ، أَعطاه الله { عزَّ وجلَّ } ما ضمن له من الجنَّة ، بقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّـهِ وَنَهـىٰ ٱلنَّفْـسَ عَـنْ ٱلهَـوىٰ ۞ فَـإِنَّ ٱلجَنَّـةَ هـيَ ٱلمَـأْوىٰ ﴾ [سـورة النّازعات : ٧٩/ ٤٠ ـ ٤١] . ٦٠/أ

فإِذا أَدخله الجنَّة وجعلها داره ومقرَّه ومصيره ، { وأَمِنَ } من التَّحويل عنها والنّقلة إِلىٰ غيرها والعَودِ إِلىٰ دار الدُّنيا ، جدَّد له كلَّ يوم وكلَّ ساعةٍ من أَنواع النَّعيم ، وتغيَّر عليه أَنواع الحلل والحلي { إِلىٰ } ما لا نهاية له ولا غاية ولا نفاد ، كما جدَّد هو في الدُّنيا كلَّ يوم وكلَّ ساعة ولحظة مجاهدة النَّفس والهوىٰ .

وأَمّا الكافر والمنافق والعاصي لَمّا تركوا مجاهدة النَّفس والهوىٰ في الدُّنيا وتابعوهما ، ووافقوا الشَّيطان فانمزجوا في أَنواع المعاصي من الكفر والشِّرك وما دونهما ، حتّىٰ أَتاهم الموت من غير الإِسلام والتَّوبة ، أَدخلهم الله عزَّ وجلَّ النّار الَّتي أَعدَّها للكافرين في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱتَّقوا النّارَ الَّتي أُعِدَّتْ لِلْكافِرين ﴾ [سورة آل عمران ٣/ ١٣١] ، فإِذا أَدخلهم فيها وجعلها مقرَّهم ومصيرهم وأُمَّهم ، فأَحرقت جلودهم

ولحومهم ، جدَّد الله عزَّ وجلَّ لهم جلوداً ولحوماً غيرها ، كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلناهُمْ جُلوداً غَيْرَها . . ﴾ [سورة النِّساء : ٤/ ٥٦] ، يفعل عزَّ وجلَّ بهم الله ذالك لأَنَّهم وافقوا أَنفسهم وأَهواءهم في الدُّنيا في معاصيه عزَّ وجلَّ .

فأَهل النّار يجدِّد لهم كلَّ وقت جلوداً ولحوماً لإِيصال العذاب والآلام إِليهم ، وأَهل الجنَّة يجدَّد / لهم كلَّ وقت النَّعيم { لتُضاعَفَ } الشَّهوات واللَّذّات لديهم . ٦٠/ب

وسبب ذالك مجاهدة النَّفس وترك موافقتها في دار الدُّنيا ، وهاذا معنىٰ قول النَّبيِّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « الدُّنيا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ »[1] .

ما أحكم من يسوق المقادير إلى المواقيت !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : إِذا أَجاب الله عبده ما سأَله ، وأَعطاه ما طلبه ، لم تنخرم بذالك إِرادته ، ولا ما جفَّ به القلم وسبق به العلم ، لاكنَّه يوافق سؤاله مراد ربِّه عزَّ وجلَّ في وقته ، فتحصل الإِجابة وقضاء الحاجة في الوقت المقدَّر الَّذي قدَّر في السّابقة لبلوغ القدر وقته ، كما قال أَهل العلم في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شأن ﴾ [سورة الرَّحمان ٥٥/ ٢٩] ، أَي يسوق المقادير إِلىٰ المواقيت ، فلا يعطي الله { عزَّ وجلَّ } أَحداً شيئاً في الدُّنيا بمجرَّد دعائه ، وكذالك لا يصرف عنه السّوء { بمجرَّد دعائه } .

---

(١) قال القاري في « الأَسرار المرفوعة » برقم ٢٠٥ : لم أَقف عليه مع إِيراد الغزالي له في « الإِحياء » . قلت : لا أَصل له ، إِنَّما يروىٰ من كلام عيسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام .

والَّذي ورد في الحديث { عن النَّبيَّ صلّىٰ الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم } : « لا يَرُدُّ القَضاءَ إلاّ الدُّعاءُ »[١] .

قيل المراد به لا يردُّ القضاء إلاّ الدُّعاء الَّذي قضىٰ أَنْ يردَّ القضاء به ، وكذالك لا يدخل أَحد الجنَّة في الآخرة { بعمله } ، بل برحمة الله عزَّ وجلَّ ، لاكنَّه { عزَّ وجلَّ } يُعطي العباد الدَّرجات في الجنَّة علىٰ قدر أَعمالهم .

وقد ورد في حديث عائشة رضيَ الله { تعالىٰ } عنها : أَنَّها سأَلت النَّبيَّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : هل يدخل أَحد الجنَّة بعمله ؟ فقال : « لا / بل برحمة الله { تعالىٰ } » ، فقالت :٦١/أ ولا أنت ؟ فقال : « وَلا أَنا إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَني الله بِرَحْمَتِهِ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلىٰ هامَتِهِ »[٢] .

وذالك لأَنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يجب لأَحدٍ عليه حقٌّ ، ولا يلزمه الوفاء بالعهد ، بل يفعل ما يريد ، يعذِّب من يشاء ، { ويغفر لمن يشاء } ، ويرحم من يشاء ، وينعِّم من يشاء ، فعّال لِما يريد ، لا يُسأَلُ عمّا يفعل وهم يُسأَلون ، يرزق من يشاء بغير حساب ، بفضل رحمته ومِنَّته ، ويمنع من يشاء بعدله .

وكيف لا يكون { ذالك } كذالك والخلق من لدن العرش إلىٰ الثَّرىٰ الَّتي هي الأَرض السّابعة السُّفلىٰ ملكه وصنعه ، لا مالِكَ لهم غيره ولا صانع لهم سواه .

---

(١) قطعة من حديث . أَخرجه التِّرمذيُّ في « الجامع الصَّحيح » برقم ٢١٣٩ ، عن سلمان رضيَ الله عنه . وتتمَّته : « . . وَلا يَزيدُ في العُمْرِ إلاّ البِرُّ » . وهو حديث صحيح .
(٢) تقدَّم تخريجه ، ص ١٠٢ وهو حديث صحيح .

قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ ﴾ [سورة فاطر : ٣/٣٥] ، { وقال } : ﴿ . . أَءِلاهٌ مَعَ الله . . ﴾ [سورة النَّمل : ٦٣/٢٧] و{ قال } : ﴿ . . هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [سورة مريم : ٦٥/١٩] ، و{ قال } : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مالِكَ ٱلمُلْكِ تُؤْتي ٱلمُلْكَ مَن تَشاءُ وَتَنزِعُ ٱلمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشاءُ بيَدِكَ ٱلخَيْرُ إنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ * تولِجُ ٱللَّيْلَ في ٱلنَّهارِ وتولِجُ ٱلنَّهارَ في ٱللَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلحَيَّ مِنَ ٱلمَيّتِ وَتُخْرِجُ ٱلمَيّتَ مِنَ ٱلحَيّ وَتَرْزُقُ مَن تَشاءُ بِغَيْرِ حِساب ﴾ [سورة آل عمران : ٣/ ٢٦ ـ ٢٧] .

لا تطلبْ من الجواد إلاَّ ثميناً

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأرضاه : لا تطلبنَّ من الله عزَّ وجلَّ شيئاً سوىٰ المغفرة للذُّنوب السّالفة ، والعصمة منها في الأَيّام الآتية اللاّحقة[1] ، والتَّوفيق لحسن الطّاعة وٱمتثال الأَمر ، والانتهاء عن النَّواهي والرِّضا بِمُرِّ القضاء ، والصَّبر علىٰ شدائد البلاء ، والشُّكر علىٰ جزيل النَّعماء والعطاء ، ثمَّ الموافاة بخاتمة الخير / ، واللُّحوق بالأَنبياء والصِّدّيقين والشُّهداء والصّالحين وحَسُنَ أُولائك رفيقاً . ٦١/ب

ولا تطلب منه الدُّنيا { ولا كشف } الفقر والبلاء إلىٰ الغنىٰ والعافية ، بل ٱرضَ بما قَسَمَ ودبّر ، وٱسأَله الحفظ الدّائم علىٰ ما أَقامك فيه وأَحلّك وٱبتلاك ، إلىٰ أَنْ ينقلك منه إلىٰ غيره وضدِّه ، لأَنَّك لا تعلم الخير في أَيّهما ، في الفقر أَو في الغنىٰ ، في البلاء أَو في العافية ، طوىٰ

(١) يستحب أَنْ يدعوَ المرء بهاذا الدُّعاء : اللَّهُمَّ ٱغفر لي جميع ما أَسلفتُه ، وٱعصمني فيما بقيَ لي ، وٱرزقني عملاً صالحاً ترضىٰ به عنّي ، يا ذا الفضل العظيم .

عنك { عِلم } الأَشياء ، وتفرَّد هو عزَّ وجلَّ بمصالحها ومفاسدها .

وقد ورد عن عمر بن الخطّاب رضيَ الله { تعالىٰ } عنه : (لا أُبالي علىٰ أَي حال أُصبح ، علىٰ ما أَكره أَو علىٰ ما أُحبُّ ، لأَنّي لا أدري الخير في أَيّهما) . قال ذالك رضوان الله عنه لحُسنِ رضاه بتدبير الله عزَّ وجلَّ له ، والطّمأنينة إلىٰ ٱختياره وقضائه عزَّ وجلَّ .

قال الله تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهوا شَيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسىٰ أَنْ تُحِبّو شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمون ﴾ [سورة البقرة : ٢/٢١٦] .

كُن علىٰ هاذا الحال إلىٰ أَنْ يزول هواك ، وتنكسر نفسك ، فتكون ذليلة مغلوبة تابعة لك ، ثمَّ تزول إِرادتك وأَمانيك ، وتخرج الأَكوان من قلبك ، فلا يبقىٰ { في قلبك } شيء سوىٰ الله تعالىٰ ، فيمتلئ قلبك بحبِّ الله عزَّ وجلَّ ، وتصدق إِرادتك في طلبه عزَّ وجلَّ ، فَيُردُّ إِليك الإِرادة { ويأمرك } بطلب حظٍّ من الحظوظ { الدُّنيويَّة / والأُخرويَّة } ، ٦٢/أ فحينئذٍ تسأله عزّ وجلَّ ذالك وتطلبه ممتثلاً لأَمره {عزَّ وجلَّ} وموافقاً له .

إِنْ أَعطاك شكرته وتلبَّست به ، وإِنْ منعك لم تتسخَّط عليه ، ولم تتغيَّر عليه في باطنك ، ولا تتَّهمه في ذالك ، لأَنَّك لم تكن طلبته بهواك وإِرادتك ، لأَنَّك فارغ القلب عن ذالك غير مريد له ، بل ممتثلاً لأَمره بالسّؤال والسَّلام .

ما رميت إذ رميت ولاكنّ الله رمىٰ

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : كيف يحسن منك العُجب في { الأَعمال } ورؤية نفسك فيها ، وطلب الأَعواض عليها ؟

وجميع ذالك بتوفيق الله عزَّ وجلَّ وعونه وقوَّته وإرادته وفضله ، وإنْ كان ترك معصيته فبعصمته عزَّ وجلَّ ، وحفظه { وحمايته } .

أَين أَنت من الشُّكر { علىٰ } ذالك والاعتراف بهاذه النِّعم الَّتي أَولاكها ،؟ ما هاذه الرُّعونة والجهل ؟

تعجب بشجاعة غيرك وسخائه وبذله لماله ، إذا لم تكن قاتلاً لعدوِك إلاَّ بعد معاونة شجاع ضرب في عدوِك ثمَّ أَتممت قتله ، لولاه كنت مصروعاً مكانه وبدله ؟

ولا باذلاً لبعض مالِك إلاَّ بعد ضمان صادق كريم أَمين ، ضَمِنَ لك عِوَضه وخلفه ، لولا قوله وطمعك فيما { وعدك } وضَمِنَ لك ، ما بذلت حبَّة منه ، كيف { تعجب } بمجرِّد فعلك ؟

أَحسن حالك ، الشُّكر والثَّناء علىٰ المعين ، { والحمد الدّائم له } ، وإذافة ذالك إليه في الأَحوال كلِّها ، إلاّ الشَّرَّ والمعاصي واللَّوم ، فإنَّك تضيفها / إلىٰ نفسك ، وتنسبها إلىٰ الظُّلم وسوء الأَدب وتتَّهمها به ، فهي أَحقُّ بذالك ، لأَنَّها مأوىٰ كلِّ شرٍّ ، وأَمّارة بكلِّ سوء وداهية .

٦٢/ب

وإنْ كان الله هو عزَّ وجل خالق أَفعالك مع كسبك ، أَنت الكاسب وهو الخالق ، كما قال بعض العلماء بالله عزَّ وجلَّ : تجيء له ولا بدَّ منك . وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : « ٱعملوا وقاربوا وسدِّدوا فكلٌّ مُيَسَرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ »(١) .

---

(١) أَخرجه التِّرمذيُّ في « الجامع الصَّحيح » برقم ٣١١١ ، عن ابن عمر رضيَ الله عنهما ، بنحوه وهو حديث صحيح حسن غريب . ولفظة : « فكلٌّ ميسر لما خُلقَ له » صحيحة .

وهل يناسب قدرك إلّا ما خلع عليك ؟

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : لا يخلو إمّا أَنْ تكون مُريداً أَو مُراداً .

فإذا كنت مُريداً فأَنت محمل وحمّال ، تحمل كلَّ ثقيل وشديد ، لأَنَّك طالب ، والطّالب مشقوق عليه متعوب حتّىٰ يصل إلىٰ مطلوبه ويظفر بمحبوبه ويدرك مرامه .

ولا ينبغي لك أَنْ تنفر من بلاء ينزل بك في النَّفس والمال والأَهل والولد ، إلىٰ أَنْ تحطّ عنك الأَحمال ، { وتُزال } عنك الأَثقال ، { وتُرفع } عنك الآلام ، ويُزال عنك الأَذىٰ والإذلال ، فتصان عن جميع الرَّذائل والأَدران والأَوساخ والمهانات والأَدواء والأَوجاع والافتقار إلىٰ الخليقة والبريّات ، فتدخل في زمرة المحبوبين المدلَّلين المرادين .

وإنْ كنت مُراداً فلا تتهمنَّ الحقَّ عزَّ وجلَّ في إنزال البليَّة بك أَيضاً ، ولا تشكَّنَّ في منزلتك وقدرك عنده عزَّ وجلَّ ، لأَنَّه قد يبتليك/ ليبلغك ٦٣/ أ مبلغ الرِّجال ، ويرفع منزلتك إلىٰ منازل الأَولياء والأَبدال .

أَتحبُّ أَنْ تحطَّ منزلتك عن منازلهم ، ودرجتك عن درجاتهم ، وأَنْ تكون خلعتك وأَنوارك ونعيمك دون ما لهم ؟

فإنْ رضيت أَنت بالدُّون فالحقُّ عزَّ وجلَّ لا يرضىٰ لك بذالك ، قال الله تعالىٰ : ﴿ . . وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمون ﴾ [سورة البقرة ٢/٢١٦] ، يختار لك الأَعلىٰ والأَسنىٰ والأَرفع والأَصلح وأَنت { تأبىٰ } .

فإنْ قلت كيف يصحُّ ٱبتلاء المراد مع هاذا التَّقسيم والبيان مع أَنَّ الابتلاء إنَّما هو للمحبّ ، والمدلَّل إنَّما هو المحبوب .

يقال : ذكرنا لك الأغلب أَوّلاً وشهرنا بالنّادر الممكن ثانياً .

لا خلاف أَنَّ النَّبيَّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم كان سيّد المحبوبين ، وكان أَشدَّ النّاس بلاء ، وقد قال صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « لَقَدْ أُخِفْتُ في اللهِ ما لا يَخافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذيتُ في اللهِ [وَما يؤْذىٰ] أَحَدٌ ، وَلَقَدْ [أَتَتْ] عَلَيَّ ثَلاثونَ يَوْماً [مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ] وَلَيْلَةٍ [وما ليَ وَلِبلالٍ] طَعامٌ [يَأْكُلُهُ ذو كَبِدٍ] إلاّ شَيءٌ يُواريهِ إِبْطُ بِلالٍ »[1] .

وقد قال صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « إنّا مَعاشِرَ الأنبيَاءِ أَشَدُّ النّاسِ بَلاءً ثُمَّ الأَمْثَلُ بِالأَمْثَلِ »[2] ، وقال صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم : « أَنا أَعْرَفُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ مِنْهُ خَوْفاً »[3] .

فكيف يبتلىٰ المحبوب ويخوّف المدلَّل المراد ، ولم يكن ذالك إلاّ لِما أَشرنا إليه من بلوغ المنازل/ العالية في الجنَّة عند الله عزَّ وجلَّ ، لأَنَّ المنازل في الجنَّة { لا تشيّد } وترفع إلاّ بالأَعمال في الدُّنيا . ٦٣/ب

فالدُّنيا مزرعة الآخرة ، وأَعمال الأَنبياء والأَولياء بعد أَداء الأَوامر وٱنتهاء النَّواهي إنَّما هي الصَّبر والرِّضا والموافقة في حالة البلاء ، ثمَّ يكشف عنهم

---

(١) أَخرجه التِّرمذيُّ في « الجامع الصَّحيح » برقم ٢٤٧٢ ، عن أَنس بن مالك رضيَ الله عنه . وهو حديث صحيح .

(٢) تقدَّم تخريجه ، ص ٩١ . وهو حديث حسن صحيح .

(٣) تقدَّم تخريجه ، ص ١٠٤ . وهو حديث صحيح .

البلاء ويواصلوا بالنَّعيم والفضل والدَّلال إلىٰ اللِّقاء أبد الآباد .

لِكُلِّ ٱمرئٍ يومئذٍ شأنٌ يُغنيه

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : الَّذين يدخلون الأَسواق من أَهل الدّين والنُّسك في مخرجهم إلىٰ أَداء أَوامر الله تعالىٰ من صلاة الجُمع والجماعات وقضاء حوائج { تسنح } لهم فيها علىٰ أَضرب :

منهم من إذا دخل السّوق ورأىٰ فيه من أَنواع الشَّهوات واللَّذّات تقيد بها وعلقت بقلبه فافتتن ، وكان ذالك سبب هلاكه ، وترك دينه ونسكه ، ورجوعه إلىٰ موافقة طبعه ، وٱتِّباع هواه ، { إلاّ } أَنْ يتداركه الله عزَّ وجلَّ برحمته وعصمته { وحميته } وإِصباره إيّاه عنها ، فيسلم .

ومنهم من إذا رأىٰ ذالك وكاد أَنْ يهلك بها ، رجع إلىٰ عقله ودينه وتصبَّر وتكلَّف وتجرَّع مرارة تَرْكِها ، فهو كالمجاهدة ينصره الله تعالىٰ علىٰ نفسه وطبعه وهواه وشهوته ، ويكتب له الثَّواب الجزيل في الآخرة .

كما جاء في بعض الأَخبار عن النَّبيِّ صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم/ أَنَّه قال : « يُكْتَبُ لِلْمُؤْمنينَ بِتَرْكِ الشَّهْوَةِ عِنْدَ العَجْزِ عَنْها أَو عِنْدَ القُدْرَةِ عَلَيها سَبْعينَ حَسَنَة »[1] أَو كما قيل . ٦٤/ أ

ومنهم من يتناوله ويتلبَّس بها ، ويحصِّلها بفضل نعمة الله عزَّ وجلَّ الَّتي عنده من سعة الدُّنيا والمال ، ويشكر الله عزَّ وجلَّ عليها .

ومنهم من لا يراها ولا يشعر بها ، فهو أَعمىٰ عمّا سوىٰ الله عزَّ وجلَّ فلا يرىٰ غيره ، وأَصم عمّا سواه فلا يسمع من غيره ، وعنده شغل عن النَّظر إلىٰ غير محبوبه وٱشتهائه ، فهو في معزل عمّا العالم عليه ، فإذا

---

(١) لم أعثر عليه فيما لدي من المصادر .

رأَيته وقد دخل السّوق فسأَلته عمّا رأىٰ في السّوق؟ يقول: مارأيت شيئاً.

نعم قد رأىٰ الأَشياء، لاكن رآها ببصر رأسه لا ببصر قلبه، ونظرها نظر فجأة لا نظر شهوة، نظر صورة لا نظر معنىٰ، نظر الظّاهر لا نظر الباطن، فبظاهره ينظر إِلىٰ ما في الأَسواق، وبقلبه ينظر إِلىٰ ربّه عزَّ وجلَّ، إِلىٰ جلاله تارةً وإِلىٰ جماله تارةً أُخرىٰ.

ومنهم من إِذا دخل السّوق آمتلأَ قلبه بالله رحمة لأَهله، فتشغله الرَّحمة { لهم } عن النَّظر إِلىٰ ما لهم وما بين أَيديهم، فهو من حين دخوله إِلىٰ حين خروجه في الدُّعاء والاستغفار، وشفاعة أَهله، وشفقته ورحمة، فقلبه محترق عليهم ولهم، وعينه مُغْرَورِقَةٌ لأَجلهم، ولسانه في ثناء وحمد لله عزَّ وجلَّ بِما أَولىٰ الكافَّة من نعمه وفضله، فهاذا يسمّىٰ شحنة البلاد والعباد/ ٦٤/ب، وإِنْ شئت فسمِّه عارفاً وبدلاً وزاهداً وعالِماً عيناً { وتداً } محبوباً، مراداً نائباً في الأَرض { علىٰ } عباده، وسفيراً وجهبذاً هادياً مهدياً دالاً مرشداً. فهاذا الكبريت الأَحمر وبيضة { العقعق }[1]. رضوان الله وصلواته عليه، وعلىٰ كلِّ مؤمن مريد لله عزَّ وجلَّ وصل إِلىٰ انتهاء المقام.

في آلائه آبتلاء وفي حرمانه آختبار!

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه: قد { يُطلع } الله { تعالىٰ } وليه علىٰ عيوب غيره وكذبه ودعواه وشركه في أَفعاله وأَقواله وإِضماره

(١) طائر من الفصيلة الغُرابيّة ورتبَة الجوائم، له ذنب طويل ومنقار طويل قوي، يعشعش علىٰ رؤوس الشَّجر، ويتغذّىٰ بالحبوب والأثمار والحشرات وبيض الطُّيور وصغار الطَّير، وهو ذكيٌّ جدّاً، شرس يعدُّ من أضرّ الطُّيور.

ونيَّته ، فيغار ولي الله عزَّ وجلَّ لربِّه ولرسوله ودينه ، فيشتدَّ غضب باطنه ، ثمَّ ظاهره .

كيف يدّعي السّلامة مع العلل والأَوجاع الباطنة والظَّاهرة ؟

وكيف يدّعي التَّوحيد مع الشِّرك ، والشِّرك كفر مبعد عن قرب الحقِّ { عزَّ وجلَّ } ، وهو صفة العدوِ والشَّيطان اللَّعين ، والمنافقين المقطوع لهم في الدَّرك الأَسفل من النّار والخلود فيها ، فيجري علىٰ لسان الولي ذكر عيوبه وأَفعاله الخبيثة ووقاحته بعريض دعواه وإدعائه أَحوال الصِّدّيقين ، ومزاحمته للفانين في قدر الله { عزَّ وجلَّ } وفعله ، والمرادين علىٰ وجه الغيرة لله عزَّ وجلَّ مرَّة ، وعلىٰ وجه الإِنكار عليه والوعظ له أُخرىٰ ، وعلىٰ وجه الغلبة لفعل الله عزَّ وجلَّ وإِرادته وشدَّة غضبه علىٰ الكذّاب والمكذِّب أُخرىٰ .

فيضاف ذالك إِلىٰ ولي الله عزَّ وجلَّ غيبته ، فيقال :/ أَيغتاب الولي ٦٥/ أ وهو يمنع منها ، أَو يذكر الغائب والحاضر بما لم يظهر عند العوام والخواص .

فيصير ذالك الإِنكار في حقِّهم كما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ . . وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا . . ﴾ [سورة البقرة ٢/ ٢١٩] .

في الظّاهر إِنكار ، والمنكر في الباطن إِسخاط الرَّبِّ { عزَّ وجلَّ } والاعتراض عليه ، فيصير حاله الحيرة ، فيكون { فرضهم } فيها السُّكوت والتَّسليم وطلب المساغ لذالك في الشّرع ، والجواز لا للاعتراض علىٰ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ والولي والطَّعّان لافترائه وكذبه ، وقد يكون ذالك سبباً لإِقلاعه وتوبته ورجوعه عن جهله وحيرته ، فيكون كرهاً للولي ونفعاً للمغرور الهالك بغروره ورعونته . ﴿ . . وَاللهُ يَهْدِي مَن

يَشاءُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيم ﴾ [سورة النُّور ٢٤/ ٤٦] .

إنما يدلُّ النُّور علىٰ المصباح والأرَج علىٰ الأزهار

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : أَوَّل ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه ، ثمَّ في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدلُّ بذالك علىٰ خالقها ومبدعها ، لأَنَّ في الصَّنعة دلالة علىٰ الصّانع ، وفي القدرة المحكمة آية تدلُّ علىٰ الفاعل الحكيم ، فإِنَّ الأَشياء كلَّها موجودة به .

وفي معناه ما ذكر عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم ما في السَّماواتِ وَما في الأَرْضِ جَميعاً مِنْه . . ﴾ [سورة الجاثية ٤٥/ ١٣] ، فقال : في كلِّ شيء ٱسم من أَسمائه ، وٱسم كلِّ شيء من ٱسمه تعالىٰ[١] .

فإِنَّما أَنت بين أَسمائه وصفاته وأَفعاله ، باطناً بقدرته وظاهراً بحكمته ، ظهر بصفاته وبطن بذاته ، حجب/ الذّات بالصِّفات ، وحجب الصِّفات بالأَفعال ، وكشف العلم بالإِرادة ، وأَظهر الإِرادة بالحركات ، وأَخفىٰ الصُّنع والصَّنيعة ، وأَظهر الصَّنعة بالإِرادة ، هو باطن في غيبه وظاهر في حكمته وقدرته ﴿ . . لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّميعُ البَصير ﴾ [سورة الشُّورىٰ ٤٠/ ١١] . ٦٥/ب

ولقد أَظهر في هاذا الكلام من أَسرار المعرفة ما لا يظهر إِلاّ من مشكاة فيها مصباح ، أَمره برفع يد العصمة بابتهال : اللَّهُمَّ فقهه في الدّين وعلمه التأَويل .

(١) راجع كتاب روح المعاني ، ج٢٥/ ١٤٥ـ١٤٦ .

أَنالنا الله تعالىٰ بركاتهم وحشرنا في زمرتهم آمين .

لكلّ أمرٍ حقيقةٌ ولكلّ بنيانٍ أركانه

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه في وصيَّة له : أُوصيك بتقوىٰ الله وطاعته ، ولزوم ظاهر الشَّرع وسلامة الصَّدر ، وسخاء النَّفس ، وبشاشة الوجه ، وبذل النَّدىٰ ، وكفِّ الأَذىٰ ، وتحمُّل الأَذىٰ والفقر ، وحفظ حرمات المشايخ ، وحُسن العشرة مع الإخوان ، والنَّصيحة للأَصاغر { والأَكابر } ، وترك الخصومة { والشِّقاق } ، وملازمة الإيثار ومجانبة الادِّخار ، وترك صحبة من ليس من طبقتهم ، والمعاونة في أَمر الدِّين والدُّنيا .

وحقيقة الفقر أَلاّ تفتقر إلىٰ من هو مثلك ، وحقيقة الغنىٰ أَنْ تستغني عمَّن هو مثلك .

والتَّصوّف { ليس } ما أُخذ من القيل والقال ، ولاكن أُخذ من الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات ، ولابتداء الفقر بالعلم وآبتداؤه بالرفق/ ، فإِنَّ العلم يوحشه والرِّفق يؤنسه . ٦٦/أ

والتَّصوّف مبني علىٰ ثمان خصال : السَّخاء لإبراهيم [عليه الصَّلاة والسَّلام] .

والرِّضا لإسحاق [عليه الصَّلاة والسَّلام] .

والصَّبر لأَيّوب [عليه الصَّلاة والسَّلام] .

والإشارة لزكريا [عليه الصَّلاة والسَّلام] .

والغربة ليحيىٰ [عليه الصَّلاة والسَّلام] .

ولبس الصّوف لموسىٰ [عليه الصَّلاة والسَّلام] .

والسِّياحة لعيسىٰ [عليه الصَّلاة والسَّلام] .

والفقر [لسيّدنا ونبيّنا] محمَّد صلّىٰ الله { تعالىٰ } عليه وعلىٰ آله وأَصحابه وسلَّم .

وصاحب النّاس بخلق حسن

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : أُوصيك أَنْ تصحب الأَغنياء بالتَّعزُّز ، والفقراء بالتَّذلُّل ، وعليك بالتَّذلُّل والإخلاص ، وهو دوام رؤية الخالق ، ولا تَّتهم الله عزَّ وجلَّ في الأَسباب ، { وٱستكن } إليه في كلِّ الأَحوال ، ولا تُضِعْ حقَّ أَخيك ٱتّكالاً علىٰ ما بينك وبينه من المودَّة .

وعليك بصحبة الفقراء بالتَّواضع وحسن الأَدب والسَّخاء ، وأَمت نفسك حتىٰ تحيىٰ ، وأَقربُ الخلق من الله تعالىٰ أَوسعهم خُلقاً ، وأَفضل الأَعمال رعاية السِّرِّ عن الالتفات إلىٰ ما سوىٰ الله تعالىٰ .

وعليك بالتَّواصي بالحقِّ وبالصَّبر ، وحسبك { من الدُّنيا شيئان } : صحبة فقير وخدمة ولي ، والفقير { هو } الَّذي لا يستغني بشيء دون الله تعالىٰ .

والصَّولة علىٰ من هو دونك ضعف ، وعلىٰ من هو فوقك { فخر } ، وعلىٰ من هو مثلك سوء خلق .

الفقر والتَّصوّف كلُّه جدٌّ ، فلا تخلطهما بشيء من الهزل ، وفَّقنا الله وإيّاكم .

رُضْ نفسكَ تصبحْ روضةً

قال رضيَ الله [تعالىٰ] عنه [وأَرضاه] : يا ولي عليك بذكر الله علىٰ كلِّ حال ، فإِنَّه للخير جامع ، وعليك بالاعتصام بحبل الله ، فإِنَّه للمضمار دافع ، وعليك بالتَّأهُّب لِتَلَقّي موارد القضاء بالرِّضا ،/ فإِنَّه واقع ٦٦/ب والرِّضا نافع .

وٱعلم أَنَّك مسؤول عن حركاتك وسكناتك ، فاشتغل بما هو أَولىٰ في الوقت ، وإِيّاك وفضول تصرُّفات الجوارح .

وعليك بطاعة الله ورسوله ومن والاه ، وأَدِّ إِليه حقَّه ، ولا تطالبه بما يجب عليه ، وٱدع في كلِّ حال .

وعليك بحسن الظَّنِّ للمسلمين وإصلاح النِّيَّة لهم ، والسَّعي بينهم في كلِّ خير ، وأَلاّ تبيت ولأَحد في قلبك شرٌّ ولا شحناء ولا بغض ، وأَنْ تدعوا لمن ظلمك ، وراقِبِ الله عزَّ وجلَّ .

وعليك بأكل الحلال ، والسّؤال لأَهل العلم بالله فيما لا تعلم ، وعليك بالحياء من الله عزَّ وجلَّ .

وٱجعل صحبتك مع الله ، وٱصحب من سوىٰ الله بصحبته ، وتصدَّق في كلِّ صباح بقرصك ، وإِذا أَمسيت فصلِّ صلاة الجنازة علىٰ من مات من المسلمين في ذالك اليوم ، وإذا صلّيت المغرب فصلِّ صلاة الاستخارة ، وتقول بكرة وعشيةً سبع مرّات : (اللُّهمَّ أَجرنا من النّار) .

وحافظ علىٰ قول أَعوذ بالله السَّميع العليم من الشَّيطان الرَّجيم : ﴿ هُوَ ٱللهُ ٱلَّذي لا إِلٰهَ إِلاّ هُوَ عالِمُ ٱلغَيْبِ وَٱلشَّهادَةِ هُوَ ٱلرَّحْمانُ ٱلرَّحيم ﴾

[سورة الحشر ٤٥/ ٢٢] . إلىٰ آخر السّورة ، والله الموفِّق والمُعين ، { إذ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم } .

أقبل على المحبوب فرداً

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : كُنْ مع الله عزَّ وجلَّ كأَن لا خلق ، ومع الخلق كأَن لا نفس ، فإِذا كنتَ مع الله عزَّ وجلَّ بلا خلق { وحّدت } ، وعن الكلِّ فنيت/ ، وإذا كنتَ مع الخلق بلا نفس عدلت وآتّقيت ومن التَّبعات سلِمت . ٦٧/ أ

وآترك الكلَّ علىٰ باب خلوتك ، وآدخل وحدك ترىٰ مؤنسك في خلوتك بعين سرِّك ، وتشاهد ما وراء الأَعيان ، وتزول النَّفس ويأتي مكانها أَمر الله تعالىٰ وقربه ، فإذن جهلك علم ، وبعدك قرب ، وصمتك ذكر ، ووحشتك أُنس .

يا هاذا : ما ثمَّ إلاَّ خلقٌ وخالِق ، فإِنْ آخترت الخالق ، فقل لهم : ﴿ فإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إِلاّ رَبَّ العالَمين ﴾ [سورة الشُّعراء ٢٦/ ٧٧] .

الثَّمرة المُشتهاة !

ثمَّ قال [رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه] : من ذاقه عرفه ، فقيل له من غلبت عليه مرارة صفرته كيف يجد حلاوة الذَّوق ؟

فقال : [يعمل علىٰ] إزالة الشَّهوات من قلبه .

يا هاذا : المؤمن إذا عمل صالحاً آنقلبت نفسه قلباً ، ثمَّ آنقلب [قلبه سرّاً] ، ثمَّ آنقلب السِّرُّ فصار فناءً ، ثمَّ آنقلب الفناء فصار وجوداً .



ثمَّ قال [رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه] : الأَحباب يسعهم كلُّ باب .

يا هاذا : الفناء إعدام الخلائق ، وانقلاب طبعك إلىٰ طبع الملائكة ، ثمَّ الفناء عن طبع الملائكة . ثمَّ لحوقك بالمنهاج الأَوَّل ، وحينئذٍ يسقيك ربَّك ما يسقيك ، ويزرع فيك ما يزرع .

إنْ أَردت هاذا فعليك بالإسلام ثمَّ الاستسلام ، ثمَّ العلم بالله ، ثمَّ المعرفة ، ثمَّ الوجود ، وإذا كان وجودك له كان كلّكَ له .

الزُّهد عمل ساعة ، والورع عمل ساعتين ، والمعرفة عمل الأَبد .

معارج الكمال(١)

[قال رضيَ الله تعالىٰ عنه وأَرضاه : لأَهل المجاهدة والمحاسبة وأُولي العزم عشر خصال جرِّبوها ، فإذا أَقاموها وأَحكموها بإذن الله تعالىٰ وصلوا إلىٰ الله المنازل الشَّريفة :

الأُولىٰ : أَلاَّ يحلف بالله عزَّ وجلَّ صادقاً ولا كاذباً ، عامداً ولا ساهياً ، لأَنَّه إذا أَحكم ذالك من نفسه ، وعوَّد لسانه ، رفعه ذالِك إلىٰ ترك الحلف ساهياً وعامداً .

فإذا اعتاد ذالك فتح الله باباً من أَنواره يعرف منفعة ذالك في قلبه ، ورفعه في درجة وقوَّة في عزمه وفي صبره والثَّناء عند الإخوان ، والكرامة

---

(١) هاذا البحث غير موجود في النُّسخ الخطيَّة ، وإنَّما هو زيادة من النُّسخ المطبوعة .

عند الجيران ، حتّىٰ يأْتَمَّ به من يعرفه ، ويهابه من يراه .

والثّانية : يجتنب الكذب لا هازلاً ولا جادّاً ، لأَنَّه إذا فعل ذالك وأَحكمه من نفسه وٱعتاده لسانه ، شرح الله تعالىٰ به صدره ، وصفا به علمه ، كأَنَّه لا يعرف الكذب ، وإِذا سمعه من غيره عاب ذالك عليه وعيَّره به في نفسه ، وإِنْ دعا له بزوال ذالك كان له ثواب .

الثّالثة : أَنْ يحذر أَنْ يَعِدَ أَحداً شيئاً فيخلفه ، ويقطع العدَّة أَلبته ، فإِنَّه أَقوىٰ لأَمره وأَقصد بطريقه ، لأَنَّ الحلف من الكذب ، فإِذا فعل ذالك فتح له باب السَّخاء [وباب] الحياء ، وأُعطيَ مودَّة في الصّادقين ، ورفعة عند الله جلَّ ثناؤه .

الرّابعة : أَنْ يجتنب أَنْ يلعن شيئاً من الخلق ، أَو يؤذي ذرَّة فما فوقها ، لأَنَّها من أَخلاق الأَبرار والصِّدّيقين ، وله عاقبة حسنة في حفظ الله تعالىٰ في الدُّنيا ، مع ما يدَّخر له من الدَّرجات ، ويستنقذه من مصارع الهلاك ، ويسلِّمه من الخلق ، ويرزقه رحمة العباد ، ويقرِّبه منه عزَّ وجلَّ .

الخامسة : أَنْ يجتنب الدُّعاء علىٰ أَحدٍ من الخلق ، وإِنْ ظلمه فلا يقطعه بلسانه ، ولا يكافئه بقول ولا فعل ، فإِنَّ هاذه الخَصلة ترفع صاحبها إِلىٰ الدَّرجات العُلىٰ .

وإِذا تأَدَّب بها ينال منزلة شريفة في الدُّنيا والآخرة ، والمحبَّةَ والمودَّة في قلوب الخلق أَجمعين من قريب وبعيد ، وإِجابة الدَّعوة والغلوة في الخلق ، وعزٍّ في الدُّنيا في قلوب المؤمنين .

السّادسة : أَلاّ يقطع الشَّهادة علىٰ أَحد من أَهل القِبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق ، فإِنَّه أَقرب للرَّحمة ، وأَعلىٰ في الدَّرجة ، وهي تمام السُّنَّة ،

وأَبعد عن الدُّخول في علم الله ، وأَبعد من مقت الله ، وأَقرب إِلىٰ رضاء الله تعالىٰ ورحمته ، فإنَّه باب شريف كريم علىٰ الله تعالىٰ يورث العبد الرَّحمة للخلق أَجمعين .

السّابعة : أَنْ يجتنب النَّظر إِلىٰ المعاصي ، ويكفَّ عنها جوارحه ، فإِنَّ ذالك من أَسرع الأَعمال ثواباً في القلب والجوارح في عاجل الدُّنيا ، مع ما يدَّخره الله من خير الآخرة .

نسأَل الله أَنْ يمنَّ علينا أَجمعين ، ويعلِّمنا بهاذه الخصال ، وأَنْ يُخرج شهواتنا عن قلوبنا .

الثّامنة : يجتنب أَنْ يجعل علىٰ أَحد من الخلق منه مؤنة صغيرة [أَو] كبيرة ، بل يرفع مؤنته عن الخلق أَجمعين ، ممّا ٱحتاج إِليه وٱستغنىٰ عنه ، فإِنَّ ذالك تمام عزَّة العابدين وشرف المتَّقين ، وبه يقوىٰ علىٰ الأَمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، ويكون الخلق عنده أَجمعين بمنزلة واحدة .

فإِذا كان ذالك نقله الله إِلىٰ الغناء واليقين والثِّقة به عزَّ وجلَّ ، ولا يرفع أَحد سواه ، وتكون الخلق عنده في الحقِّ سواء ، ويقطع بأَنَّ هاذه أَسباب عزِّ المؤمنين وشرف المتَّقين ، وهو أَقرب باب الإِخلاص .

التّاسعة : ينبغي له أَنْ يقطع طمعه من الآدميين ، ولا يطمع نفسه فيما في أَيديهم ، فإِنَّه العزُّ الأَكبر ، والغنىٰ الخاص ، الملك العظيم ، والفخر الجليل ، واليقين الصّافي ، والتَّوكُّل الشّافي الصَّريح ، وهو باب من أَبواب الثِّقة بالله عزَّ وجلَّ ، وهو باب من أَبواب الزُّهد ، وبه ينال الورع ويكمل نسكه ، وهو من علامات المنقطعين إِلىٰ الله عزَّ وجلَّ .

العاشرة : التَّواضع لأَنَّ به يشيد محل العابد وتعلو منزلته ، ويستكمل

العزّ والرِّفعة عند الله سبحانه وعند الخلق ، ويقدر علىٰ ما يريد من أَمر الدُّنيا والآخرة ، وهاذه الخَصلة أَصل الخصال كلِّها وفرعها وكمالها ، وبها يدرك العبد منازل الصّالحين الرّاضين عن الله تعالىٰ في السَّرّاء والضَّرّاء ، وهي كمال التَّقوىٰ .

والتَّواضع : وهو أَلا يلقىٰ العبد أَحداً من النّاس إلاّ رأىٰ له الفضل عليه ، ويقول عسىٰ أَنْ يكون عند الله خيراً منّي وأَرفع درجة .

فإِنْ كان صغيراً قال هاذا لم يعص الله تعالىٰ ، وأَنا قد عصيت ، فلا شكَّ أَنّه خير منّي . وإِنْ كان كبيراً قال هاذا عَبَدَ الله قبلي . وإِنْ كان عالِماً قال هاذا أُعطي ما لم أَبلغ ، ونال ما لم أَنل ، وعَلِمَ ما جهلت ، وهو يعمل بعلمه . وإِنْ كان جاهلاً قال هاذا عصىٰ الله بجهلٍ ، وأَنا عصيته بعلم ، ولا أَدري بِمَ يختم لي وبم يختم له . وإِنْ كان كافراً قال لا أَدري عسىٰ أَنْ يسلم فيختم له بخير العمل ، وعسىٰ أَكفر فيختم لي بسوء العمل . وهاذا باب الشَّفقة والوجل ، وأَولىٰ ما يصحب وآخر ما يبقىٰ علىٰ العباد .

فإِذا كان العبد كذالك سلَّمه الله تعالىٰ من الغوائل ، وبلغ به منازل النَّصيحة لله عزَّ وجلَّ ، وكان من أَصفياء الرَّحمان وأَحبائه ، وكان من أَعداء إِبليس عدوِّ الله ـ لعنه الله ـ وهو باب الرَّحمة .

ومع ذالك قد يكون قطع باب الكبر وجبال العجب ، ورفض درجة العلوِ في نفسه في الدّين والدُّنيا والآخرة ، وهو مخُّ العبادة ، وغاية شرف الزّاهدين ، وسيماء النّاسكين ، فلا شيء منه أَفضل .

ومع ذالك يقطع لسانه عن ذكر العالمين وما لا يعني ، فلا يتمُّ له عمل إلاّ به ، ويخرج الغِل والكبر والبغي من قلبه في جميع أَحواله ، وكان

لسانه في السِّرِّ والعلانية واحداً ، ومشيته في السِّرِّ والعلانية واحدة ، وكلامه كذالك ، والخلق عنده في النَّصيحة واحد ، ولا يكون من النّاصحين ، وهو يذكر أَحداً من خلق الله بسوء أَو يعيّره بفعل ، أَو يحبّ أَنْ يذكره عنده واحد بسوء . وهاذا آفة العابدين ، وعطب النُّسّاك ، وهلاك الزّاهدين ، إلاّ من أَعانه الله تعالىٰ وحفظ لسانه وقلبه برحمته وفضله وإحسانه] .

إنّما الرّيّ بالماء !

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه لمّا مرض مرضه الَّذي/ مات ٦٧/ب فيه .

قال له ٱبنه عبد الوهّاب : أَوصني بما أَعمل به بعدك ، فقال : عليك بتقوىٰ الله عزَّ وجلَّ ، ولا تخف أَحداً سوىٰ الله ، ولا ترجُ سوىٰ الله ، وَكِلِ الحوائجَ إِلىٰ الله عزَّ وجلَّ . ولا تعتمد إلاّ عليه ، وٱطلُبها جميعاً منه ، ولا تثق بأَحد غير الله ، التَّوحيد التَّوحيد إجماع الكلِّ .

اللّهمّ إنّي أُحِبُّ لِقاءكَ فأَحِبَّ لقائي

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : إذا صحَّ القلب مع الله عزَّ وجلَّ لا يخلو منه شيء ولا يخرج منه شيء .

وقال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : أَنا لبٌّ بلا قشر .

وقال لأَولاده : ٱبعدوا من حولي ، فإِنّي معكم بالظّاهر ومع غيركم بالباطن .

وقال : قد حضر عندي غيركم فأَوسعوا لهم ، وتأَدَّبوا معهم ، هاهنا { رحمة عظيمة } ، ولا تضيقوا عليهم المكان .

وكان يقول : السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، غفر الله لي ولكم ، تاب الله عليَّ وعليكم ، بسم الله غير مودّعين .

قال ذالك يوماً وليلة .

وقال : ويلكم أَنا لا أُبالي بشيء ، لا بِمَلِكٍ ولا بمَلَكِ الموتِ ، [لا تدع أَحداً يتولاّنا سواك] ، وصاح صيحة عظيمة .

وذالك في اليوم الَّذي مات في عشيته .

وأَخبرني ولداه عبد الرزاق وموسىٰ : أَنَّه كان يرفع يديه ويمدّهما ويقول : وعليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته ، توبوا وٱدخلوا في الصَّف هوذا جيء إِليكم .

٦٨/أ وكان يقول : أَرفقوا/ ثمَّ أَتاه الحقُّ وسكرة الموت .

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : بيني وبينكم وبين الخلق كلِّهم بعد ما بين السَّماء والأَرض ، فلا تقيسوني بأَحد ، ولا تقيسوا عليَّ أَحد .

ثمَّ سأَله ولده عبد العزيز عن أَلمه وحاله فقال رضي الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : لا يسأَلني أَحد عن شيء ، أَنا أَتقلَّب في علم الله عزَّ وجلَّ .

قال رضيَ الله { تعالىٰ } عنه وأَرضاه : وقد سأَله ولده عبد العزيز عن مرضه ، فقال : إِنَّ مرضي لا يعلمه أَحد ، ولا يعقله أَحد ، إِنسي ولا جنّي ولا مَلَكٌ ، ما ينقص علم الله بحكم الله ، الحكم يتغيَّر والعلم لا يتغيَّر ، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ ﴿ يَمْحواْ اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ

وَعِنْدَهُ أُمُّ ٱلكِتاب ﴾ [سورة الرَّعد ١٣/ ٣٩] ، ﴿ لا يُسْأَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلون ﴾ [سورة الأَنبياء ٢١/ ٢٣] ، أَخبار الصِّفات تمرُّ كما جاءت .

وسأَله ولده عبد الجبّار : ماذا يؤلمك من جسمك ؟ فقال : جميع أعضائي تؤلمني إلاّ قلبي فما به أَلم ، وهو صحيح مع الله عزَّ وجلَّ .

ثمَّ أَتاه الموت فكان يقول : ٱستعنت بلا إلٰه إلاّ الله سبحانه وتعالىٰ الحيُّ الَّذي لا يخشىٰ الفوت . سبحان من تعزَّز بالقدرة ، وقهر العباد بالموت ، لا إلٰه إلاّ الله محمَّد رسول الله .

وأَخبرني ولده موسىٰ أَنَّه قال : تعزَّز ولم يؤدّها علىٰ الصّحة ، فما زال يكرِّرها حتّىٰ إذا قال تعزَّز ومدَّ بها صوته وشدّ بها ، حتّىٰ صحَّ لسانه ، ثمَّ قال : الله الله ، ثمَّ خفيَ صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه ، ثمَّ خرجت/ روحه الكريمة رضوان الله { تعالىٰ } عليه . ٦٨/ ب

{ أَعاد الله } علينا من بركاته وختم لنا بخير ولجميع المسلمين ، وأَلحقنا بالصّالحين غير خزايا ولا مفتونين ، والحمد لله ربِّ العالمين .

تمَّ الكتاب بعون الله وفضله

فهرس الكتاب

في طيّات هذا الكتاب آدابُ سلوكٍ ومنهجُ حياةٍ
يسير المرءُ على هديها في رحلة الحياة راسخ القدم
ثابتَ الفؤاد على صراط مستقيم لا تنبَهِمُ أمامه
المسالكُ ولا تخفى عليه الدروب .فلا عجبَ أن
يجدَ القارىء في كلّ فصلٍ من فصوله مَعْرِساً
وفي كلّ خاطرةٍ مُستراحاً ومَقيلاً ، فيخال نفسَهُ
يطوف على مقامات الإيمان ومنازل الفضيلة .كما
تطوف الشمس على منازل الكمال في آفاق السماء
وينتقلُ الطّير على الأفنان في رحاب الرياض .

الناشر